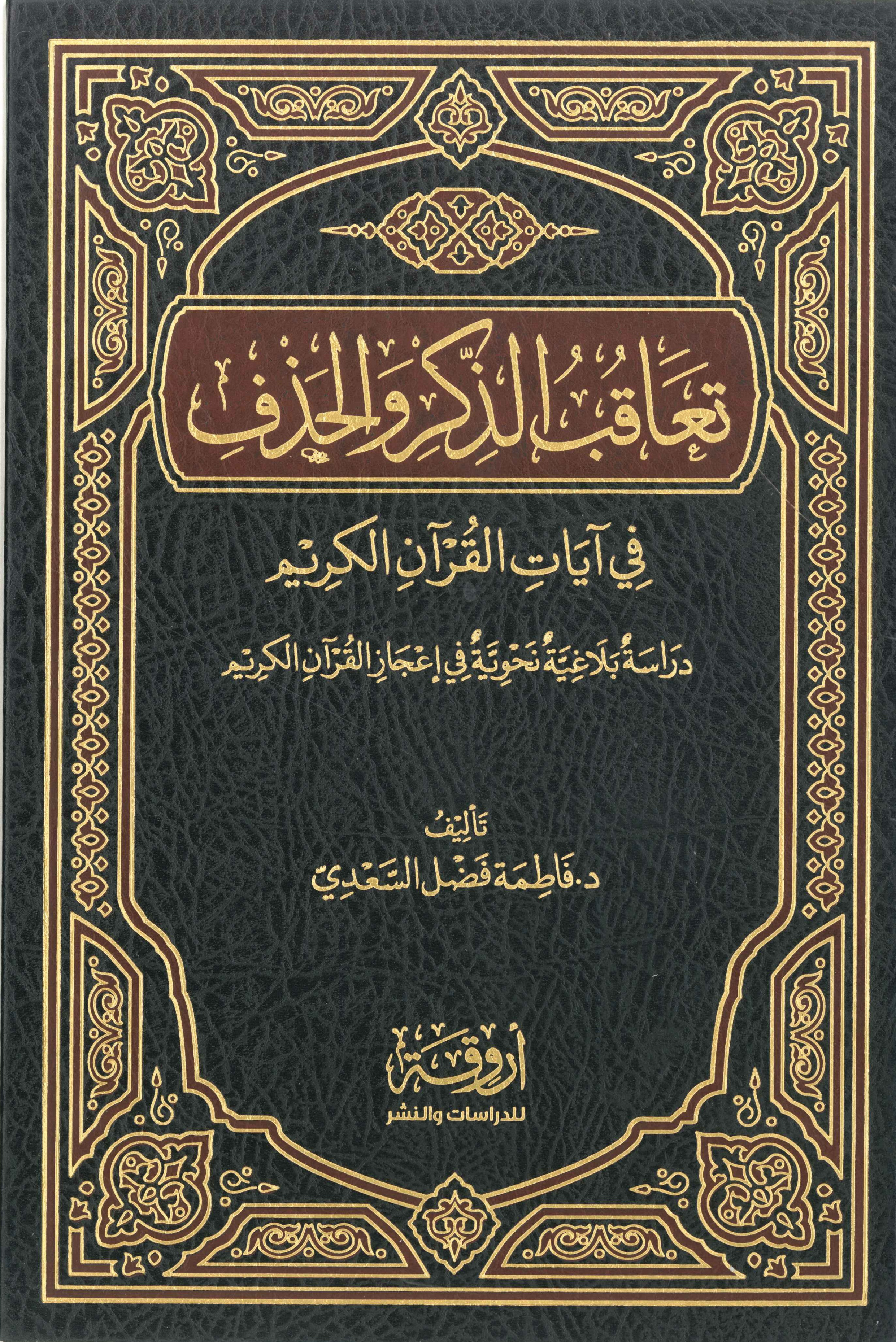


تعاقب الذكر والحذف
في آيات القرآن الكريم
دراسة بلاغية نحوية في إعجاز القرآن الكريم
تأليف
د. فاطمة فضل السعدي
أروقة
للدراسات والنشر

تعاقب الذكر والحذف

في آيات القرآن الكريم

□ **تعاقب الذكر والحذف في آيات القرآن الكريم**
دراسة بلاغية نحوية في إعجاز القرآن الكريم
تأليف : د. فاطمة فضل السعدي
الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٠٩٨ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٧٤/ ١/ ٢٠١٣)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

تعاقب الذكر والحذف

في آيات القرآن الكريم

«دراسة بلاغية نحوية في إعجاز القرآن الكريم»

تأليف

د. فاطمة فضل السعدي



بسم الله الرحمن الرحيم




الإهداء

أهدي هذا العمل إلى كل الذين وقفوا إلى جانبي فسهّلوا لي سبل الكتابة، وأخص بالإهداء رفيق دربي وأولادي، فلولا توفيق الله ثم تعاونهم لما خرج هذا الكتاب إلى الوجود، لعل الله ينفع بما أقدِّم كل من يقرأ ويتدبر، راجية من وفّقني إلى إنجازه أن يجعله في الآخرة حُجةً لي لا حُجةً عليّ، وأن يكون صدقةً جاريةً وعلماً نافعاً.

د. فاطمة السعدي






شكرٌ وتقدير

الحمد لله الذي منحني القدرة، ووهبني الثبات، وكان المعينَ لي على إنجاز هذا العمل وكتابته.

وعميق شكري ووافر تـقديري إلى كل منْ وقف إلى جانبي، ومدّ لي يد العون؛ بإبداء رأي سديد أو توجيه أو نقد أو متابعة، منذ أن كان هذا العمل مشروعاً وفكرةً حتى أصبح كتاباً قائماً على سوقه، ولولا فضل الله وتوفيقه ومؤازرة الجميع لي لما رأى هذا العمل النور.. فجزى الله الهمم العالية خير الجزاء.

والله الموفق،،

توطئة

يتناول هذا الكتاب موضوع تعاقب الذكر والحذف في آيات القرآن الكريم حدّدتُ فيه مواضع التعاقب ومقاصده من خلال النصوص القرآنية.

وقد أوضحت أولاً مفهوم التعاقب ومفهوم الذكر والحذف، والآيات المتشابهة التي فيها تعاقب الذكر والحذف.

فالمقصود بالآيات المتشابهة على صعيد هذا البحث أن تتشابه آيتان أو أكثر إلى حد التماثل إلا أن آية تزيد عن الأخرى أو تنقص عن الأخرى بحرف أو مفردة أو جملة أو شبه جملة يستلزم ذكرها أو حذفها دلالة خاصة جديدة فرضتها الزيادة أو الحذف.

وقد تم جمع آيات التعاقب وتصنيفها حسب نوع المذكور في آية والمحذوف في الآية الأخرى وكان تصنيفها حسب نوع المذكور والمحذوف في أربعة فصول:

الفصل الأول: تعاقب ذكر الحروف وحذفها في الآيات المتشابهة وما نتج عن هذه الزيادة أو الحذف من معان خاصة.

الفصل الثاني: تعاقب ذكر مفردة (لكلمة) في آية، وحذفها في الآية الثانية وما نتج عن هذه الزيادة أو الحذف من معان ودلالات.

الفصل الثالث: تعاقب ذكر جملة أو شبه جملة في آية وحذف هذه الجملة أو شبه الجملة من الآية الثانية، وما ترتب على هذا الذكر أو الحذف من دلالة أو معنى.

الفصل الرابع: تعاقب الذكر والحذف في القصص القرآني وما ترتب على الذكر والحذف من دلالات ومعانٍ.

وفي كل فصل من هذه الفصول الأربعة تم رصد الآيات وترتيبها حسب منهج متبع، كما تم عرضها ومناقشتها ودراستها دراسة منهجية نحوية وبلاغية وأسلوبية مستنيرة بآراء النحاة والبلاغيين والمفسِّرين القدماء والمعاصرين ممن كان له رأي وموقف من هذه الآيات، قمت بمناقشتها وترجيح بعضها وكان الحكم والاحتكام إلى القرآن الكريم عند تضارب الآراء أو اختلافها.

وقد عرضت آراء النحاة والمفسرين في قضية الزيادة في القرآن الكريم، وقمت بمناقشتها وذكر الشواهد عليها وبينت المقصود من الزيادة بأنها «الذكر» مقابل الحذف في موضع وموضع آخر مشابه مستعينة بأسباب النزول ومكانه للآيات المتشابهة، فكان من النتائج التي خلصت إليها أن أسلوب القرآن محكم السبك فلا يذكر حرف إلا لحكمة بالغة وقصد معين أيضاً وأن بعض الحروف التي شهد النحاة بزيادتها لها دلالتها الخاصة في موضعها وعند حذفها لا تتضح هذه الدلالة، بل تتغير كما سيأتي لاحقاً.

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أؤكد على أهمية دراسة القرآن الكريم في جميع فروع اللغة العربية بحيث يكون النص القرآني هو الأساس الذي تقوم عليه الدراسات اللغوية العربية، وأخص بالذكر تفسير القرآن تفسيراً أدبياً جمالياً مما يفتح للدارس والقارئ أسراراً من الإعجاز في ضوء التقدم التكنولوجي الذي يسهّل عملية البحث والتدبر والتذوق.

والله الموفق

المؤلفة

تعريف التعاقب لغة واصطلاحاً:

التعاقب لغة: ورد في معاجم اللغة في باب «عقب».

عقب يعقب عقباً ويعقب عقباً وعقوباً، والتعاقب: الإتيان بشيء بعد الآخر، وعاقب بين الشيئين إذا جاء بأحدهما مرة وبالآخر أخرى وتعاقب القوم في الأمر تناوبوه.

وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: ملائكة يتعاقبون عليه حافظين له، وورد في الحديث النبوي الشريف «أن لله ملائكة يتعاقبون فيكم» فالتعاقب: التحول من حال إلى حال والمجيء بالشيء بعد الشي[1].

التعاقب اصطلاحاً:

أما مفهوم التعاقب في هذه الدراسة فهو ذكر حرف من حروف المعاني أو مفردة أو جملة أو شبه جملة في آية وحذفها من آية أخرى مشابهة لها مما يوجب اختلافاً بين مقصود الآيتين فيكون التعاقب بأن تختص آية دون الأخرى بهذا الذكر أو اللفظ.

مفهوم الآيات المتشابهة:

المقصود هنا المماثلة من جهة الكيفية بحيث لا تتميز إحدى الآيات عن الأخرى لما بينهما من التشابه فتشبه الأولى الثانية.

ورد في معاجم الألفاظ الشبه جمعه أشباه وشابهه وأشبهه، أي: ماثله وفيه (من شابه أباه فما ظلم) وتشابها: أي: أشبه كل منهما الآخر.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي (٩: ٢٩١).

أما مفهوم التشابه في دراستنا هذه فيعني التماثل لدرجة الانعكاس المرآوي للألفاظ، في آيات قرآنية أما المتشابه عكس المحكم في القرآن الكريم وهو ما أشكل تفسيره واختلف فيه، فهذا ليس ما نقصده أو نعنيه في بحثنا.

والجدير بالذكر أن التكرار بدون زيادة أو حذف في الآيات لا يندرج أيضاً في موضوعنا فقد تتشابه الآيتان بدون أن يتعاقب فيها حذف أو ذكر فلا نذكرها.

أما المقصود في قولنا الحذف والذكر في آيات القرآن الكريم فقد يكون في آية أو في جزء من آية أو في آية واحدة وقع فيها الحذف والذكر معاً.

مفهوم الحذف والذكر عند القدماء والمعاصرين:

تناول الأقدمون موضوع «الذكر والحذف» في آيات القرآن الكريم في ثنايا كتبهم ضمن موضوعات مختلفة ولأغراض متعددة بدون أن يفردوا لها كتباً مستقلة تنتظم فيها مفرداته جميعاً.

فقد بحث النحاة قضية «الحذف» ضمن أبواب خاصة في كتب النحو فتحدثوا عن حذف المبتدأ أو الخبر أو المفعول أو حذف الصفة أو الموصوف، كما بحثوا قضية الحذف ضمن أبواب أخرى ليست خالصة للحذف مثل باب حروف المعاني وزيادتها، أو باب الحذف في جملة الشرط وجوابها، أو في باب الإتباع الإعرابي.

وحين أعربوا جانباً من آيات القرآن الكريم لجأوا إلى تقدير «محذوف» ليستقيم إعراب الآية على الأساس النحوي الذي صاغوا له القواعد، وعلى سبيل المثال حين واجهتهم في القرآن الكريم حروف لم يجدوا لها تخريجاً نحوياً أو مخرجاً إعرابياً قالوا: إنها زائدة وأن دخولها كخروجها.. وقد ساعدهم على ذلك وجود آيات مشابهة بدون

هذا الحرف فاستأنسوا بها وعدّوها شواهد على زيادة الحرف في موضع وعلى حذفه في موضع آخر.

أما البـلاغيون فقد جعلوا أبواباً في كتب الإعجاز تبحث قضية الذكر والحذف لكنهم فصلوا بين البابين، فجعلوا للحذف أبواباً مستقلة واشترطوا له شروطاً وأوجدوا له قرائن توحي بوجوده وتمنع ظهوره، بحيث إذا ذكر هذا المحذوف أو ظهر ذهب بثراء الدلالة وخصوبتها على حد تعبيرهم.

وحين تحدثوا عن الذكر أفردوا له أبواباً خاصة فأعلوا من شأن المذكور وبيَّنوا أثره على الدلالة، وهذا دليل على أنهم تناولوا الذكر بمعزل عن الحذف، وتناولوا الحذف بمعزل عن الذكر، ولم يتـتبعوا مواضع تعاقبهما ليحكموا بأثر هذا التعاقب في الدلالة.

ونحن لا ننكر فضل هذه الأبواب وأهميتها، وإن كانت منـفصلة فقد التفت هؤلاء إلى أهمية الحذف واعتبروه ضرباً من ضروب البلاغة ودليلاً على إعجاز القرآن فدرسوا هذه المواضِعِ ووقفوا عندها شارحين مفسِّرين.

ومن جهة أخرى لفتت قضية تكرار بعض الآيات نظَر المفسرين والبلاغيـين، فبحثوا أسراره واسرار تشابه ألفاظ بعض الآيات مع اختلاف أجزاء بعضها كقضية التقديم والتأخير والإفراد والجمع والحذف والذكر والتعريف والتنكير.

أما مَنْ كـتب في علوم القرآن الكريم فقد جعل باب الذكر والحذف في الآيات المتشابهة جزءاً من العلوم القرآنية التي يجدر بالمسلم أن يتعلمها حتى يصل إلى فهم القرآن الكريم. لذا فقد تضمنت كتب علوم القرآن أبواباً للذكر والحذف احتوت هذه الأبواب على شواهد وأمثلة من آيات القرآن الكريم بدون شرح أو تفسير في غالب الأحيان وأدرجوها تحت عنوان (علم المتشابه) أو (ما يشتبه بالزيادة أو النقصان).

ومن أبرز هذه الكتب كتاب (درة التنزيل وغرّة التأويل) للخطيب الإسكافي وكتاب (البرهان في تأويل مشكل القرآن) للكرماني، والجدير بالذكر أن الكرماني لم يخرج في كتابه عما ذكره الإسكافي لكنه اختصره ولخّصه.

أما في عصرنا الحديث فقد اتجهت بعض الأقلام إلى الكتابة في موضوع الذكر والحذف ضمن ما تناولت من قضايا إعجاز القرآن في الدراسات والمؤتمرات، أو من خلال كتب تبحث في قضايا نحوية في القرآن الكريم تتعلق بالذكر والحذف وحروف المعاني ومن هذه الكتب (لطائف المنان) لفضل عباس و(شواهد في الإعجاز القرآني) لعودة الله القيسي.

وقد حاولوا جميعاً تأويل المتشابه وتعليل الذكر والحذف في إلمامات سريعة.

ومن هنا فكّرت إزاء هذا التشتت في مفردات موضوع الذكر والحذف أن أتناوله في كتاب مستقل يستوفي عناصره ويضعه في الصورة المنشودة فيصبح قريب التناول داني القطاف.

وهكذا جاءت فكرة هذا الكتاب لتكشف عن تعاقب الذكر والحذف في آيات القرآن فتحدد مواقعها، وتبين نوع المحذوف أو المذكور، وتوضح الحكمة من الذكر أو الحذف، حتى نصل بالقارئ إلى قناعة أن ما ذكر في موضع ما كان له أن يحذف من الموضع ذاته، وأن ما حذف في الموضع الآخر ما كان له أن يذكر في الموضع ذاته.

راجية الله أن أكون قد أضفت في محاولتي الجادّة لبنة في صرح العمل القرآني وأنا لا أدعي السَّبق ولا التفرد، فنحن نبدأ حيث انتهى من سبقنا ونعتبر ما قدموه لنا إشارات مضيئة تنير لنا الطريق. ويبقى البحث ما دامت الحياة ويظل القرآن الكريم مورداً عذباً ينهل منه الباحثون جيلاً بعد جيل.




الفصل الأول

تعاقب الذكر والحذف في حروف المعاني

وفيه الموضوعات التالية:

ـ مفهوم الحروف وأقسامها، حروف المباني، حروف المعاني.

ـ المقصود بحروف المعاني.

ـ تعاقب ذكر الحروف التالية وحذفها في الآيات المتشابهة:

١ ـ همزة الاستفهام

٢ ـ إذن

٣ ـ أن

٤ ـ الباء

٥ ـ عن

٦ ـ الفاء

٧ ـ في

٨ ـ اللام: أ ـ لام الملكية. ب ـ لام التوكيد.

٩ ـ لا

١٠ ـ مِنْ

١١ ـ النون

١٢ ـ الهاء

١٣ ـ الواو




مفهوم الحروف وأقسامها

حروف المباني وحروف المعاني

المقصود بحروف المعاني:

قسّم النحاة الحروف إلى قسمين: حروف المعاني وحروف المباني، وقصدوا بحروف المباني: الحروف التي تكوّن بنية الكلمة، والمقصود بالبنية: إطار ذهني للكلمة المفردة وليست هي الكلمة ذات المعنى المفرد، فالبنية مفهوم صرفي لا ينطبق ولا يدل على معانٍ مفردة، وإنما يدل على معانٍ صرفيّة ونحويّة لا تتحقّق إلا من خلال التركيب، وحروف المباني محدودة العدَد بالنظر إلى صيغ المجرد والمزيد، ونُسِبَ لكل مبنى من المباني[١] عددٌ من المعاني الوظيفية، وقد تـتعدد المعاني الوظيفية للمبنى الواحد.

أما حروف المعاني: فالمقصود بها تلك الحروف التي تؤدي معنى أو عدة معانٍ في غيرها فقط وتعتبر روابط في التركيب يتوقف معناها على ذكر مُتَعلّقاتها وإذا أفردت فقد تبخّرت معانيها[٢]، وقد تناول اللغويون والنحاة هذه الحروف بالدراسة فذكروا فوائدها كحروف الجرّ أو العطف أو الإضافة وجعلوا لكل حرف معنى أصلياً وعدة معانٍ فرعية أخرى[٣].

---

(١) البيان في روائع القرآن، تمام حسان ص١٧، ص٢٠.

(٢) د. محمد حسن عواد: تناوب حروف الجر في لغة القرآن ص٧.

(٣) المصدر نفسه ص٨، ص١٠.

وقد أدرك بعض النحاة القدماء أهمية السِّـياق في جلاء المعنى اللغوي لهذه الحروف، وأن هذه الدلالة المقصودة لا تتضح إلا في داخله ومن خلال التركيب(١).

فشـرحوا معاني الحروف وعلى كم يتصرف الحرف فيها وذكروا استعمالات الحرف المختلفة في تراكيب مختلفة وتحدثوا عن إعمالها وإهمالها وجاؤوا بشواهد من القرآن الكريم ومن الشعر ومن الأقوال المأثورة(٢).

وقد حاول بعض المحْدثين الكشف عن بعض أسرار حروف المعاني كالفاء والواو وثم وتتبعوها في النَظْم القرآني وحاولوا الكشف عن وجوه بلاغتها(٣).

ويلتزم هذا الفصل بذكر حروف المعاني التي ذُكرت في آيـةٍ ولم تذكر في آية أخرى مشابهة مرتبةً حسب الحروف الهجائية، بقصْد تتبُّع تعاقب ذكر الحرف وحذفِه والمعنى المكتسب من الذكر في موضعه ولماذا لم يُذكر في الموضع الآخر، وما هي المعاني التي أكسبَهَا الحرف للسياق وما الرسالة التي يؤديها في موضِعه.



(١) علي الحمد: مقدمة المحقق على كتاب الزجاجي: حروف المعاني ص٢٣.

(٢) المصدر نفسه ص٢٥، وحروف المعاني ص١.

(٣) د. محمد أمين الخضري: من أسرار حروف العطف ص٣، عبدالقادر حسين فن البلاغة ص٤٨.

تعاقبُ ذكر الحروف التالية وحذفها في الآيات المتشابهة

١ ـ الهمزة:

تأتي الهمزة على وجهين:

أحدهما أن تكون حرفاً ينادى به القريب، وليس في التنزيل العزيز نداء بالهمزة؛ إذ اقتصر النداء في القرآن الكريم على الياء وهذه يكثر حذفها[١].

والثاني أن تكون للاستفهام وحقيقته طلب الفهم.

والألف أصل أدوات الاستفهام ولهذا خُصّت بأحكام هي:

١ ـ أنها ترد لطلب التصور إذا جاءت مقترنة بـ«أم» ولطلب التصديق إذا جاءت بدون «أم»، وأنها تدخل على الإثبات والنفي ولها تمام التصدير على مذهب سيبويه والجمهور[٢]. وقد تخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي إلى معان بلاغية منها التسوية، والإنكار، والتقرير، والتهكم، والتعجب، والأمر، والاستبطاء، مما ورد في آيات القرآن الكريم وتحدّث عنه البلاغيون[٣].

وقد تعاقب ذكر همزة الاستفهام وحذفها في آيات متماثلة وخرج الاستفهام فيها عن معناه الأصلي إلى التقريع والتوبيخ والإنكار تأمل في قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ

---

(١) ابن هشام: مغنى اللبيب (١: ١٣).

(٢) ابن هشام: مغنى اللبيب ص ١٧، ١٨.

(٣) المصدر نفسه: (١: ١٤-١٨) أحكام الهمزة ومعانيها.

لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

وقوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٤-٥٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٢٩].

والمتدبر للآيات الثلاث يلاحظ أن استفهام لوط في قوله لقومه «أتأتون» جاء استفهاماً للتقريع والتوبيخ والاستنكار؛ إذ جمع بين همزة الاستفهام والفعل المضارع، ثم فصّل ما استهجنه فبيّن الفاحشة ووضّحها قائلاً: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾. فجاء بجملة خبرية مؤكدة بإنّ واللام، ليركّز على صدق قوله وعلى توبيخه لمثل هذه الممارسة المستهجنة.

أما في سورة النمل فقد سأل لوط قومه سؤالاً توبيخياً استنكارياً: أتأتون الرجال؟؟ وألْحق به استفهاماً آخر ليزيد استهجانه واستنكاره ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ وقد جاء الاستفهام مؤكداً بإن واللام أيضاً.

وفي سورة العنكبوت: أكد في خطابه لقومه على إتيانهم الفاحشة بجملة خبرية مؤكدة بإن واللام ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ﴾. ثم عقّب باستفهام استنكاري بالهمزة المتصدرة لجملة مؤكدة بمؤكدين أيضاً هما إن واللام ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾. فجمع في الآية بين إن في جملة خبرية وأإن في جملة استفهامية، ولا يخفى زيادة التقريع والتوبيخ بذكر الاستفهام المقترن بأدوات التوكيد.

ويعزو الكرماني ذكر إنّ مرتين لـموافقة أسلوب هذه الآية آخر القصة في قولـه تعالى: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، آية ٣٣، ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ﴾، آية ٣٤، في حين جاء في الأعراف ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٣]. فالجزاء ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: ٣٣] فاقتضى ذلك تكرار التأكيد لمعنى التقريع مرتين إحداهما بالاستفهام الاستنكاري والثاني بإن[1].

والرأي عندنا أن قوله تعالى ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يدل على أن النجاة ذكرت في هذا الموضع كخبر قد تم ووقع أما قوله: «إنا منجوك» فهو وعد بالإنجاء المؤكّد لأمرٍ لـمّا يَحصل بعد لكن سيحصل في المستقبل لا محالة.

٢ـ تعاقب ذكر الحرف «إذن» وحذفه:

إضاءة:

اعتبر النحاة «إذن» حرف جواب وجزاء، وقالوا: الأكثر أن تكون جواباً «لأن» و«لو». قال ابن هشام: حيثما جاءت بعدها اللام قدرّت قبلها لو وإن لم تكن ظاهرة[2]، وأما عملُها فقد عدّها النحاة من حروف النصب فإنها تنصب بذاتها لا بأن المضمرة بعدها، حيث تنصب الفعل المضارع ضمن شروط هي: تصدّرها (أن تكون في صدر الجملة) وأن يكون الفعل للاستقبال، واتصالها بالقسم أو بلا النافية.

وقال جماعة من النحويـين: إذا وقعت إذن بعد الواو أو الفاء جاز فيها الوجهان ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٣] وقرئ شاذاً بالنصب[3].

---

(١) الكرماني: البرهان ص٧٦.

(٢) ابن هشام: المغني (١: ٢٠).

(٣) المصدر نفسه (١: ٢٢).

ومما يلفت النظر اجتماع حرفي همزة الاستفهام وإذن في آية، وحذفهما في آية اخرى، مشابهة على النحو التالي:

في سياق قصة موسى عليه السلام وفرعون والسحرة تطالعنا آيتان متشابهتان في حوار بين السحرة وفرعون؛ حين استدعاهم ليتباروا مع موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].

ولا بد من تدبر الآيتين، لندرك الحكمة من وجود «إذاً» في آية الشعراء، وحذفها من الأعراف.

فقد قال السحرة لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ على الإخبار وإثبات الأجر وإيجابه؛ فقد كانوا يتوقعون أجراً عظيماً لا بد منه[١].

وقد وردت كلمة «أجراً» منكّرة لتدل على عظم ما يطلبونه وكثرته فأجاب مطمئنًا: ﴿نَعَمْ ﴾، والموقف لا يحتمل الإطناب ليقول إجابةً عن قولهم: «نعم إن لكم لأجراً»، بل عطف عليه ما لم يكونوا يتوقعون من تقريبهم إلى حضرته ورفْع منزلتهم؛ فلن يقصْر ثوابهم على الأجر وحده؛ بل سيضيف إليه كرامة تقريبهم إليه[٢] ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٤].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ١٣٤).

(٢) المصدر نفسه ص١٣٤.

أما ما ورد في سورة الشعراء فقد قالوا له مستفسرين عن الجزاء، إن كانوا هم الغالبين: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾؟ هل ستعطينا أجراً[١]؟

والسؤال يقتضي جواباً ويوحي بتوقع ألا يُعَطوا أو أن يُعطوا. وحتى يشجعهم ويطمئنهم قال: ﴿نَعَمْ﴾ كما في الآية السابقة، وعطف أيضاً ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

و«إذاً» حرف جواب وجزاء، وفي اقتران ﴿نَعَمْ﴾ بـ«إذاً» مزيد من التوكيد والتشجيع عن قوله: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فقد ذكّرهم بتنفيذ الشرط ليحصلوا على الجزاء والثواب الذي سألوه بالإضافة إلى القربة عنده والزلفى.

وبذلك يكون دخول «إذاً» في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء معاً[٢]. مما حفز السحرة ليقولوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] بينما لم تكن هذه إجابتهم في الأعراف[٣].

ومن الجدير بالذكر أن استخدام القرآن الكريم لأسلوب «إذاً» لم يأت مطلقاً مع فعل مضارع، فيعمل فيه الحرف «إذاً» النصب، على اعتبار أنه حرف ناصب بنفسه وإن احتفظت بمعناها (الجواب والجزاء في كل موضع)[٤]. فقد اشترط النحاة لأعمالها في المضارع تصديرها، وأن يكون المضارع للمستقبل، ومتصلاً بها غير منفصل بقَسم أو بـ«لا النافية»[٥]. ولم تكتمل هذه الشروط في أي موضع ذكر فيه الحرف «إذاً»؛ فواقع

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٣: ٣٠٣).

(٢) المصدر نفسه (٣: ٣٠٣).

(٣) انظر الآيات ١١٥، ١١٦، بقية القصة.

(٤) ابن هشام: مغني اللبيب (١: ٢١). وانظر سيبويه: الكتاب (١: ٤١١، ٤٨٣).

(٥) المصدر نفسه (١: ٢١).

الحال في الأسلوب القرآني يشير إلى عدم استخدام «إذاً» على ما اشترطوا خلال واحد وثلاثين موضعاً تعددت صور الفعل معها، وتغيرت مواضع الحرف، ليسبق بالفاء مع الفعل المضارع المنفي في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] أو يأتي الحرف مع الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٦٧]، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أو متوسطاً بين مبتدأ وخبر، أو بين اسم «إن» وخبرها المقترن باللام، أو بين فعل القول ومفعوله. وفي كل ما سبق لم تعمل «إذاً» نصباً في الفعل المضارع.

وهذا يدعونا إلى إعادة النظر في بعض القواعد النحوية التي يجعلها النحاة قوالب متّبعة، لكنها في النحو الوظيفي وفي أسلوب القرآن الكريم المعجز لا تأتي ولو لمرة واحدة.

٣ـ تعاقب ذكر «أنْ» وحذفها:

وردت في القرآن الكريم آيتان متشابهتان اقترنَت في إحداهما «لمّا» التوقيتية الحينية بأنْ «لما أنْ» وخلَت الثانية من «أنْ» على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧].

والملاحظ ذكر حرف «أن» بعد «لمّا الحينية» في آية العنكبوت بينما حذفت «أن» بعد «لـمّا الحينية» في آية هود. مع تشابه الآيتين.

حاولتُ استعراض وإحصاء ما جاء في آيات القرآن الكريم من أسلوب لـمّا الحينية فوجدتها ذكرت مئة وخمسين مرة بدون «أنْ».

بينمـا ذكرت لـمّا متبوعة بأن في ثلاثـة مواضع منها موضع العنكبوت، أما الموضعان الآخران فهما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦]، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩].

ولعل هذا الإحصاء لأسلوب «لـمّا الحينية التوقيتية» في القرآن الكريم يدل على ظاهرة مهمة وهي: أن مجيء «لـمّا» غالباً ما يكون غير مقترن بـ«أنْ» لكنه قد يقترن بها بدليل الآيات الثلاث وبدليل تعاقب ذكرها وحذفها في آية العنكبوت وآية هود المتشابهتين. وبدليل آخر وهو اقتران «لـمّا» بـ«أن» في آيتي القصص ويوسف أيضاً.

وهنالك ملحظ بياني بلاغي يميز أسلوب لما عن «لـما أنْ» فإن هناك معنى مكتسباً لذكر «أنْ» بعد «لـما». ولا بد من دراسة وتدبر ما قيل في الآية: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣].

فنلاحظ وجود فِعْلين ماضيـين ترتّب حصول أحدهما على وقوع الفعل الآخر في وقتين قريبين لا تراخي بينهما ولا تباعد، وكأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان.

وبنفس الطريقة نعالج آية العنكبوت «فلمـا أنْ جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم»

أي: لما أحسَّ بمجيئهم فاجأته الـمساءة من غير تريث ولا تفكير خوفاً عليهم من قومه.

ووجود «أنْ» بعد «لـمّا» دل على أن الجواب وقع في الحال من غير تـراخٍ أما ورود «لمّا» بدون أنْ ففي سورة هود ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ بدون «أنْ» فقد اتصل به كلام بعد كلام إلى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] والآية السابقة هي٧٧.

وقد وجد النحاة والمفسرون والبلاغيون أنفسهم أمام قضية حاولوا إيجاد تخريج لها، أو إيجاد ملحظ بياني يميز الأسلوب الأول «لما» والثاني «لما أن» في محاولة توفيقية بين الآيتين المتشابهتين والأسلوبين المطردين، وإيجاد معنى مكتسب لذكر «أن» بعد «لما».

فقال ابن هشام بزيادة «أن» للتوكيد كسائر الزوائد[١] في أسلوب «لما التوقيتية».

وتابعه الرأي أبو حيان الأندلسي فرأى أن زيادتها بعد «لما» للتوكيد قياس مطرد[٢].

بينما حمل ابن الأثير في «الـمثل السائر» على النحاة، واتهمهم بأنهم لا يعرفون الدقائق والرموز، ولا تؤخذ منهم لأنها ليست من شأنهم، وقال بأن وجود «أن» بعد لما يعني مضي مدّة بعيدة وأمد متطاول بين الفعل الذي بعد «لما» وجوابه.

ويعزز رأيه بآية يوسف ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ إذ إنّ بين مجيء البشيـر إلى أبي يوسف وإلقاء القميص، وبين إلقاء يوسف في الجب إبطاءً بعيداً، وقد اختلف المفسرون

---

(١) ابن هشام: مغني اللبيب (١: ٣٣).

(٢) أبو حيان: النهر الماد مج٣ ص٣٤١.

في طول تلك المدّة، ولو لم يكن ثمة مدّة بعيدة وأمد متطاول لما جيء بـ«أن»، بل كانت: «فلما جاء البشير ألقاه على وجهه»[١].

وتصدّى له الصلاح الصفَدي؛ فاتهمه «بأن إعجابه بعقله جنى عليه، فتصور الخطأ صواباً فأخذ يتبجح أنه ظفر بما لم يكن عند النحاة»، وفنَّد الصلاح رأي ابن الأثير بأن «الفاء» جاءت عقيب قوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣] وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] ولم يأت عقيب قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥].

ويخلص إلى أنه لا تراخي بين البعدين ولا مدّة مديدة، ولهذا قال النحاة: أنها هنا زائدة[٢].

والزمخشري على هذا الرأي، فقد اعتبر «أنْ» صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان، فقال في تفسير آية العنكبوت: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾؛ أي: لما أحسَّ بمجيئهم فاجأته المساءة من غير تريث خيفة عليهم من قومه[٣]. والكرماني أيضاً على هذا الرأي حيث قال: إن «لما» تقتضي جواباً وإذا اتصل به «أن» دلّ على أن الجواب وقع في الحال من غير تراخ وهو قوله: ﴿سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾. أما ما ورد في سورة هود ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ فقد اتصل به كلام بعد كلام إلى قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]. فلما طال لم يحسن دخول «أن»[٤].

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر (٢: ٨٨).

(٢) انظر التفصيلات في محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم مج٥ ج٤ ص ٤٢٦ ص ٤٠٦.

(٣) الزمخشري: الكشاف (٣: ٤٣٨).

(٤) الكرماني: البرهان ص١٥٣.

ويخلص إلى أن طول الكلام قرينة على أن الجواب لم يقع في الحال بدليل قوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]. أما في العنكبوت فإن فيها ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ [العنكبوت: ٣٤] وليس فيها ما يدل على إمهال[1].

وقد سبقه إلى هذا الرأي الخطيب الإسكافي، الذي أتى بشواهد من الشعر فيها «لما أن»، وجوابها بعدها لم يفصلها عنه فاصل زماني[2].

وخلاصة ما هدى إليه الاستقراء للآيات المقترنة بأن، وغير المقترنة بها واستقراء آراء النحويين حول هذه القضية: هي إنّ «لما» الحينية والتوقيتية رابطة، تحمل معنى المفاجأة، وتربط فعلين بينهما علاقة بناء أحدهما على الآخر، ويجوز أن تقترن «لما» بـ«أن»؛ فإذا اقترنت، فاحتمال الدلالة: المفاجأة دون تراخ، فإذا لم تقترن فهناك تراخ، وعلى هذا فحرف «أن» بعد «لما» الحينية مؤذن بأن النتائج التي يتشوق إليها الإنسان تذكر مباشرة دون تريث أو تمهل.

ونستدل على المعنى المستفاد من وجود «أن» بقرائن سياق الآيات «ما سبقها وما لحقها». وفي ضوء تاريخ النزول والمكي والمدني من الآيات؛ فالآية من سورة هود أسبق من آية العنكبوت.

فقد ورد في سورة هود من التفصيلات الدقيقة ابتداء من آية ٦٩ هود في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ * إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤-٧٥] إلى قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾

---

(١) الكرماني: البرهان ص ١٥٣.

(٢) انظر الإسكافي: درة التأويل ص٣٦١. وقد ذكر د. فضل عباس هذه المسألة في كتابه «لطائف المنان» ص٢٩٥، وأكد أن «أن» ليست زائدة وذكر قول الزمخشري ووافق عليه.

[هود: ٧٤]. ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٦]. ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود: ٧٧]. وفي الآية ٨١ ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١]؛ فالـملاحظ التركيز على الأحداث وسـردها بدقة وتفصيل. أما في سورة العنكبوت فسياق الآية يوحي باختفاء التفصيلات التي سبقت في هود والمسارعة في ذكر الإهلاك. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٣] ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

فطول الكلام في هود يدل على أن الجواب لم يقع في الحال؛ فلم توجد «أن» وعدم التراخي والمهلة في آية العنكبوت سوّغ ذكرها[١].

وهكذا نخلص إلى أنه لا يستوي البيان بذكر «أن» والاستغناء عنها في أسلوب «لما» الحينية، وعلى ذلك فإنها ليست زائدة.

٤ ـ تعاقب ذكر حرف الباء وحذفه:

أ ـ تأمل الآيتين المتشابهتين التاليتين.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

---

(١) الكرماني: البرهان ص١٥٣.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

يلاحظ أن كلمة «قادر» في سورة الأحقاف اقترنت بالباء بينما لم تقترن بالباء في سورة الإسراء. والجدير بالذكر أن «قادر» هي في الآيتين خبر أن مجرور لفظاً في الأحقاف ومرفوع في الإسراء.

وفي هاتين الآيتين لطيفة بلاغية حيّرت النحاة؛ فالمعروف عندهم اقتران خبر «ليس» بالباء في أسلوب الاستفهام الاستنكاري كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وفي الجواب عليها ما يفيد الإثبات المؤكد والتقرير الملزم لدرجة يجاب عليها بقولهم: «بلى».

وقد تفرّد القرآن بهذا الشاهد الذي حار به النحاة والبلاغيون حيث جاء خبر «أنّ» مقترناً بالباء بينما المعروف والمطَّرد عندهم اقتران خبر «ليس» فقط بالباء.

والمتدبر للآيتين يدرك ضرورة وجود «الباء» في آية الأحقاف في ضوء مساق الآية؛ فقد احتوت على الإجابة «بلى» المقرّرة للقدرة على البعث والنشر، ونفهم من قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ... بِقَٰدِرٍ ... بَلَىٰٓ﴾ أنه سبحانه وتعالى يقرر ويؤكد قدرته.

أما الآية التي خلت من «الباء» فليس هدفها التقرير والإثبات بل خرجت بمعناها إلى التوبيخ لأناس لم يستفيدوا من مشاهداتهم ولم يقنعهم الدليل العقلي على أن من يقدر على خلق السموات والأرض قادر على خلق مثلهم من البشر والدليل على ذلك أنه لم يُجب على الاستفهام ولم يقل «بلى» فسبحان الله.

وعلى ذلك نستطيع أن نقول، إذا خرج أسلوب «أنّ» إلى الاستفهام المنفي واقترن خبره بالباء كان للتقرير والإثبات وإن لم يقترن كان للتوبيخ.

كما نستطيع أن نقول من خلال آية الأحقاف **٣٣** أنه يجوز أن يقترن خبر «أنّ» بالباء مثلما يجوز أن يقترن خبر «ليس» بالباء في أسلوب الاستفهام الاستنكاري، كما نرى أنه لا داعي إلى التأويل البعيد إذ قدّر النحاة اشتمال النفي في أول الآية، كأنه قال: «أليس الله بقادر؟».

ب ـ وتأمل الآيتين المتشابهتين التاليتين:

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] «بضم الراء».

وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧] «بفتح الراء».

ففي الآية الأولى وردت «أنْ» مسبوقة بالباء، وفي الآية الثانية لم تذكر «الباء» قبل «أنْ».

وقد اعتبر بعض النحاة اقتران «أنْ» بالباء في الآية **١٨٩** من غرائب النحو إذا اعتُبر المصدر المؤول اسم «ليس» و«البرَّ» خبر «ليس» مقدماً؛ وذلك لأن المطرد اقتران خبر «ليس» بالباء وليس اسمها.

ولم يجدوا حرجاً أو غضاضة أو غرابة في الآية **٧٧** من البقرة التي خلت من «الباء»، فاعتبروا «البرَّ» خبراً منصوباً مقدماً والمصدر المؤول في محل رفع اسم «ليس».

وقد مال جماعة من النحويين إلى أن يكون «البرُ» بالرفع على أنه اسم لـ«ليس» مستدلين باقتران «أن» بالباء في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن ...﴾ أي: بإتيانكم على اعتبار أنها خبر لـ«ليس».

وإن مال بعض النحاة إلى تقدير باء محذوفة «ليس البر بأن تولوا وجوهكم..» بدليل وجودها في الآية المشابهة الثانية. وفي هذا التقدير تعسّف نحوي.

وهاتان الآيتان أيضاً من المتشابهات التي حيرت النحاة والبلاغيين فهرعوا إلى تأويلها حتى لا تعتبر خارجة على قواعدهم المستقيمة المطردة من وجهة نظرهم. فهم يرفضون أن يكون اسم «ليس» جاراً ومجروراً، أي: شبه جملة.

وكان هذا الخلاف النحوي سبباً في تعدد أوجه قراءة الآيتين فقرأ حمزة «البرَّ» بالنصب على أنها خبر «ليس» مقدم وقرأ آخرون «ليس البرْ» بالرفع على أنه اسم «ليس» مستدلين باقتران «أنْ» بالباء في قوله «ليس البر بأن» على اعتبار «أنْ» وما بعدها خبراً لـ«ليس»، وهذا التعدد في القراءات نابع من تعدد أوجه الإعراب للآية.

والجدير بالذكر أن هاتين الآيتين المتشابهتين تُثيرُ تساؤل قارئ القرآن وحافظه، وقد يقع أحدهم باللحن حين يقرأ: «ليس البرَّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها» (بفتح الراء). قياساً على ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ..﴾ (بفتح الراء أصلاً).

وهما مثار تساؤل لمن يقرأ ويريد التدبر وتعليل الضبط الإعرابي في الآيات المتشابهة ومن هنا فإنَّ توضيح هذه الآيات تجيب عن تساؤلات وتضبط لسان القارئ وتحميه من اللحن والله أعلم.

ج ـ وإذا أمعنا النظر في كلّ من الآيتين المتشابهتين وهما:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧].

فإن من يتدبر الآيتين يلاحظ «أفعل التفضيل» «أعلم» وبعده حرف الباء مقترناً بالاسم الموصول منْ «بمن ضلّ» ومقترناً بالباء «بالمهتدين».

بينما ورد فعل التفضيل بدون «أن» يقترن ما بعده بالباء في قوله: «هو أعلم مَنْ» فجاء الاسم الموصول بدون «الباء» إلا أن الفعل الذي تلا الاسم الموصول كان مضارعاً لا ماضياً.

والجميل أن يقترن ما بعد «أعلم» في بقية الآية بالباء «بالمهتدين» فاجتمع الحذف والذكر لحرف الباء في الآية نفسها. إذ تعاقب الذكر والحذف في موضعين من الآية.

فما وجه الإعجاز والتأويل في الآيتين؟

علّل بعض النحاة وجود الباء بعد أفعل التفضيل بأن «أفعل» إذا أريد به التفضيل فإنه لا يتعدى بذاته ولا ينصب مفعولاً به؛ لأنه ضعيف لا يعمل عمل فعله وأتوا بشواهد قرآنية عديدة على تعدي «أفعل» بالباء مثل: قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

لكن هذه القاعدة رغم اطرادها قوبلت بالعديد من الآيات التي تأتي فيها «أعلم» دون أن يقترن ما بعدها بالباء، بدليل وجود الآيتين المتشابهتين في النحل والأنعام.. كما أوضحنا.

وقد ذهب النحاة إلى تعليل الشاهد الذي خلا من «الباء» فقدروا «باء» محذوفة على القيام بالقياس على الآية المذكور فيها الباء.

ومنهم أبو حيان الأندلسي[١]. وذهب آخرون إلى جواز نصب الاسم بعد أعلم فإذا جاءت الباء كانت للتقوية فقط.

---

(١) في «البحر المحيط» (٤: ٢١٠).

واعتبر البعض «مَنْ» اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وخبرها الجملة الفعلية ومنهم عبدالفتاح الحموز في كتابه «التأويل النحوي» ج١ ص٥٥٨.

والملاحظ أن «أفعل» قد جاء مع لفظ المستقبل بدون «باء» كما في الآية «أعلم مَنْ يضل» بينما جاء مع الفعل الماضي مسبوقاً بـ«الباء» لأن المشهور في أساليب العرب قولهم: «فلانٌ أعلمُ مَن دبّ وأحسنُ من قام وقعد وأفضل من حجّ واعتمر» على وجه الإضافة.

ولو قيل: «أعلمُ من ضلّ» بالقياس على «أعلمُ مَنْ دبّ» لفسد المعنى وكان «أعلم الضالين» والعياذ بالله وبمجيء «الباء» انقطع الشك في توقع مثل هذا المعنى، أما قوله: «أعلمُ من يضل» فلا يتوقع المعنى الفاسد أبداً[1].

والحقيقة أن الإعجاز القرآني في الآيتين المتشابهتين لا يقف عند حدّ الحرف بل إن اختلاف أسلوب التعبير الماضي أدى إلى اختلاف الدلالة من حالة المستقبل «من يضل» إلى حالة الماضي «بمن ضلّ».

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن القرآن يكمل بعضه بعضاً أدركنا أن هناك علاقة حميمة بين الآيتين.

ولتوضيح ذلك نجد أن آية الأنعام تتحدث عن أمور مستقبلية، أي: أن الله سبحانه أعلم من سيضل عن سبيله ومن سيحارب الله بدليل الآية التي سبقتها ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فقد وردت الأفعال «يضلوك ويتبعون ويخرصون» كلها تدل على الحاضر والمستقبل فناسبها أن يكون الفعل بعد «أعلم» مضارعاً.

---

(١) البرهان: الكرماني ص٦٥.

أما الآية الأخرى فهي تتحدث عن أشياء حدثت بالفعل وانتهت وعُرف أصحابها بدليل قوله في سورة النجم: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [النجم: ٣٠] فناسبها أن يكون الفعل ماضياً بدليل ﴿ٱهْتَدَىٰ ﴾ أيضاً.

وبذلك تتضح الصورة وتكتمل، فالله علّام الغيوب يعلم من ضلّ في الماضي ومن سيضل في المستقبل ومن سيكون من المهتدين.

٥ ـ تعاقب ذكر الحرف (عنْ) مع الفعل سأل وحذفُه:

تنوع أسلوب التعبير بالفعل «سأل» في القرآن الكريم حيث يتعدى إلى مفعول واحد في موضع، ويتعدى إلى مفعولين في موضع آخر، أو لا يتعدى، بل يتوسط حرف الجر «عن» بين الفعل «سأل» والاسم الذي يليه.

وقد جاء هذا الفعل في آيتين من سورة المائدة مقترناً بـ«عن» والاسم في موضعين. وفي موضع ثالث اتصل الفعل بضمير (سألـها). وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٢].

ولكي ندرك اختلاف المقصود في كل من الآيتين نستقصي الآيات التي ورد فيها الفعل «سأل» فنجدها على أساليب عدة:

أولها: توسط «عن» بين الفعل «سأل» والاسم، كما ورد في الآيات التالية:

قوله تعالى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ﴾ [الكهف: ٧٦].

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١].

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٢].

﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨].

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٠].

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿عَنِ الْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ [الإسراء ٨٥]، ﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، ﴿عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ [النازعات: ٤٢]، ﴿ وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وثانيها: «سأل» متصلاً بضمير مفعول به ومتعدياً إلى مفعولين بدون «عن» على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ [النساء: ١٥٣].

﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [هود: ٢٩].

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [النساء: ١٥٣].

وبعد دراسة هذه الشواهد القرآنية نستخلص الملاحظ التالية:

تحتمل لفظة «سأل» ـ «يسأل» إحدى الدلالتين:

استدعاء معرفة، أو ما يؤدي إلى المعرفة، أو استدعاء أمر مادي محسوس[١].

أما استدعاء المعرفة: فجوابه على اللسان: كما في المجموعة الأولى يسألون عن «قل»..، ما عدا آية ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، لم يكن الجواب عنها بـ«قل» لأن الله سبحانه يتلقى الدعاء دون الحاجة إلى وساطة أحد[٢].

والسؤال للمعرفة إما للاستعلام، فيتعدى غالباً إلى المفعول الثاني بـ«عن» مثل ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]. أو يتعدى الفعل «سأل» إلى المفعول الثاني بذاته مثل: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ [هود: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

فإذا كان السؤال لاستدعاء مال أو متاع فإنه يتعدى بنفسه مثل ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. أو قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ [الممتحنة: ١٠]. أو بحرف الجر «من» نحو قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء: ٣٢].

وقد تعددت الآراء واختلفت حول الآيتين (١٠١، ١٠٢ من سورة المائدة)

---

(١) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادة (سأل).

(٢) الزمخشري: الكشاف (١ : ٢٢٧).

ومال بعض النحاة إلى اعتبار الضمير المتصل بالفعل «سأل» (سألـها) نائباً عن المفعول المطلق على تقدير «سأل مسألة أو سؤالاً»، ورفض أن تكون «الهاء» في محل نصب مفعول ثان للفعل «سأل» وقدر المفعول الأول محذوفاً أيضاً أي: «قد سأل الذين قبلكم أنبياءهم مسألة».

وحجة النحاة في ذلك: أنه لو كان الضمير عائداً على أشياء مذكورة لتعدى إليها بـ«عن» لا بنفسه؛ ولكنه مفعول مطلق وليس مفعولاً به[١].

وجوّز بعضهم أن يكون الضمير في موقع المفعول به؛ وذلك من باب الحذف والإيصال والمراد سأل عنها[٢].

ومال الآلوسي إلى أن السؤال هنا استعطاء؛ فهو يتعدى بنفسه، مثل قولك: (سألته درهماً) بمعنى: طلبته منه، لا استخبار كما في صدر الآية[٣].

وبالرجوع إلى مناسبات النزول يتبين أن بعض المسلمين قد وجهوا أسئلة إلى النبي ﷺ فكرهها، وهي مسائل تتعلق بالتحليل أو التحريم، أو الأحكام، وقيل: هي مسائل عن أمور الجاهلية وما جرى مجراها؛ فإذا أفتى بها النبي ﷺ شق عليهم وغمّهم وحمّلهم من التكاليف ما لا يطيقون، وأعلن من الأسرار الخفية التي يفتضحون بظهورها؛ فنزلت هذه الآية وفيها أدب المسألة؛ فنهاهم الله عن الإكثار من مساءلة الرسول ﷺ عما لا يعنيهم.

---

(١) الزمخشري: الكشاف (١: ٦٧٠)، الآلوسي: روح المعاني (٤: ٤٠). أبو حيان: النهر الماد (٢: ٣١٩).

(٢) الزركشي: البرهان (٤: ص٣٩).

(٣) الآلوسي: روح المعاني مج٤ ص٤٠.

وقد عفا الله عن بيان هذه الأمور لئلا يسوءَهم بيانها. ويأتي بدليل مادي قاطع على مغبة مثل هذه الأسئلة ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ اتفق المفسرون على أن الأقوام السابقة طلبت من أنبيائها آيات، وحين أعطوها كفروا بها كسؤال قوم صالح نبيهم الناقة، وأصحاب عيسى المائدة(١).

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ «الهاء» لا تعود إلى المسألة عينها، بل مسائل مثلها في كونها محظورة ومستتبعة للوبال، وعدم التصريح بـ«المثل» للمبالغة في التحذير، ثم أصبحوا بها كافرين، أي: بسببها؛ حيث لم يتمثلوا ما أجيبوا به ويفعلوه.

ولعل مناسبة النزول وتفسير الآيات يوضح لنا السبب في مجيء «تسألوا» مقترنة بـ«عن» ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾، ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا﴾؛ لأن السؤال هنا عن أمور معنوية كسؤالهم هل الحج كل عام؟ فلو أجاب نعم لفرض وتحملوا عبئاً لا يطيقونه وليس مطلوباً منهم وقد سبقت الإشارة إلى أن «سأل» إذا احتملت دلالة استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى معرفة، غالباً ما تتعدى بـ«عن». وأما قوله تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ فيحتمل دلالة الطلب المادي المحسوس؛ لذا يتعدى بنفسه؛ وعلى ذلك فهي مفعول به.

وفي رأينا فقد اكسبت «عن» الآية الأولى معنى الاستفسار عن أشياء محددة، والتجاوز عن أشياء أخرى؛ ولهذا فصل ما بين الفعل والفاعل والمفعول به بحرف الجر «عن»؛ أما سألها فالهاء ترجع إلى النمط أو الأسلوب الذي جرى عليه الأقوام السابقة في مخاطبتهم لأنبيائهم؛ وبما أن هذا النمط كان من عادتهم؛ فلم يفصل بينها وبين فعلها بـ«عن».

---

(١) الآلوسي: روح المعاني مج٤ ص٤٠.

٦ ـ تعاقب ذكر حرف الفاء وحذفه:

يتعاقب ذكر الفاء وحذفها في العديد من آيات القرآن الكريم ليصبح هذا التعاقب ظاهرة ملحوظة في مواطن عديدة نحددها بعد أن نستعرض الآيات التالية التي تعاقب فيها ذكر الفاء وحذفها، في قوله تعالى:

أ ـ ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [العنكبوت: ٣٦]، وفي قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [هود: ٨٤].

ب ـ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٧]، ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥].

ج ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[الانشقاق: ٢٥].

د ـ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩]، ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود: ٩٣].

هـ ـ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩]، ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١].

و ـ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤] و[النحل: ٦١].

وبعد تدبر هذه الآيات في المجموعة «أ»، ومثلها في القرآن كثير نخلص إلى الفوائد التالية:

يلاحظ ذكر حرف الفاء مقترنا بالفعل «قال» في آيات، وخلوّه منه في آيات أخرى من القرآن الكريم، إذ اقترن الفعل بالفاء «فقال» في سورة العنكبوت **٣٦** و«قال» بدون الفاء في سورة هود **٨٤**.

كما يلاحظ في المجموعة «ب» اقتران مقول القول بالفاء في العديد من الآيات، وبدون الفاء في آيات أخرى، كما لاحظنا في ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨]، فهو هنا مقترن بالفاء، ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤- ١٥]، بدون الفاء، مع الأخذ بعين الاعتبار كون الإجابة موافقة لأسلوب الطلب؛ فإذا احتوى الطلب على الفاء جاء الجواب مقترناً بالفاء ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾، ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾، (وقال: أنظرني)، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾. والحقيقة أن إثبات الفاء هو الأصل.

ولقد حاول بعض المفسرين تعليل عدم وجود الفاء في آية الأعراف ووجودها في سورة (الحجر) بأن ما ورد في سورة (الأعراف) وقع مستأنفاً لم يقصد به عطف؛ أما في الحجر فهو معطوف على السؤال على تقدير: إن طلبت تأخير الأجل فإنك مؤخر؛ فهو معطوف على السؤال عطف الكلام على الكلام الذي يقتضيه، لا عطف الإجابة

على السؤال فقد سأله إبليس أن يؤخر أجله فأنظره، والفاء توجب اتصال ما بعدها بما قبلها[١].

وقد فصل النداء أو الدعاء بين القول ومقوله فلم يقترن الجواب بالفاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: ٨٢]، فإذا كان مقول القول فعل طلب (سؤال) اقترن بالفاء (قال فأنظرني).

وللخطيب الإسكافي رأي في اقتران «قال» بالفاء أو حذفها، إذ ربط قصة شعيب برابط العطف على ما قبلها؛ إذ سبقها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٤]، فتعلق ما بعد آية نوح بها (بالفاء) كما تعلقت آية نوح بالفاء في قوله: ﴿فَلَبِثَ﴾.

أما في الأعراف فقد سبقتها قصة لوط ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٨٠] فجاءت قصة مدين مثلها بدون الفاء[٢] [الأعراف: ٨٥].

وهذا تأويل بعيد يؤكد ارتباط حرف الفاء بفكرة العطف مع الترتيب والتعقيب؛ لذا أجهد نفسه بالبحث عن العلاقة القائمة بين ما بعد الفاء بما قبلها.

كما يلاحظ أن الفعل «قال» إذا كان في جملة ابتدائية لم يقترن بالفاء كما في سورة الأعراف ٦٠-٦١: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ فهذا كلام ابتدائي أما قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [هود: ٢٧]، [المؤمنون: ٢٤] فإنه جواب لكلام النبي نوح عليه السلام وردّ على كلامه[٣].

---

(١) الكرماني: البرهان ص٧٠.

(٢) الإسكافي: درة التأويل ١٥٢.

(٣) الإسكافي: درة التأويل ص١٥٢.

ولعل قضية الترتيب والتعقيب في معنى الفاء هي التي دفعت الإسكافي والكرماني إلى البحث عن معطوف سابق؛ ليعطف قصة لاحقة على قصة سابقة، كما أن وجود الفاء مرة وحذفها مرة ثانية دفع الكرماني إلى التأويل والتقدير[١]؛ فوجود الفاء دفعهم إلى تقدير إن وأسلوب شرط محذوف حتى يستقيم لهم اقتران الجواب بالفاء (إن طلبت تأجيل الأجل ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾).

والذي يبدو أن الترخص في دخول الفاء على جواب الشرط وارد في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وفي هذا ردّ على من تأول إن طلبت تأجيل الأجل فيجوز ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ بدون الفاء.

وتكثر الشواهد على حذف الفاء في القول ومقوله حتى ليكاد يرقى إلى مرتبة الاختيار الأسلوبي متجاوزاً الوصف بالترخص، وهذا يعني أن حرف العطف الفاء (الرابط) قد يذكر في آيات، ويحذف في أخرى من باب الترخص والاختيار الأسلوبي، إلا إذا لم يذكر الرابط في مكان يجب أن يذكر فيه قلنا بحذفه وقدرناه محذوفاً.

ويرى الدكتور تمام حسان أن «الفاء» قبل القول ضرورية للمعنى، فإذا لم توجد في الكلام قدرناها، شرط أن تكون علاقة القول في الآيات الترتيب والتعقيب، وأتى بمثال على ذلك ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ﴾ [العنكبوت: ٣١] (قال) (قالوا)؛ أي: فقال، فقالوا لأن علاقة القول في كل الآيات السابقة هي الترتيب والتعقيب؛ فتقدير «الفاء» قبل القول في كل آية تقدير يدعو إليه المعنى[٢].

---

(١) الكرماني: البرهان ص٧٠ وانظر قول عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين التي تعطف جملة أو جملتان. عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص١٨٨.

(٢) تمام حسان: البيان ص١٣٩.

أما لماذا حذفت هذه الفاء؟ فقد تحذف طلباً للخفة، أو اختصاراً، أو اقتصاراً، أو تجنباً للحشو[١].

وقد وردت في سورتي الأعراف وص آيات متشابهة على النحو التالي في قصة خلق آدم وسجود إبليس.

١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾، ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]، ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].

يلاحظ المتدبر أن ما ورد من الأفعال بعد القول: ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾، ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، (اخرج) وردت كلها دون أن تقترن بالفاء، وحين نستعرض الآيات المشابهة في سورة ص ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [ص: ٨٠]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٤-٨٥].

نلاحظ اقتران ما بعد «قال» بالفاء في قوله: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾، ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ قال: ﴿فَإِنَّكَ﴾، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾، قال: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾، بعكس الآيات المشابهة من سورة الأعراف.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

ويبدو أن تركيز القصة في سورة (الأعراف) كان على غواية الشيطان ووسوسته

---

(١) ذكر هذا الرأي عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ص ١٨٥ فأينما وجد آية فيها قال بدون الفاء قدر لها محذوفاً على هيئة سؤال: إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال (يقدر أن الفاء محذوفة مقدرة مع سؤال فماذا قال: فيكون الجواب «قال: سلام قوم منكرون» وهذا تقدير غريب بعيد.

وفتنته، وكأن الغرض من ذكرها في هذه السورة تحذير المسلمين والناس من غوايته كما تبينه الآية ٢٧ من الأعراف؛ لذا لم يقترن القول بالفاء؛ فالحكاية سريعة بدليل اختصار العديد من التفصيلات الواردة في سورتي ص والحجر مثل سؤاله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾. فحذف الفاء أتت طلباً للخفة وسرعة الإجابة والاختصار معاً.

أما في سورة ص فكان المقصد الجواب عن امتناع إبليس عن السجود وجوابه، فجاءت الفاء تباعاً: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ [٧٧]، ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾ [٧٩]، ﴿فَإِنَّكَ﴾ [٨٠]، ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [٨٢]، مقترنة بالفاء، والله أعلم.

جـ ـ اقتران خبر الأسماء الموصولة بالفاء كما لو كانت جواب شرط:

لقد أعطيت الموصولات المختصة مثل: الذي، التي، الذين، تلك الموصولات ـ التي لا تنتقل إلى الشرط كما تنـتقل الموصولات الـمشتركة «مَنْ وما» ـ أعطيت عند الإخبار بها بعض ما تعطاه الموصولات التي انتقلت إلى الشرط في مجال الربط (العطف)؛ فإذا أخبرت بالذي أو التي... فإن الخبر يقترن بالفاء في المواضع التي يلزم فيها الفاء جواب الشرط؛ لما بين «الذي» و«مَنْ» من شركة في أصل الموصولية والإبهام[1]؛ إذ يتوقف وقوع خبر الذي على وقوع صلته[2]؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ١-٦]، وتسمى الفاء في هذا الموضع رابطة، تربط شبه الجواب بشبه الشرط[3].

---

(١) تمام حسان: البيان ص٥٠.

(٢) تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص٥٠-٥١.

(٣) ابن هشام: مغني اللبيب (١: ١٦٥).

أما قوله تعالى في سورة الانشقاق: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٥]، فقد سبقه قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۞ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۞ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٢-٢٤]. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فهو استثناء منقطع[1]، وقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استئناف يقرر ما أفاده الاستثناء من انتقال العذاب عنهم وتبيين أجرهم؛ وهذا الموقف لا يستدعي وجود الفاء كما استدعاه الموقف في سورة التين.

المجموعة د:

ومن يتدبر الفاء الفصيحة وتعاقبها يدرك أنه إذا جاءت الآية متصدرة بالفعل «قل» ثم تلا القول فعل أمر فالأسلوب على سبيل الوعيد، والأمر أمر تهديد، وقرينة الفاء تؤكد الفعل للتهديد مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] وتسمى هذه الفاء، الفاء الفصيحة؛ أي: قل «تبكيتاً لهم» وتوبيخاً.

وقد اختلف سياق الآية ٣٩ في سورة الزمر ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حيث اقترنت لفظة سوف بالفاء عن سياق آية هود ٩٣ ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٩٣] فلم تقترن سوف بالفاء؛ فإن ما ورد في سورة الزمر وسورة الأنعام أمر من الله إلى النبي ﷺ أن يخاطب الكفار على سبيل الوعيد؛ أي: اعملوا على طريقتكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وعملكم سبب جزائكم فسيكون لكم من الجزاء ما ستعلمونه.

وأسلوب التهديد واضح في هذه الآية. أما ما ورد في سورة هود فقد جاء في قصة سيدنا شعيب مع قومه عندما تجاهلوه قائلين: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٤: ٧١٥).

وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١]. فقال لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود: ٩٣]، أي: سوف تعلمون وتعرفون عملي وقيمته بعد أن أنكرتموه.

وهكذا ندرك أن:

(سوف تعلمون) بدون «الفاء» وبدون «قل» هي على سبيل الاستئناف وليس فيها من التهديد ما كان في الزمر والأنعام.

ويعزز هذا الرأي الآيات في المجموعة «هـ» قول فرعون للسحرة: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٩] على سبيل التهديد والتوكيد ومثلها في آية الشعراء ٤٩ ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٩].

ومنها قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

و ـ اقتران جواب الشرط إذا بالفاء:

ويتعاقب ذكر الفاء وحذفها في جواب الشرط «إذا» حين يقع جوابها مضارعاً منفياً بـ«لا» فيجوز أن يقترن بالفاء أو لا يقترن بها بدليل قوله تعالى في المجموعة «و»: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٩].

فقد جاء الفعل «يستأخرون» مضارعاً منفياً بـ«لا» فاقترن بالفاء.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤]، [النمل: ٦١] لم يقترن بالفاء جوازاً، أما الفاء التي اقترنت بـ«إذا» فهي استئنافية.

وقال النحاة: إن الفاء التي ذكرت مقترنة بإذا فصيحة. ولم تذكر في آية يونس بل

اقترنت بجواب الشرط، لأن الآية في يونس سيقت جواباً عن استعجالهم العذاب، فاعتنى بأمر الشرط، فأتى بالفاء لتقوية الجواب والتركيز عليه، مما لا يستدعيه سياق الآيات في الأعراف فحذفت من الجواب.

ويجدر أن أشير إلى ظاهرة لافتة للنظر في آيات القرآن الكريم متعلقة بالفاء، وإن كانت تتعلق في التشابه في أسلوب الأداء دون التشابه اللفظي للآيات، وهي أن الآيات التي بدأت بقوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ لم يقترن جوابها بالفاء إلا في سورة طه، في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥].

وهذه الآيات التي لم يقترن جوابها بالفاء هي:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ [المائدة: ٤].

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٣].

وقد حاول أحد المفسرين تعليل وجود الفاء في آية طه دون غيرها؛ بأنّ جميع الأسئلة في الآيات من ١-١٣ قد سألـها أناس للرسول ﷺ، فأنزل الله الإجابة عنها آمراً النبي ﷺ بالتبليغ (قل) إلا في آية طه، فإن هذا السؤال لم يسأل فكان تقدير الكلام: «إن يسألوك عن الجبال فقل»، وبما أن السؤال يحمل معنى الشرط ويتضمنه دون التصريح بأسلوبه فإن اقتران الجواب بالفاء واجب، أما بقية الأسئلة فقد سئلت؛ فهي ليست مشروطة ليقترن جوابها بالفاء، بل حصل السؤال في الماضي وتم وهم ينتظرون الجواب[1].

وفي العودة لكتب التفسير يتبين ضعف هذا التعليل المبني على الافتراض[2] دون دليل، وإن كان الحس اللغوي فيه صحيحاً بحيث يستشف من يسألونك: إذا سألوك. ومن ثم يقترن الجواب بالفاء بالقياس على ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾.

وقد تحذف هذه الفاء كما أشرنا في الصفحات السابقة جوازاً.

فقد ورد في العديد من كتب التفسير أن السائلين في هذه الآية هم منكرو البعث

---

(١) أبو حيان الأندلسي، النهر الماد (٤: ١٠٩)، الآلوسي، روح المعاني مج ٤ ج ٨: ٥٧٠، ٥٧١.

(٢) استبعد أبو حيان هذا التفسير بما أخرجه ابن المنذر عن ابن جريج من أن قريشاً قالوا: يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة. انظر: أبو حيان، النهر الماد (٤: ١٠٩).

من قريش عند ابن جرير إذ قالوا على سبيل الاستهزاء: كيف يفعل ربك بالجبال يوم القيامة؟ وقيل: جماعة من ثقيف، وقيل: أناس من المؤمنين.

وعلى هذا فإن وجودَ الفاء ـ يعني بعد أن سئل السؤال ـ ضرورةٌ حتمية للمسارعة إلى إزالة ما في ذهن السائل من إمكانية بقاء الجبال مما يدور في ذهنهم من أن بقاءها دليل عدم الحشر، وحتى لا يستمر الوهم مما يقضي بفساد الاعتقاد.

وبما أن مقصود السائلين الطعن في الحشر فلا بد من أن يأتي الأمر مقترناً بالفاء، وهو حرف تعقيب دون تراخ لأن تأخير البيان في هذه المسألة الأصولية غير جائز إلا أنه جائز في المسائل الفرعية، ولذا لم يأت بالفاء في الأمر بالجواب على: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ويمكن التعقيب على هذا الأمر باستقراء بقية المواضع فالسؤال عن الساعة؛ وهي من الأصول كالسؤال عن الجبال؛ ولم يقترن الجواب بالفاء وكذلك السؤال عن الروح وعن الأهلة فلماذا اقترنت في الجبال دون بقية الإجابات عن الأصول؟

الظاهر أنه قرن بها هنا ولم يقرن بها ثمةَ للإشارة إلى أن الجواب معلوم للنبي ﷺ قبل ذلك فأمر بالمبادرة إلى الإجابة، بخلاف سؤالهم عن الروح والمحيض والأهلة فلم يكن معلوماً له قبل، فلم يتجاسر عليه أحد من عوام الناس فضلاً عن خواصهم مما لا ينبغي أن يلتفت إليه.

والذي أميل إليه أن الفاء تكسب الجواب سرعة بحيث يجيب المسؤول دون تراخ والإجابة عنها تقتضي السرعة ولا تحتمل الانتظار؛ لـمعرفة المسؤول الجواب مسبقاً ولعدم منحهم الفرصة للتشكك والاستهزاء[1].

---

(١) الآلوسي: روح المعاني (٨: ٥٧٠، ٥٧١).

ولعل ما سبق آية ١٠٥ يعتبر دليلاً على مناسبة الفاء وهو قوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه: ٩٨]، ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ [طه: ٩٩]، ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾ [طه: ١٠٠]، ثم خوفهم يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه: ١٠٢]، ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾ [طه: ١٠٣]، ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ [طه: ١٠٤] ثم ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥]، فالجبال جزء من مظاهر ما يحصل يوم القيامة مما يسألون عنه، ويتهامسون حوله، ويستهزئون به، ويستبعدون وقوعه، والله أعلم.

٧ـ تعاقب ذكر الحرف «في» وحذفه:

عبر القرآن الكريم عن «الخلافة» في آيتين متشابهتين بأسلوبين مختلفين ورد في الأول لفظة ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ مضافة إلى معرفة، والثاني لفظة ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ متبوعة بجار ومجرور على النحو التالي: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [١٦٥: الأنعام].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٣٩].

ونجد من الضرورة أن نربط كل عبارة بما سبقها أو لحقها حتى نتناول الآية في سياقها، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وقال في سورة فاطر: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [فاطر: ٣٩].

وقد ورد في معاني «خلف» ومشتقاتها:

يقال لمن خلف آخر وسَّد مسده: «خلف»، والخلافة: النيابة عن الغير: إما لغيبة المنوب عنه، أو لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف[1]، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض والخلائف جمع خليفة، وورد في القرآن الخليفة آدم ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وكذلك كل نبي خليفة ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦].

وفي آية الأنعام نلاحظ أن كلمة خلائف (النكرة) قد اكتسبت من إضافتها إلى المعرفة التخصيص وقد اكتسبت هذه الإضافة دلالة الملكية؛ أي: ملكية الخلائف للحكم في الأرض كما نلمح في هذا الاستخلاف الديمومة والاستمرار.

والمقصود هنا بخلائف الأرض المسلمون؛ أي أمة النبي محمد ﷺ خاتم النبيين، فلربما دلت الآية على أن أمته خلفت سائر الأمم يملكون الأرض ويتصرفون فيها بدليل قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]؛ فهم خلائف الأرض خصهم الله دون غيرهم، وكأن الأرض خلصت لهم فلم تعد لغيرهم فكأنّ الخلافة قد اقتصرت عليهم[2].

أما في الآية الثانية فقد فصل حرف الجر «في» بين ﴿خَلَائِفَ﴾ النكرة والأرض فبقيت كلمة ﴿خَلَائِفَ﴾ نكرة، الأمر الذي يوحي بأن كلمة ﴿خَلَائِفَ﴾ في هذه الآية قد يكون الاستخلاف لها في مكان ما من الأرض أو في زمان ما في الأرض ما دامت الأرض. وبذلك نفيت عنها صفة الملكية المطلقة، فمن المحتمل أن يشرك المسلمين

---

(١) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم مادة خلف.

(٢) الزمخشري: الكشاف (٢: ٦٤)، (٣: ١٥٦، ١٥٧، ٥٩٨).

(الخلائف) آخرون في هذه الآية، لأنهم ليسوا خلائف الأرض دون غيرهم كما في الآية السابقة والله أعلم.

٨ ـ تعاقب ذكر حرف «اللام» وحذفه:

أ ـ لام الملكية:

وقد تعاقب ذكر اللام العاملة للجرّ[١] وحذفها في الآيات التالية من سورة المؤمنون قال تعالى:

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥].

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩].

إذا تأملنا هذه الآيات الست من سورة المؤمنون لاحظنا أنه قد وردت أداة الاستفهام في الآية ٨٤ مقترنة بـ«لام الجر» الدالة على الملكية، في حين أن هذه «اللام» لم ترد مع «مَنْ» في السؤالين الآخرين.

كما نلاحظ أن إجابات الأسئلة الثلاثة وردت مقترنة جميعاً باللام (لله) رغم خلو السؤالين الثاني والثالث من اللام، ومن يتدبر الآيتين (٨٤-٨٥) يلاحظ أن

---

(١) هي اللام التي تعملُ فيما بعدها فتكون حرف جرٍّ في موضع وحرف جزم في آخر وحرف نصب في موضع ثالث، وقد تأتي اللام غير عاملة في شيء كاللام المزحلقة.

الإجابة جاءت على الأصل مطابقة للسؤال لِمَن؟ والجواب: لله، فاسم الاستفهام جاء مقترناً باللام ومن ثمّ جاء الجواب مقترناً باللام أيضاً وهذا هو الأصل.

أما في الموضعين الآخرين فقد ورد اسم الاستفهام بدون اللام، ووردت الإجابة مقترنة باللام «مَنْ»؟ والجواب: لله. فما هو تفسير ذلك؟[1].

لقد قرأ أبو عمرو ويعقوب الإجابتين بغير اللام «سيقولون الله» وتكون هذه القراءة على اللفظ فيناسب السؤال مَن؟ الجواب: «الله» أما من قرأ سيقولون «لله» فهي قراءة صحيحة محمولة على المعنى ويستشهدون بقول العرب: مَنْ صاحب هذه الدار؟ فيجيبون «لزيد» أو «زيد» بذكر حرف الجر أو حذفه. مما يعني أن الوجهين جائزان أحدهما على اعتبار مطابقة اللفظ والثاني باعتبار المعنى.

ويستشهدون بقول الشاعر:

إذا قيل من رب المزالف والقرى ورب الجياد الجرد قلت: لخالدِ

ففي قوله تعالى: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ دلالة الملكية بمعنى لِمَن؟ فتكون الإجابة: لله.

وفي قوله تعالى: ﴿مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ دلالة الملكية أيضاً لِمن ملكوت كل شيء؟ فالإجابة لله على المعنى.

وهناك وجه بياني لطيف يسمى «المشاكلة اللفظية» بمعنى أن الإجابتين الثانية والثالثة جاءتا منسوقتين على وتيرة واحدة، وهذا تفسير معقول وجميل إضافة إلى التفسير الأول المحمول على تضمين اللفظة معنى آخر وهذا في اللغة كثير.

---

(١) انظر التفاصيل في الزمخشري: الكشّاف (٣: ١٩٤، ١٩٥) البحر المحيط (٤: ٢٣٣)، الكرماني: البرهان ص١٣٨، ص١٣٩.

ب ـ تعاقب ذكر لام التوكيد وحذفها

(اللام المزحلقة) و(لام الابتداء)

ذكر اللغويون لام الابتداء وفائدتها فهي توكيد مضمون الجملة، فإذا دخلت «إنّ» على «لام الابتداء المؤكدة» زحلقتها عن صدر الجملة كراهة ابتداء الكلام بمؤكدين، وسميت لذلك اللام المزحلقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقد تعاقب ذكر «اللام» وحذفها في الآيات الأربع السابقة، والملاحظ أن الآيات كلها وردت فيها «إنّ المؤكدة» و«اللام المزحلقة» في موضع، و«إن المؤكدة» بدون «اللام» في موضع آخر مشابه فما الحكمة من ذكر اللام وحذفها؟؟

لابد من النظر في سياق الآيتين المتشابهتين غافر ٥٩ وطه ١٥ حتى ندرك السبب في ضرورة ذكر اللام في آية غافر دون آية طه، ففي سورة غافر الجملة الخبرية ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ﴾ موجهة إلى المشركين منكري البعث وقيام الساعة، وهذه الآية مسبوقة بقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فهذا الوضع يقتضي التوكيد القوي المؤثر في النفوس المكذبة، وإذا عرفنا أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ خطاب موجه إلى سيدنا موسى عليه السلام، وقد جاءت الآية مسبوقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] إذا عرفنا ذلك، أدركنا أن النبي موسى عليه السلام لا يحتاج إلى توكيد أمر هو مصدق به وليس منكراً له، ولكنه في صدد تبليغ رسالة ربانية حتى يؤمن بها المكذبون من قومه، وفي نهاية الآية يقول تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ [طه: ١٦].

وبذلك يتضح السبب في ذكر اللام وحذفها في الآيتين المتشابهتين.

أما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، بذكر اللام المزحلقة للتوكيد في الآية الأولى وحذفها في الآية الثانية، فنجد لزاماً علينا أن نطلع على سياق الآيات وتفسيرها ومعرفة نوع الصبر وعلى ماذا يكون، حتى يصبح ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ ومتى يكون الصبر ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

أما آية الشورى فإن الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين بعدة صفات أهمها الصبر على ألم يصيبهم جرّاء جناية جانٍ ألحقَ بهم الأذى فحقّ للمؤمن الاقتصاص منه والمؤمن محق وقادر على أن يقتص. وفي عفوه عن هذا الجاني مشقة نفسية إلا أن الله سبحانه وعد من يفعل ذلك بالثواب العظيم لصعوبة هذا العمل من جهة، ولأن في العفو والمغفرة والصبر إطفاء للثائرة فكانت الآية ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

فالصبر في مثل هذا الموقف يحتاج إلى توطين النفس على التحمل واختيار ما يحبه الله وهو الصبر والغفران، فاستوجب السياق ذكر اللام ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

أما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، فهو في سياق الحديث عن الصبر أيضاً ولكنه صبرٌ من نوع آخر صبرٌ على بلاء وابتلاء لا يمكن ردّه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، وختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

فالصبر هنا في موقف آخر مختلف، فهو صبر على قضاء الله وليس صبراً على إنسان تسبب لك بأذى، وما يكون من الله فعلى المؤمن أن يرضى به ويصبر، وبذلك يكون الصبر هنا مختلفاً عن الصبر في الآية السابقة المشابهة، لذا لا يحتاج الصبر الثاني إلى توكيد فهو[1] مطلوب وإن كان صعباً على النفس، إلا أن الصبر الأول أقسى وأصعب فيتطلب توكيداً فيكون ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وهكذا يكون أسلوب التوكيد حسبما يقتضيه السياق والحال من وجود «إنّ» وحدها أو وجود «إنّ» و«اللام المزحلقة».

٩ـ تعاقب ذكر الحرف «لا» وحذفُه:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢١].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: ٨٥].

قال النحاة بزيادة «لا» التي تحتها خط أي: أنها زائدة عن أركان الجملة وكلماتها القياسية، وإن كان النحاة مسؤولين عن وصف هذا العنصر بالزيادة فإن البلاغيين

---

(١) الإسكافي: درة التنزيل ص٤٢٧، الكرماني: البرهان ص١٧٨.

يعترفون بها تضفيه هذه الزيادة على المعنى، وما يلحقه من التوكيد من جراء الزيادة في المبنى[(١)].

إن من يتدبر الآيات المتشابهة السابقة يدرك أن «لا» وردت مكررة بعد النفي بـ«ما» في سورة فاطر فقد ذكرت قبل ﴿ٱلنُّورُ﴾، وقبل ﴿ٱلْحَرُورُ﴾، وقبل ﴿ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، وقبل ﴿أَوْلَٰدُهُمْ﴾، وإنما تكررت لتؤكد عدم الاستواء في فاطر، وألا نعجب لا بأموالهم ولا بأولادهم في آية التوبة.

ومن باب ما قيل في زيادة «لا» قصة سجود الملائكة لآدم وعدم سجود إبليس، وسؤال رب العالمين إبليس في قوله تعالى:

﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: ٧٥].

وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢].

وقد لفت نظر النحويين والبلاغيين والمفسرين وجود السؤال منفياً مقترناً بـ«لا» في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا﴾، ﴿مَا لَكَ أَلَّا﴾، ووجوده مثبتاً في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾. وفي ضوء قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن﴾ مالَ فريق من النحاة إلى اعتبار «لا» زائدة.

وممن قال بزيادتها من النحاة: ابن هشام واعتبرها داخلة في الكلام لمجرد تقويته وتوكيده، وأتى بشاهد آخر من القرآن ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢-٩٣] وأشار إلى أن الآية ٧٥ من سورة ص قد خلت منها في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا﴾ كما

---

(١) تمام حسان: البيان ص٢٧، ص١٧٣.

أشار إلى أن زيادة «لا» قد وردت أيضاً في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]. أي: ليعلموا[١].

ومن المفسرين من قال بزيادة «لا» في آية الأعراف؛ فالقرطبي وابن كثير اعتبرا «لا» زائدة لتوكيد الجحد[٢]، والزمخشري اعتبر «لا» صلة زائدة لتوكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحققه فكأنه قال: «ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك» وزاد على ذلك أن السؤال للتوبيخ[٣].

واعتبر أبو حيان «لا» في الآية نفسها زائدة للتوكيد، وأن الله سبحانه وبَّخَ إبليس وقرعه على امتناعه عن السجود[٤].

ومن المفسرين من قال بزيادة «لا» لكنه أشار إلى رأي آخر لتحاشي القول بزيادتها، فمال إلى تأويل المقصود من الآية بقوله: «ما منعك من الطاعة وأحوجك إلى ألّا تسجد؟»[٥]، أو «ما دعاك إلى ألّا تسجد؟» أو «ما اضطرك إلى ألّا تسجد؟»[٦] أو «مَنْ قال لك ألّا تسجد؟»[٧] أو «ما ألزمك واضطرك؟».

ومن المفسرين من مال إلى تبسيط الأحكام فقال: «قصة واحدة فيها حكاية عما قال إبليس إجابة عن سؤال الله له عن سبب عصيانه، ليس المقصود منها أداء الألفاظ

---

(١) ابن هشام: مغنى اللبيب (١: ٢٤٨).
(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم (٧: ١٧٠)، ابن كثير: مختصر تفسير ابن كثير (٢: ٨).
(٣) الزمخشري: الكشاف (٢: ٨٦).
(٤) أبو حيان: النهر الماد (٢: ٥٢٠).
(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٧: ١٧٠).
(٦) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن (٢: ٤٠١).
(٧) الكرماني: البرهان ص٦٨، ٦٩.

بأعيانها، وإنما المقصود ذكر المعاني، لأن الألفاظ إذا اختلفت وأفادت المعنى المقصود كان اختلافها واتفاقها سواء[١].

ونَرى أن هذا الرأي ليس دقيقاً، مثلما أن التركيز على حرفية اللفظة دون النظر في سياقها يؤدي إلى ضياع المعنى واختناقه، وتميل إلى الرأي القائل بالتضمين قديماً أو الأسلوب العدولي حديثاً؛ فيكون العدول عن دلالة «المنع» إلى معنى «المنعة»[٢] مسوغاً لمجيء «لا» مع الفعل «يسجد» في ضوء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١] فتضمن لفظة «منع» معنى الحماية والقوة. فنسوغ بذلك اقتران أن بـ«لا»، بينما في الدلالة الأولى (المنع) لا تقترن أن بـ«لا» أصلاً.

وهذا ما يميل إليه المحدثون في قضية العدول في لفظ معين عن معنى إلى معنى آخر لغاية أسلوبية؛ فاللفظ الذي يُضَمّن معنى آخر يحتل موقعه، فيدخل على ألفاظ قد لا يدخل عليها باستعماله الأول، وبذلك يصبح ضم لفظة «منعك» إلى «ألا تسجد» أمراً مقبولاً، ويجعل «لا» في مكانها ولا تكون بذلك حرفاً زائداً للتوكيد[٣].

ولعل تأويل الطبرسي «ما منعك» بما دعاك إلى ألا تسجد» أو «ما اضطُرك إلى ألا تسجد»[٤] كما أشرت سابقاً، أو «ما حماك من عدم السجود»[٥]، أو «ما الذي جعلك في منعة من عذابي؟» أو كل ذلك، يشير إلى أن القدماء كانت تراودهم فكرة ما يسمى في

---

(١) الإسكافي: درة التأويل ص١٤٢.

(٢) وقد اعتبر السكاكي هذه الآية من باب المجاز المرسل انظر مفتاح العلوم ص١٦٦. وقدرها: «ما دعاك إلى أن لا تسجد» وضمن لفظة «منع» معنى «حمل»: ما حملك على ألا تسجد.

(٣) تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص٣٤٩.

(٤) الطبرسي: مجمع البيان (٢: ٤٠١).

(٥) الآلوسي: روح المعاني مج٤ ص٣٢٨، مج١٢ ص٢١٥.

الدراسات الأسلوبية الحديثة الأسلوب العدولي أو التضمين كما كانوا يسمونه[١].

والرأي عندي ـ بعد أن استعرضت آراء النحاة والمفسرين واللغويين في القضية الجزئية زيادة «لا» أو ذكرها وحذفها ـ أن أعرض لقضية أجدر بالبحث وأكثر أهمية، وهي تكرير ذكر قصة سجود الملائكة لآدم وإباء إبليس؛ إذ تعددت المواضع التي ذكرت فيها الحادثة. وبالرغم من تماثل الآيات وتشابهها في العديد من ألفاظها، إلا أن المدقق المتدبر بموضوعية يدرك أن هذه الآيات قد اختلفت من حيث بعض الجزئيات والموضوع والمواقف والمشاهد، كما يتبين أن كل ذكر لهذه الحادثة، في كل سورة على حدة، قد اختص بما يتسق وموضوعها وشخصيتها من حيث بعض ألفاظها وتراكيبها وأساليب التعبير ذكراً وحذفاً.

ولعل في ترتيب السور ذات العلاقة بقصة خلق آدم وسجود إبليس ـ حسب ترتيبها في النزول ـ ما يعيننا على تحديد الفروق الدقيقة بين الآيات، ويثبت أن ما ورد ليس تكراراً حرفياً أو إعادة. والجدير بالذكر أن ترتيب السور التي تعاقب فيها الذكر والحذف الذي هو مدار بحثنا في هذه الجزئية سورة ص ثم سورة الأعراف ثم سورة الحجر[٢]. والرأي أن تذكر الآيات السالفة الذكر ضمن سياقها في السور ثم تناقش.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص٧١-٧٧].

---

(١) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات القرآن الكريم مادة «منع».

(٢) الإسكافي: درة التنزيل ص١٤١، الكرماني: البرهان ص٦٨، ٦٩.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف ١١-١٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ *قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٤].

وفي ضوء المقولة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» وبتحليل هذه الآيات نتبين ما يلي:

ـ بدأت آيات سورة ص بالحديث عن قصة خلق آدم بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، وقد اختلفت بداية القصة في الأعراف عما جاء في سورة ص: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾، كما اختلفت هذه البداية عنها في سورة الحجر: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ـ وقد تفاوت التعبير عن خلق آدم من طين فلم يذكر مادة الخلق في بداية الأعراف مكتفياً بـ«لقد خلقناكم»؛ وقد جاء التعبير بصيغة الماضي المؤكد، بينما كان في آية ص «إني خالق» بصيغة اسم الفاعل الذي يدل على عزم أكيد وثبات؛ أما في قوله تعالى: «لقد خلقناكم»[1] فقد تم الخلق وحصل والبداية بالفعل الماضي الذي تم فلا حاجة

(١) انظر عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص١٣٥-١٣٦: في التفريق بين دلالة الفعل والاسم المشتق.

لتنبيه الملائكة؛ فقد ذكر ذلك في آية سابقة، كما أنه لا حاجة لذكر نوع الخلق من طين، والحقيقة أن الخطاب في هذه الآية موجه للبشر؛ ليذكرهم بنعمة الله عليهم إذ خلقهم وأحسن خلقهم فالمشهد مشهد تذكرة.

أما سورة الحجر فقد أضافت عنصراً جديداً مهماً، على الإنسان أن يعرفه؛ وهو أصل تكوينه ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وهذه معلومة جديدة.

وقد حاول بعض المفسرين أن يبرروا هذا التكوين بأن الصلصال لا يتماسك كثيراً، وسرعان ما يتحطم، فهو ليس فخاراً بل كالفخار؛ فليس فيه شدة ولا قدرة على المحافظة على ذاته من الفساد؛ فهاتان صفتان ملازمتان للإنسان، إلا إذا تداركه الله برحمته[١].

وفي سورة ص ذِكْر لسجود الملائكة أجمعين إلا إبليس. وللتعبير عن هذا الحدث ذكر الملائكة بالاسم وأكّد سجودهم بلفظة «أجمعين» التي تدل على حال سجودهم جميعاً، واستثنى إبليس.

أما في سورة الأعراف فقد عبر النص القرآني عن الحدث بالفعل المتصل به ضمير عائد على الملائكة دون أي توكيد (فسجدوا) واستثنى إبليس من السجود دون أن تذكر لفظة «استكبر» أو يحكم عليه بالكفر واكتفى بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

إلا أن سورة الحجر قد نصت على الحدث مؤكداً بنفس أسلوب سورة ص وعندما ذكر رفض إبليس السجود عبر عنه بقوله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾.

وتطالعنا حلقة جديدة في سلسلة توالي أحداث القصة؛ وهي أن الله سبحانه قد طلب من إبليس إجابة محددة ليستدرجه من خلال سؤاله ليكشف عما في نفسه بصراحة

---

(١) د. فضل عباس: القصص القرآني ص٥٠.

فقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾، وعلى الرغم من أن السؤال قد سبق بمعرفة أكيدة وعلم رباني أخبر عنه في قوله: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ إلا أنه يطلب منه أن يصرح بالسبب بنفسه ليدينه من فمه بعد أن ناداه سبحانه صراحة: «يا إبليس»، فالقضية في عدم سجوده إما استكباراً، أو استعلاء، فيرد باستعلاء واستكبار وبقرار صريح وواضح في قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ويوضح سبب استعلائه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

ويصدر الحكم الإلهي بعد الاعتراف الصريح: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

والسؤال في سورة الأعراف يطلب إجابة دونما تخيير بين أمرين أو سببين ودون توجيه الخطاب بالنداء، فقد حذفت جملة النداء يا إبليس وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

وفي لفظة «منعك» تعبير دقيق عن الحماية والمنعة التي حملته[1] على عدم السجود ومخالفة أمر الله تعالى الملزم للطاعة، ويحمل السؤال دلالة أبعد من اللوم أو التبرير، فالتوعد بالمحاسبة وتحمل نتيجة مخالفة أمر إلـٰهي واضح في هذه السورة فقد أجاب إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾. وذكر العبارة السابقة في سورة ص في قوله تعالى على لسان إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

وصدر الحكم بناء على هذه الإجابة: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾. وفي لفظة «الهبوط» المقابل «للتكبر» دلالة عميقة وفي عبارة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ﴾ رد على شعور إبليس بالتكبر وإذلال له وتحجيم لقدره ثم قال سبحانه: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فكان استكباره سبباً في الحكم الإلـٰهي عليه بالخروج والذلة والصغار.

---

(١) انظر الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، باب منع.

وفي سورة الحجر نداء لإبليس يوحي بالاستغراب والعجب من موقفه: «مالك؟ ألا تكون مع الساجدين؟» أي لماذا تفردت ولم تكن ضمن الذين سجدوا دون استثناء؟ والسؤال لا يحمل عتاباً ولا ملامة بقدر ما يحمل دلالة الاستيضاح لموقف مستغرب مستهجن. ويجيب بجحود وإصرار وتحد: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، فليس امتناعه عن السجود لمانع شرعي لكن اجتهاده دفعه إلى أن يربأ بنفسه عن السجود لمخلوق أصل تكوينه من ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. ولم يصرح بمفاضلة بين أصل تكوينه من نار وأصل تكوين الإنسان، إلا أن هذا الاستعلاء يظهر ضمناً في أسلوب الجحود: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ وصدر الحكم الإلـٰهي: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾.

واللافت للنظر أن سورة الحجر قد ركزت على خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون مرتين: مرة في قول الله للملائكة، ومرة في رد إبليس على سؤاله عن عدم سجوده. ولا بد أن يكون لهذا التركيز هدف ومغزى؛ وهو أن يكون الإنسان على علم بأصل تكوينه فلا يتكبر بل يعرف قدره وقدرة الله عليه.

وبعد هذا التحليل الدقيق لهذه الآيات المتشابهة التي تدور حول قصة واحدة تخلص الباحثة إلى النتائج التالية:

ـ هناك اختلاف بين هذه الآيات ـ رغم تشابهها ـ من حيث الجزيئات، وفي طريقة عرض المشاهد، فقد عبرت عن القصة الواحدة بعدة أساليب. ولا شك أن تنوع أساليب التعبير دليل على إعجاز القرآن الكريم.

ـ إن ما تكرر من الألفاظ أو المشاهد يدل على أهمية الأحداث وتقصد إلى أن تثبت في الأذهان من خلال إعادتها.

ـ إن الهدف من رواية كل قصة في كل سورة هو هدف ديني الغرض منه الدلالة على صدق الوحي من جهة وتـثبيت النبي ﷺ وتسليته وتهديد كل من تحدثه نفسه بالعصيان والتكذيب أو التكبر من جهة أخرى.

وردت القصة في كل سورة متناسبة وموضوعها؛ ففي سورة الحجر ركزت على خلق آدم من طين، والجن من نار وهما مادتا تكوين لا تفاضل بينهما[١]، وفي سورة الأعراف تم التركيز على تذكير الإنسان بنعمة الله عليه وتخويفه من مصير العنت والتكبر. وفي سورة ص بدأت بقصة خلق آدم أيضاً وعصيان إبليس والتهديد الصريح لمن لا يطيع أوامر الله والقرار الصارم القاطع المؤكد في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

إن لكل لفظة في القصة دلالة خاصة يقتضيها السياق، ولا يسد مسـدها غيرها من الألفاظ، وهذا دليل على عظمة الأسلوب القرآني، وعلى بلاغة الذكر والحذف حسبما يقتضيه السياق[٢].

١٠ـ تعاقب ذكر الحرف «مِنْ» وحذفه:

أ ـ «مِنْ» متبوعة بالظروف «قبل» و«بعد» و«تحت»:

القرآن الكريم غني بالصور اللغوية المتنوعة التي تنبّئ عن تنوع في المعاني تبعاً لحذف أداة أو وجودها، وتتعدد مظاهر الذكر والحذف بوحي من القصود التي تنـطوي عليها الآيات، ومن وسائل تجسيد هذه الظاهرة ذكر حرف الجر «من» تارة وحذفه تارة أخرى.

---

(١) فضل حسن عباس: القصص القرآني ص٥٥.

(٢) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم ص١٤٤.

فمن مظاهر الذكر والحذف لحرف الجر «من» ما يكون مع الظروف «قبل»، و«بعد»، و«تحت». وغير خاف أنّ في كل حالة معنى مستفاداً.

لننظر في الآيات التالية:

أ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٧].

يلفت النظر في آيات القرآن الكريم اطراد ذكر «من» مع الظرف «قبل» وبخاصة إذا انقطع عن الإضافة «من قبل» بينما يقل مجيئه خلواً منها؛ وعلى سبيل المثال فقد ورد ذكر «من قبلك» في آيات القرآن الكريم عشرين مرة، بينما اقتصر ذكر «قبلك» بحذف «من» على أربع مرات في (الإسراء آية ٧٧) و(الأنبياء آية ٧) و(الفرقان آية ٢٠) و(سبأ آية ٤٤).

وتعاقب ذكر «من» وحذفها مع الظرف «قبلهم» إلا أن اقترانه بـ«من» كان ضعفي وروده غير مقترن بها، كما اطرد وجود «من» مع الظرف «قبل» إذ كان صلة موصول «الذين» ولم يأت خلواً منها مع هذا الأسلوب أبداً، ومثال على ذلك: قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ [الشورى: ٣].

ب ـ انظر الآيات المتشابهة التالية وتدبرها:

قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ [مريم: ٧٤، مريم: ٩٨، طه: ١٢٨، ق: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ [ص: ٣].

باستقراء الآيات السابقة نستخلص ما يلي:

ـ أن الظرف حين يقترن بـ«من» يكتسب دلالة التحديد والابتداء للزمان الذي سبق زمانهم، وبذلك يصبح هذا الزمان محدداً ابتداءً.

ـ وكلما أغرق الزمان في البعد وصعب تحديده جاء خلواً من حرف الجر بدليل الآيات التي تحدثت عن قوم نوح وتكذيبهم، لبُعد الفترة وطولها في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [ص: ١٢، غافر: ٢٥، ق: ١٢، القمر: ٩، الحج: ٤٢].

ـ وفي ضوء هذه الملاحظات فإن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ يدل على تقييد الفترة الزمنية وتعيينها، أما قوله: «قبلك» بدون «مِنْ» فقد دلَّ على استغراق الزمان كله، وفي ذلك اتساع في الفترة الزمانية وما قيل ينطبق على قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ و﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾.

ج ـ ومن الآيات التي تعاقب فيها ذكر حرف الجر «مِنْ» وحذفه مع الظرف «بعد» قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] وفي سورة الرعد آية (٣٧) مثلها، وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ويظهر أثر المقام الذي اكتنف نزول الآية التي اقترن فيها الظرف بـ«من» ضرورة وجود هذا الحرف، وهو أمر لا يقتضي وجود «من» في الآيتين الأخريين؛ فقد جاءت الآية: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، مسبوقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠] وفي سورة الرعد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧] فلم تبين الآية حدود العلم ولا نوعه بل جعلت تحديد هذا العلم موكولاً إلى تصور القارئ.

أما آية (البقرة: ١٤٥) فقد سبقها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقد بينت قرينة السياق حدود العلم إذ الأمر متعلق في (الآية ١٤٥) من البقرة بالقبلة، وأمر القبلة مخصوص بزمان محدد، إذ عينت القبلة للمسلمين في صلاتهم نحو المسجد الحرام[1].

وهذا يعني أن حرف الجر «مِنْ» قد أضاف إلى المعنى خاصية تحدّد وتقيّد الوقت الذي يسبق الظرف، وبذلك تكون «مِنْ» للدلالة على ابتداء الغاية الزمانية. أما العلم في الآيتين الأخريين فقد وقع التوعد معه على اتباع أهواء أهل الكتاب، فغير مخصص بوقت دون وقت، ولا بنوع مخصوص من العلم، بل كان واجباً في الأوقات كلها فاستغني عن «مِنْ».

والجدير بالذكر أن دلالة «أهواء» اختلفت في الآيتين؛ فالأهواء في قوله: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ هي الميول والبدع التي تخالف الدين الصحيح (العلم)؛ وبذلك تتضح دلالة «العلم» وتتحدد وتعني الدين الصحيح، أما دلالة «الأهواء» في البقرة فهي اتباع قبلتهم، و«العلم» هو علم مخصوص بأمر «القبلة» التي حددها الله للمسلمين وهي أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام[2].

وقد اعتبر الدكتور عبد الفتاح الحموز أن «من» في قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ زائدة[3] ولسنا معه في هذا الرأي.

---

(١) الإسكافي: درة التنزيل ص٢٥، الكرماني: البرهان ص٣١.

(٢) الإسكافي: درة التأويل ص٢٨، الزمخشري: الكشاف ج١ ص١٨٢.

(٣) عبدالفتاح الحموز: التأويل النحوي (٢: ١٢٩٢، ٤٩٢)، تمام حسان: ص٢٣٩.

د ـ ومن اللافت للنظر ما ورد في القرآن الكريم من آيات تحتوي على الظرف «تحت» مقترناً بـ«من» أو بدونه؛ فأينما وردت آية فيها ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾ تبعها قوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إلا في آية وحيدة في سورة (التوبة) وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وهذا يعني أن «تحت» في سائر الآيات قد وردت مقرونة بـ«من» إلا في هذا الموضع.

وقد حمّل جانب من المفسرين هذه الآية الفريدة الـمخالفة لما أطرد في مثيلاتها أكثر مما تحتمله ألفاظها؛ فذهب الخطيب الإسكافي مثلاً، إلى أن «مِنْ» لابتداء الغاية المكانية وعليه فإن الجنات التي يرد الظرف «تحت» بعدها مقروناً بـ«من» هي جنات تبتدئ بالأنهار التي تجري من تحتها وهي (أشرف) من غيرها لذا فهي ـ وفق تفسيره ـ خاصة بالأنبياء ومن رافقهم من المؤمنين الذين يعملون الصالحات. أما الجنة التي وردت فيها «تحت» دون أن تقترن بـ«من» فإنها تنوه إلى جنات خص بها قوم ليس فيهم الأنبياء[1] بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ..﴾ [التوبة: ١٠٠].

ويشعر المرء هنا أن الخطيب قد حمّل ألفاظ الآيات أكثر مما تحتمل من الدلالات، إذ لم تنبئ هذه الألفاظ عن أشرف الجنات أو عن أنواع من الجنات بعضها مخصص للأنبياء والمؤمنين وبعضها مخصص للسابقين من المؤمنين ليس فيهم الأنبياء.

والجدير بالذكر: أن الدكتور عبدالفتاح الحموز قد اعتبر «من» مع الظرف زائدة في ضوء خلوه منها في المواضع الأخرى[2].

---

(١) الخطيب الإسكافي: درة التأويل ص١٠٣.

(٢) عبدالفتاح الحموز: التأويل النحوي في القرآن الكريم (٢: ١٢٩٢).

والرأي هنا: أن الفرق في المعنى يتمثل في أن ورود «تحت» مقترنة بـ«من» يدل على أن مصادر الأنهار ومنابعها من الجنة ذاتها، أما تلك التي وردت فيها «تحت» دون أن تقترن بـ«من» فتوحي بأن مصادر الأنهار من أماكن خارج الجنات وأنها تسير تحت هذه الجنات لتتضافر مصادر المياه جميعاً. وفي هذا دلالة أكيدة على ما في الجنة من نعيم مائي مستمد من مصادر متعددة، وتعد هذه الآيات شواهد على أنه لا تستوي الدلالة إذا وردت الظروف مقترنة بـ«من» والظروف نفسها إذا لم تقترن بها.

ومن الآيات التي اقترن فيها الظرف «بعد» بـ«من» في موضع، ولم يقترن به في موضع آخر قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠] و﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥، النحل: ٧٠]. و﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥] وقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣] فوجود «مِنْ» يوحي بتحديد الزمان وقربه، وحذفه يوحي بامتدادٍ زمانيّ يتصوره القارئ.

هـ ـ «مِنْ» متبوعة بالأسماء:

ومن مظاهر التنوع في استخدام حرف الجر «من» مع الأسماء في إطار الذكر والحذف: استخدام هذا الحرف أحياناً مع كلمة «ذنوبكم» وعدم استخدامه معها أحياناً أخرى؛ فقد وردت لفظة «ذنوبكم» مقترنة بـ«من» في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠] و[الأحقاف: ٣١] و[نوح: ٤].

وبدون «من» في (آل عمران ٣١) و(الصف ١٢) و(الأحزاب ٧١) في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

أما سياق الآيات التي وعد الله بغفران الذنوب فيها:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٣١].

أما ورود كلمة ذنوبكم مقرونة بـ«من» فمما يمثله قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ [نوح: ٢-٤].

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

وتلتقي الآيات السابقة جميعاً على الدعوة إلى مغفرة الذنوب مع الفارق في الدلالة التي أكسبتها «مِنْ» للسياق؛ وبتدبر الآيات السابقة جميعاً يتضح أن «مِنْ» تكسب اللفظة الدلالة على البعضية، وأنها حين اقترنت بلفظة «ذنوبكم» وردت في معرض دعوة الرسل أقوامهم إلى إجابة داعي الله، ومعنى ذلك أن حكاية الحال تدل على أن تلك الأقوام لم تكن آمنت ولذلك لم تحمل كلمة الغفران معنى شمولياً، فاستلزم ذلك وجود «مِنْ» التبعيضية.

وقد شغلت هذه القضية أذهان المفسرين والنحويـين، فإذا كانت «مِنْ» للدلالة على احتمال غفران بعض الذنوب بعد الإسلام فكيف يستقيم ذلك في ضوء المقولة «الإسلام يَجُبُّ ما قبله»؟ فلم يستقم المعنى لديهم، وقد خطر الاحتمال التالي لبعض النحاة، أن يعتبر «مِنْ» حرف جر زائـداً والتقدير: «يغفر لكم ذنوبكم» وبذلك ينسجم المعنى، فيوافق مبدأ غفران الذنوب جميعاً بالإسلام.

إلا أن هذا الوجه لا يستقيم على رأي سيبويه فلا تزاد «مِنْ» في المثبت؛ ومن ثم فهي للتبعيض لا غير، وأن المغفور هو بعض الذنوب لا كلها[١].

ويضع عز الدين بن عبدالسلام الاحتمال التالي للتوفيق بين أن تكون «مِنْ» للتبعيض وأن الإسلام يجُبُّ ما قبله فيقول: إن إضافة الذنوب إليهم إنما تصدق فيما وقع فعلاً؛ لأن ما لم يقع لا يكون ذنباً لهم؛ وإضافة ما لم يقع إلى ما وقع مجاز، فسيبويه يجمع بين الحقيقة والمجاز في تأويله «يغفر لكم البعض الذي وقع قبل إسلامكم»[٢].

ويبرر مثل هذا التوفيق بعدم إطمـاعهم في غفران المستقبل من الذنوب لمجرد الإسلام وذلك حتى يجتنبوا المنهيات[٣].

وأرى أن هذا إغراق في التأويل والتفسير وتحميل للآيات ما لا تطيق، فذنوب قوم نوح كثيرة لدرجة أن غفران جزء منها لمجرد الإيمان هو فضل كبير من الله، كما أن ذنوب الجن كثيرة في ضوء ما ورد في سورة الجن من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ

---

(١) السيوطي: معترك الأقران (٢: ٥٥٦).

(٢) عز الدين بن عبد السلام: فوائد في مشكل القرآن ص٢٤٧.

(٣) عز الدين بن عبد السلام: فوائد في مشكل القرآن ص٢٤٧.

يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن: ٤-٩].

وتحتمل دعوة النبي قومه إلى الإيمـان ليغفر الله لهم «من ذنوبهم»، رغبته في تذكيرهم بكـثرة ذنوبهم، وأنهم جمعوا من الذنوب الشيء الكـثير، ولكـثرتها فَهُم بحاجة إلى الإيمان ليغفر بعضها، وبذلك لا يطمعون في غفران كل الذنوب إذا أجابوا داعي الله بل إن غفران بعضها أمل وفوق الأمل؛ حتى لا تركن نفوسهم وتتكل على الوعد بغفران الذنوب جميعاً.

أما سياق الآيات التي لم تقترن بـ«من» وجاءت على صورة ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فيدل على أن المخاطب فيها هم المؤمنون ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾؛ ولذلك انطوت عبارة ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ على معنى شمولي استلزم معه عدم استخدام حرف الجر «من» مما يستوجب تفسير الآيات على أساس شمولية المغفرة لا جزئيتها.

ولعل ما أسهبنا في إيضاحه أو تأويله ينطبق على آيات تسير على النمط نفسه وهي: (يكفر عنكم سيئاتكم)، (ويكفر عنكم من سيئاتكم) في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أما ورود «يكفر السيئات» مقترنة بـ«من» ففي قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فالمتدبر لمعاني الآيات يلاحظ أن التكفير في الآيات الثلاث الأولى يحمل معنى شمولياً؛ مما استلزم عدم استخدام حرف الجر «مِنْ» بعدها، في حين أن (التكفير) في الآية الأخيرة لم يحمل معنى تكفير السيئات على إطلاق القول؛ مما استلزم معه استخدام حرف الجر «من»[١].

والاستدلال بالآيات يشير إلى أن تنفيذ الشروط التي احتوتها يستدعي تكفير السيئات جميعاً، لكن التصدق بالمال في آية البقرة **٢٧١** لا يكفر كل السيئات بل جزءاً منها[٢].

و ـ اقتران الجبال بـ(مِنْ) وخلوها:

ومن الأمثلة على اقتران «الجبال» بـ«من» مرة وخلوها منها مرة ثانية قوله تعالى عن أصحاب الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨١]، وقد صور أحوالهم في قوله: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

وقال في الأعراف: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ٥٤٣).

(٢) أشار إلى هذه المسألة الدكتور فضل عباس في كتابه لطائف المنان ص١٥٠، ص١٥٦.

وفي ضوء آيات أخرى وردت في القرآن الكريم متضمنة ذكر الجبال يمكن التفريق بين دلالة الجبال مقترنة بمن وغير مقترنة بها.

فقد ورد ذكر الجبال في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [النحل: ٦٨].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ [النحل: ٨١].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

يلاحظ من يتدبر الآيات أن وجود حرف الجر في هذه الآيات يعطيها دلالة مختلفة عن تلك الآيات التي وردت بدون هذا الحرف؛ فدلالة ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ ﴾: تنجرونها وتنشرونها على أن تكون لكم بيوتاً؛ فتكون الجبال مغارات وكهوفاً؛ وبذلك يكون أصحاب الحجر قد اتخذوا الجبال نفسها بيوتاً لتكون مشتى لهم والسهول لمصيفهم[1].

ويحتمل أن يكون المعنى على ما هو أبعد من ذلك، فإن طموحهم دفعهم إلى التوسع في البناء لدرجة أنهم لو جاز لهم إعمار الجبال حتى لم يبق جزء دون نَحْتٍ لفعلوا، وفي وسع المرء أن يتصور تطور مثل هذه الأعمال كما يظهر في البتراء مثلاً.

وقد تحتمل الآيات التي اقترنت فيها «الجبال» بـ«من» معنين: أحدهما: أن يتخذوا جزءاً من الجبال بيوتاً لهم وبذلك لا تخرج عن المعنى السابق إلا أن الإعمار يشمل جزءاً أو بعضاً من الجبال، والثاني: أن يقتطعوا أجزاء من الجبال على شكل حجارة ليبنوا منها بيوتاً لهم في أماكن أخرى خارج هذه الجبال.

---

(١) أبو حيان الأندلسي: النهر الماد (٢: ٥٦٨).

ويظل معنى التبعيض مخيماً على هذه الآيات بوجود «مِنْ» بينما تسيطر دلالة الشمول على معنى الآيات بدون «مِنْ».

ولعل فيما أشرنا إليه ما يدل على أن تعاقب الذكر والحذف لحرف الجر «مِنْ» في القرآن الكريم ينمُّ عن معانٍ متنوعة تُسهم في هذا البناء الإعجازي الذي يُعدُّ من أخص خصائص القرآن الكريم.

ز ـ اقتران (مِثْل) بحرف (مِنْ) وخلوّه منها:

ومن المواضع التي اقترن الاسم فيها بحرف الجر «مِنْ» أو خلا منه: أربع آيات من أربع سور من القرآن الكريم: جاءت في إحداها لفظة «مثل» مقترنة بـ«من» وجاءت في الثلاث الأخرى بدون «من»، ودارت هذه الآيات حول موضوع تحدي الله سبحانه وتعالى العرب بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم.

وأرى أن أورد الآيات مرتبة حسب حجم التحدي وتدرجه.

قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ[١] مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

---

(١) انظر دلالة «سورة» في الراغب الأصفهاني: معجم مفردات القرآن الكريم، السورة المنزلة الرفيعة وسور المدينة حائطها المشتمل عليها وسورة القرآن الكريم تشبيهاً بها لكونه محاطاً بها إحاطة السور بالمدينة أو لكونها منزلة كمنازل القمر. وقيل سورة: قطعة مفردة من جملة القرآن. الراغب الأصفهاني مادة (سور).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وحتى نستطيع إدراك دلالة «مثله» و«من مثله» والتفريق بينهما ينبغي أن يحدد هدف كل آية رغم أن الآيات يكمِّل بعضها بعضاً: فآية الإسراء تقرير النفي يقضي باستحالة أن يأتي الإنس والجن بـ«مثل» هذا القرآن ولو تظاهروا، ومما يلفت النظر اجتماع «إن» الشرطية و«لو» وهو حرف امتناع لامتناع، مما يجعل جواب الشرط مستحيلاً.

ولا بد أن يكون العرب قد عرفوا هذا «المثل» الذي سيأتون بكلام عليه ليقولوا إذا صاغوه ها قد أتينا بـ«مثله».

وقد فسر الزمخشري «مثل» بقوله: «لا يأتون بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه مما يعرف أهل البيان»[(١)].

وعلى الرغم من أنهم لن يأتوا بمثله لا هم ولا الجن فقد تحداهم. والتحدي هنا يعني: المطالبة بأن يأتوا بكلام على وصف معلوم لديهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة: فإن استطاعوا بَطُل التحدي وبطلت دعوى الإعجاز وإذا فشلوا قيل لهم: قد أعجزكم أن تفعلوا «مثله» وثبتَ الإعجاز[(٢)].

ويتصف التحدي في آية الإسراء بالشمولية فالله سبحانه يقول: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾. وتصور سورة هود ١٢ مدى التكذيب والاستهزاء حتى ضاق صدر الرسول ﷺ بذلك؛ إذ يقول المكذبون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ومرة يقولون: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ ثم يقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾. والضمير في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ عائد على ما يوحى

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ٦٦٤).

(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص٢٩٥.

إليه أي: القرآن الكريم، فأمره الله سبحانه أن يرد على ادعائهم المتمثل في أن القرآن الكريم من عند محمد ﷺ وليس وحياً، بمواجهتهم بآية التحدي: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾. وفي قوله ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ مسايرة لهم في ادعائهم على معنى: فإن كنت قد اختلقته فأنا واحد منكم. وأنتم جماعة فصحاء لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه[1].

وممّا يلفت النظر في هذه الآيات أنها خُتمت بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: فهلا تؤمنون ـ بعد أن يثبت عجزكم عن المجيء بعشر سور مثله ـ بأن القرآن الكريم من عند الله وليس مفترى؟

وفي آية يونس ٣٨ يتحداهم بأن يأتوا بسورة مثله بعد أن عجزوا عن أن يأتوا بعشر سور ونوَّه إليهم بأن يدعوا لمساندتهم على ذلك كل من يقدر حتى يثبتوا صدقهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وعلى الرغم من أنه سبحانه قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فلم يأت أحد منهم بسورة مثله مفتراة كما ورد في سورة هود١٣؛ لذا فإنه سبحانه وصفهم بالتكذيب والجحود والتسرع بالحكم كمن سبقهم من الأمم، وختم الآية بقوله: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٣٩].

ويظهر اختلاف لهجة الخطاب في سورة يونس عنه في سورة هود: بالتلويح بالعقاب والتذكير بما حصل لمن سبقهم من المكذبين بعد أن قرر سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧].

وتخف حدة التحدي في سورة البقرة لتنزل إلى أن يأتوا بسورة **من مثله**، وليست سورة **مثله** كما في آية يونس.

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ٣٦٨).

وتَنْقِلُ «من» الدلالة من التمـاثل التام ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ إلى سورة تحتوي بعض ما تحتويه سورة من القرآن الكريم من بلاغة وفصاحة إلى غير ذلك من المواصفات المعروفة لديهم. وتـمثل هذه الآية جسامة التحدي؛ إذ إن واحداً منهم؛ وهو النبي محمد ﷺ قد استطاع أن يأتي بما لم تستطع جماعة تساندها الإنس والجن وما يعبدون من دون الله؛ وهو يتحداهم بأن يختبروا أنفسهم ويجهدوا قرائحهم ليأتوا بسورة فقط فيها بعض ما في القرآن الكريم وليس مثله أو عشر سور مثله بل سورة ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

والآية الأخيرة تشكل قمة التحدي؛ لأن المخاطبين جم غفير، والمطلوب جزء صغير؛ وهذا تسجيل بالعجز وعدم القدرة.

وتشتد اللهجة في مخاطبتهم ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ وأردف: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾؛ وفي ذلك إخبار بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾: وهو تحدٍّ يتبعه إنذار وتخويف من ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهذا الذي أشرنا إليه يشكل فارقاً واضحاً بين الآيات الأربع من جهة وبين الآيتين المتشابهتين التي احتوت إحداهما على «مِنْ» والتي خلت منها.

والجدير بالذكر أن الزركـشي في «برهانه» عد هذه الآيات ـ على اختـلاف مواضعها في القرآن ـ من باب الإيغال في الاحتياط وأوضح رأيه بمثالٍ نصه:

كما يقول الرجل لمن يجحد: «ما يستحق علي درهماً ولا دانقاً ولا حبة ولا كثيراً ولا قليلاً» ولو قال: «ما يستحق علي شيئاً» لأغنى في الظاهر، لكن التفصيل أدل على الاحتياط وعلى شدة الاستبعاد في الإنكار[١].

---

(١) الزركشي: البرهان (٢: ١٢٨).

وقد مال الكرماني إلى أن وجود حرف الجر «مِنْ» في آية البقرة ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وحذفه في سورة يونس يدل على التبعيض، ووجودها في موضعها من البقرة ضروري وحسن؛ ويوضح رأيه قائلا: «لما كانت سورة البقرة سنام القرآن الكريم وأوله بعد الفاتحة حسن دخول «من» فيها؛ ليعلم أن التحدي واقع على جميع سور القرآن الكريم من أوله إلى آخره، ولو دخلت «من» على سورة يونس لكان التحدي واقعاً على بعض السور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل[1].

١١ـ تعاقب ذكر نون التوكيد وحذفها مع الفعل المضارع «يكون»:

تعاقب ذكر «نون التوكيد» وحذفها في الآيات المتشابهة على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] و﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠].

ومَنْ يتدبر الآيات يلاحظ ذكر «نون التوكيد» بعد «لا الناهية» قبل الفعل المضارع الناقص «لا تكونَنّ» في آيتي البقرة **١٤٧** ويونس **٩٤**. لكنّ الآية **٦٠** من آل عمران نلاحظ ذكر «لا الناهية» قبل الفعل المضارع الناقص وبدون «نون التوكيد» (فلا تكنْ).

وحتّى ندرك علّة الذكر والحذف لهذه النون نجدُ لزاماً أن نتناول كل آية في سياقها:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

---

(١) الكرماني: البرهان ص٢٤.

ثم تأتي الآية ١٤٧: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

فأهل الكتاب يعرفون الحقّ ويكتمونه إصراراً منهم على الباطل مع علمهم بأنه الحق[(١)].

وكذلك في سورة يونس ورد قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].

وفي الموضعين الخطاب موجّه إلى النبي الكريم ﷺ، ولا يُعقل أن يكون الموقف موقف نهي من الله إلى رسوله الكريم، فقد انتقلت الدلالة من باب النهي إلى باب إثارة الحماس لزيادة الثبات والطمأنينة عند الرسول «فلا تكوننّ» من الشاكّين في كتمان أهل الكتاب الحق وهم يعلمون، ولا تشكّ في أن الكتاب من عند ربك، وفي هذا تثبيت من الله وطمأنة لرسوله.

أما ما ورد في آل عمران فقد سبقها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ثم قال تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾.

والخطاب أيضاً موجّه إلى الرسول محمد ﷺ لكنه لا يتعلق بالكتاب بل بقصة خلق عيسى عليه السلام بدليل قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١].

---

(١) الكشاف (١: ٣٦١).

فالنبي ليس في حالة شكّ مطلقاً ولا يحتاج إلى مؤكد يؤكد إيمانه بخلق عيسى وبشريته، فالحق ما قاله الله تعالى عن عيسى والباطل ما يدّعيه أهل الكتاب فالخطاب للنبي والمقصود على المدى الأبعد أمّته والسامعين ممن يقع في نفسه الشك[١] والدليل على خروج أسلوب النهي في الآيتين المؤكدتين إلى معنى بلاغي لزيادة ثبات الرسول وطمأنينة قلبه أن ابن عباس رضي الله عنهما قال عند تلاوته الآيات السابقة: «لا والله ما شكّ طرفة عين ولا سأل أحداً منهم»[٢].

ونخلص إلى أن وجود «نون التوكيد» في الآيتين يستدعيه الموقف، فالآية تدعو إلى الثبات والطمأنينة وزيادة النون المؤكدة أدعى إلى هذا.

بينما الآية الثالثة لا يدعو الموقف إلى وجود النون الـمؤكدة، فالرسول لا يشكّ ولو للحظة واحدة بل هو مطمئن القلب ثابت الموقف من خَلْق عيسى وبشريته، وتجدر الإشارة إلى أن المتتبع للآيات التي وردت فيها نون التوكيد مع الفعل الناقص (يكون) يلاحظ أن الجُمل الشرطية المنفيّة لا يقترن جواب الشرط فيها بنون التوكيد كقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

فإذا سبقت إنْ الشرطية بـ«لام القسم» اقترن جواب الشرط باللام و«نون التوكيد» معاً سواء أكانت الجملة منفية كما في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (١: ٣٦١).

(٢) الكشاف: (١: ٣٥٦).

وقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. أم مثبتة[1] كما في قوله تعالى:

﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

فإذا تعاقب ذكر «النون» وحذفها مع «لا الناهية» فإن وجود «نون التوكيد» ينقل الدلالة من باب النهي إلى باب تهييج الحماس لزيادة الثبات والطمأنينة كما أوضحنا وكما في قوله تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

١٢ـ تعاقب ذكر الهاء مع ضمير الرفع وحذفها:

يطرد دخول «الهاء» على ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة حيث تحتمل بنية اسم الإشارة تقدم هذه «الهاء» عليه لاحقة به أو منفصلة عنه بضمير الشخص.

وقد تصرف التركيب القرآني في ذلك بعض التصرف وبخاصة في ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ إذ أعطى «هاء التنبيه» من تباين الرتبة ومن الإثبات والحذف ما يتضح في الآيات التالية:

قوله تعالى: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

وفي قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨].

وقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥].

---

(١) ابن هشام: مغنى اللبيب (٢: ٣٤٠، ٣٤١).

بعد تدبر الآيات السابقة يلاحظ ما يلي:

١ـ دخلت الـهاء على ضمير المخاطب واسم الإشارة كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء: ١٠٩] ولم تدخل الهاء على المخاطب ودخلت على اسم الإشارة كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥].

٢ـ ولم يدخل هاء التنبيه على الضمير ولا على اسم الإشـارة، كما ورد الآية الكريمة، قال: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

كل ذلك يعد تصرفاً أسلوبياً في النمط التركيبي (ها + ضمير الشخص + اسم الإشارة الذي يعد بدوره فرعاً على نمط آخر) هو (ها + ضمير الإشارة) وهو يعد صورة مؤكدة من الإشارة المجردة وذلك بإضافة ها التنبيه إليها[1].

وبتدبر سياق الآيات لمعرفة الحكمة من ذكر هاء التنبيه في آية وحذفها من آية أخرى نصل إلى ما يلي:

أن الآية (طه ٨٤) لا تحتاج إلى هاء التنبيه، لأن موسى في حضرة الذات الإلـٰهية والله غني عن الإجابة وعليم بها، لكن السؤال موجه إلى موسى من ربه ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٣]، كونه مأموراً باستصحابهم وهو سؤال استنكاري لإنكار العجلة على موسى، لذلك أجاب بنفي الانفراد فقال: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ واسم الإشارة يعني هنا الحضور دون الحاجة إلى التنبيه بـ(ها).

إلا أن المخاطبين في سورة محمد كانوا في غفلة عن الحقيقة فينبههم الله سبحانه وتعالى بالدليل القاطع على أنه لو قيل لهم: أنفقوا أموالكم جميعاً في سبيل الله لبخلوا

---

(١) تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص٣٢، ٣٣.

وظهر حقدهم وضاق صدرهم وأظهروا كراهتهم لدين يذهب بأموالهم - والدليل على ذلك أنكم تدعون لأداء ربع العشر[١] فمنكم أناس يبخلون به؛ لذا جاء أسلوب المخاطبة ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨].

وفي سورة آل عمران آية ١١٨ خطاب للذين آمنوا فيه تحذير ونهي عن أن يتخذوا لأنفسهم أولياء وصحبة من دون المسلمين أي: من المنافقين والكفار، وينبههم إلى مغبة هذه الصحبة وسوء الاختيار وتبيان الحق بوجوب الإخلاص في الدين بموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائهم. ثم نبههم بالهاء فقرنها بضمير الخطاب ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ وفي ذلك تنبيه لهم على فداحة خطئهم في موالاتهم حيث يبذلون محبتهم لأهل البغضاء؛ وسواء أكانت «أولاء» خبر المبتدأ «أنتم» أو اسماً موصولاً، وتحبونهم صلته فإن وجود الهاء في مكانه المناسب هو للتنبيه المشوب بالتوبيخ[٢].

أما قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] فقد سبق بقوله في الآية ٨٤ بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤]. وقد جمع الأسلوب القرآني في آية ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بين الخطاب والإشارة للبعيد؛ لاستبعاد هذه التصرفات واستنكارها؛ فأسند «لهؤلاء» - مع أنهم المخاطبون - القتل والإجلاء والعدوان، بعد أن أخذ منهم ميثاقهم وإقرارهم وشهادتهم - وكأنهم قوم آخرون غير أولئك الذين أقروا وشهدوا تغيراً في صفاتهم اقتضى تغير ذاتهم كما يقال: رجعت بغير الوجه الذي خرجت به[٣].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٤: ٣٢١).

(٢) المصدر نفسه (١: ٣٩٨).

(٣) المصدر نفسه (١: ١٦١).

والمعروف أن ضمير الإشارة معناه الدائم هو الحضور، لكن دلالته تختلف بإضافة الهاء وعدمها، واحتمال بنيتها تقدم هاء التنبيه عليه لاصقة به أو منفصلة عنه بضمير الشخص، فطالعتنا في الآيات ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ وفي تباين الصيغة يحدث تباين الدلالة.

١٣ـ تعاقب ذكر «الواو» وحذفها:

أـ واو العطف:

تعاقب ذكر حرف العطف الواو وحذفه ظاهرة لافتة للنظر في آيات القرآن الكريم؛ فكثيراً ما نجد آية ذكر فيها حرف العطف الواو ولم يذكر في الأخرى على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

ب ـ وقد وردت الآية (٨٦) من سورة الأعراف متضمنة الواو قبل الجملة ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، وفي الآية (٩٩) من آل عمران خَلَتْ الجملة ذاتها من الواو

ونرى لزاماً أن نذكر الآية ٨٥ من الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ثم تتبعها بالآية ٨٦ ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

أ- لفت نظر النحاة والمفسرين والبلاغيين ذكر الواو في سورة إبراهيم (ويذبحون) دون آيتي البقرة والأعراف؛ فاختلفت آراؤهم حولها؛ فقال بعضهم بزيادتها في البقرة مستأنسين بالآيتين الأخريين إذ خلتا من الواو[1] ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ﴾.

وذهب بعضهم إلى تأويل واو مقدرة محذوفة في آيتي البقرة والأعراف حتى يستقيم نسق الآية في إبراهيم مع آيتي البقرة والأعراف[2].

ومن النُّحاة من لم يقدّر محذوفاً ولم يحذف موجوداً وفسر في ضوء هذه الآية كما هي فاعتبر الواو للعطف عطف جملة على جملة، كما اعتبر ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بدون الواو في الآيتين الأخريين جملة مستأنفة، أو حالاً من ضمير الرفع في يسومونكم أو بدلاً من

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢: ٣٨٥)، (٢٣: ٧٦).

(٢) أبو حيان: النهر الماد (١: ٤٩).

يسومونكم، على التفسير[١] كما تقول: أتاني القوم زيد وعمرو، فلا تحتاج إلى الواو في زيد، ونظيره في القرآن: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾[٢] [الفرقان: ٦٨-٦٩].

أما من قال بزيادتها فأتى بشاهد من الشعر لإمرئ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

أي: قد انتحى.

ويترتب على اعتبار حرف الواو للعطف مذكوراً في آية ومقدراً في الآيتين الأخريين أن المقصود في قوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ تذكرة بأنواع العذاب وتذبيح الأبناء واستحياء النساء فجعل كلًّا منها مستقلاً بذاته، معطوفاً على الآخر، مشتركاً معه بأنه أنجاهم من ثلاثة أصناف من العذاب ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾. فإذا اعتبرت الواو زائدة كان ذبح الأبناء واستحياء النساء بدل تفصيل لسومهم العذاب[٣].

وظل النحاة مشغولين بفكرة الاتباع الإعرابي مما أبعدهم أحياناً عن فكرة الكشف عن دواعي الكلام وأغراضه وما بين أنساقه من فروق في الدلالات وكأن الغاية لديهم إثبات العلاقة المنطقية بين المعطوف والمعطوف عليه، والتركيز على فكرة التشريك في الحكم؛ ولا يجوز أن نقف عند الجانب الشكلي للآيات منفصلة عن

(١) انظر إعراب الآيات في ابن الأنباري: البيان (١: ٨١)، العكبري: التبيان (١: ٦١).

(٢) العكبري: إملاء ما من به الرحمن (١: ١٢)، (٢: ٣٧) والزمخشري: الكشاف (٢: ٤١)، (٢: ٥١٧) والزركشي: البرهان (٢: ١٥٠) والإسكافي: درة التأويل ص١٣، ص٢٤.

(٣) العكبري: إملاء ما من به الرحمن (٢: ٣٧)، الزمخشري: الكشاف (٢: ٥١٧).

نظرات أكثر عمقاً تتصل بالمعنى من حيث تعدد اتجاهاته الإيحائية المنبثقة من السياق، لا من حيث أنه نتاج آلي لترابط نحو خاص[١].

وحين نتناول بالدراسة هذه الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة مع زيادة حرف العطف أو بدونه فإننا ننطلق من فكرة تراسل ماهيات المعاني[٢] بين المتعاطفات، فتقدم تحليلاً اسلوبياً لصيغة العطف هنا، فينضاف إلى البعد النحوي بعد آخر دلالي أسلوبي؛ فقد صُدّرت الآيتان في سورتي البقرة والأعراف بـ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ وهي ظرف لما مضى من الزمان، وكان الغرض من الآيتين تعداد نعم الله تعالى على بني إسرائيل، وتذكيرهم بها وما ذكر في الآيات وإن كان في أصله محناً إلا أنه في نفس الوقت نعم؛ لأن الله تعالى (نجاهم) و(أنجاهم) منها.

ونلاحظ أن آية (البقرة) جاءت بـ﴿نَجَّيْنَٰكُم﴾ بالتضعيف، بينما آية (الأعراف) جاءت بالهمزة ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ وكأن الله سبحانه وتعالى يذكرهم مرتين، في حالتين؛ لأن التضعيف يعني: تخليصهم من المحن تدريجياً والهمزة تعني تخليصهم منها دفعة واحدة، وهذا تذكير لهم بعد (الإنجاء). وهذا المعنى يستفاد من قوله: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ و﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، فالإنزال بالتدريج والتنزيل دفعة واحدة[٣].

وعطفاً على ما سبق فإن «يذبحون» في البقرة ورد مضعفاً ليتسق مع

---

(١) د. عفت الشرقاوي: بلاغة العطف في القرآن الكريم ص٥٨، ٥٩.

(٢) المقصود بتراسل الماهيات أن البناء الداخلي لصيغة العطف تنتج معنى كلياً عاماً هو الذي ندركه لأول وهلة ولا جدوى من اعتبار مفردات العطف منفصلة بعضها عن بعض لأن التغير في أي جزء يؤدي بالضرورة إلى تغيير شامل فالسياق يضفي ظلالاً معيناً على المعنى يتغير بها المفهوم ضمناً وليس تصريحاً (المصدر السابق ص٥٩).

(٣) معجم مفردات القرآن: نزل.

﴿نَجَّيْنَـٰكُم﴾ لتصور المعاناة في بداياتها وهو فعل الذبح للأبناء، بينما ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ جاء مع الهمزة أنجيناكم لأن الغرض تذكيرهم بما حصل من النعمة بعد انتهاء الإنجاء كله. وإن كان هناك قتل للأبناء واستحياء للنساء.

أما آية (إبراهيم) التي احتوت الواو، فنلاحظ أن الخطاب من موسى عليه السلام؛ فهو يذكرهم بنعم الله عليهم بعد إنجائهم؛ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم﴾، ولذا جاء الفعل بالهمزة ﴿أَنجَىٰكُم﴾، فهو يَعدُّ إنجاءهم من آل فرعون ـ وقد كانوا يسومونهم العذاب ويذبحون ويستحيون ـ نعمة وإن كانت حين اصابتهم نقمة[1].

وهنا يطرح السؤال: أليس التذبيح والاستحياء من سوم العذاب؟

والجواب: بلى.

وإنما أراد أن يذكر هذين الموقفين لبشاعتهما بعد أن ذكر ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، وسوء العذاب مجمل والتذبيح والاستحياء تفصيل فهو من باب عطف الخاص على العام والله أعلم.

ب ـ اتفق النحاة والمفسرون على أن الواو في الأعراف للعطف، وهي لعطف جملة ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ على جملة ﴿تَصُدُّونَ﴾ أي: «صادين وباغينها عوجاً»[2].

أما ما ورد بدون الواو ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، فقد ورد في تفسيرها: تطلبون لها اعوجاجاً، وهناك من أعرب الهاء في ﴿تَبْغُونَهَا﴾ مفعولاً به و﴿عِوَجًا﴾ حالاً وقع فيه المصدر ﴿عِوَجًا﴾ موقع الاسم[3]، ولا يخفى ما في هذا الإعراب من التعسف في التأويل؛

---

(١) الإسكافي: درة التنزيل ص١٣، الكرماني: البرهان: ص٢٦.

(٢) الزمخشري: الكشاف (٢: ١٢٣)، (١: ٣٨٤)، الكرماني: البرهان ص٤٥.

(٣) الزمخشري: الكشاف (١: ٣٨٤) حاشية الكشاف.

أي أنهم يطلبون أن تكون الطريقة المستقيمة نفس العوج، وقد سوغ الكرماني كون جملة تبغونها عوجاً حالاً وذلك لخلو الواو منها؛ إذ لا تزاد الواو مع الفعل إذا وقع حالاً، وأتى بشاهد: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ و﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وجعل الواو في الأعراف للعطف[1].

وعندما نتدبر الآيتين في سياقهما ندرك الفرق بين مدلوليهما ولماذا وجدت الواو هنا ولماذا حذفت هناك. وسياق الآيتين يوضح اختلاف حال المخاطبين؛ فالخطاب موجه في آية (آل عمران) إلى أهل الكتاب وهم يعرفون «الحق» الذي جاء به محمد ﷺ ويعلمون أنه الحق؛ فقد بشر به عيسى عليه السلام ووردت دلائله في التوراة، ومع تيقنهم من هذا الحق فإنهم يتخذون من الوسائل والأسباب ما يحول بين الناس والإيمان وهم يريدون «العوج» على الاستقامة، ولذا جاءت الآية لتؤكد هذا بـ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾، وقد سبق الفعل ﴿تَصُدُّونَ﴾ أداة استفهام الغرض منه الاستهجان والاستغراب من موقفهم: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإن صدَّهم الناس عن دين الحق عمل مستغرب لا يناسب معتقدهم بأن دعوة الإسلام هي دعوة الحق، كما خلت الآية من الجار والمجرور واكتفت بـ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ فالمقصود: الإيمان بدعوة محمد ﷺ وهو دين الحق أي: من دخل في الإسلام.

أما ما ورد في سورة الأعراف فالمخاطبون قوم شعيب أهل مدين، يدعوهم نبيهم لعبادة الله وحده وأن يوفوا الكيل والميزان.. فهو يوجههم فيأمرهم وينهاهم، ويتمثل النهي في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾. ولعل في «تفسير الزمخشري» لهذه الآية بآية اخرى بياناً وإيضاحاً؛ فقد شبههم بمن يقتدي بالشيطان في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]. وفي قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ

(١) الكرماني: البرهان ص٤٥.

﴿ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٨٦]، والجار والمجرور عائدان إما على السبيل أو على من آمن بالله.

ويلاحظ اختلاف أسلوبي التعبير والخطاب وشدة اللهجة لاختلاف المخاطبين. فأهل الكتاب يعلمون فخاطبهم بأسلوب الاستفهام الاستنكاري؛ ومفهوم «سبيل الله» عندهم ذو دلالة خاصة يعلمونها والـمقصود بـ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ خاص بدعوة محمد ﷺ ورسالته أي: من دخل في الإسلام، بينما قوم شعيب لا يزالون في مراحل الدعوة الأولى إذ يدعوهم إلى المبادئ الأولية للإيمان فهم مشركون بدليل قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ولهم من العادات من خسران الكيل والميزان ما يدل على جهالتهم. أما أهل الكتاب فلديهم من الكتب السماوية ما يعرفونه حق المعرفة، ولا يحتاجون بعده إلى مثل هذه الأوامر والنواهي.

ج ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقد كثر الكلام وتعددت الآراء حول ذكر الواو في سورة البقرة (آية ٥٨) قبل عبارة ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعدم ذكرها في الأعراف (١٦١).

فقد ارتأى القرطبي أن «الواو» في البقرة للعطف؛ أي: تغفر خطايا من هو عاص، وسنزيد في إحسان من هو محسن، أي: نزيدهم إحساناً على الإحسان المتقدم عندهم[1].

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١: ٤١٥).

وحين حذفت الـواو اصبح الخبر مستأنـفاً، وفي حكم الابتـداء ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾؛ فقد انفصل عمـا قبله، ولا دليل على فصله في اللفظ إلا حرف العطف[١].

وقد فرق الزمخشري بين العبارتين، فإن كانت بالواو فهي على معنى: من كان محسناً منكم كانت تلك الكلمة ﴿حِطَّةٌ ﴾ سبباً في زيادة ثوابه، ومن كان مسيئاً كانت له توبة ومغفرة[٢].

أما «سنزيد المحسنين» بدون واو فوعد بشيئين: الغفران والزيادة.

وفي رأيه أن طرح الواو لا يخل بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيد المحسنين[٣].

ومنهم من أشار إلى أن الواو ممكن وجودها في البقرة؛ لأن الآية تبدأ ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟﴾ فالواو قامت بعطف عبارة ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ على عبارة ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾؛ وهذا وجه جائز؛ لأن موضع عبارة ادخلوا مفعول به لفعل القول ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ ادخلوا وسنزيد.

أما في آيـة الأعـراف ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ فـقد تم حـذف الـواو في آيـة ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ليحول ذلك دون عطف هذه العبارة على عبارة ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾ التي هي نائب فاعل؛ إذ إنه من المتعارف نحوياً أنه لا يجوز أن يأتي الفاعل أو نائب الفاعل جملة، ووجود الواو سيجعل من العبارة ﴿وَسَنَزِيدُ﴾ جملة معطوفة، وعليه فإن جملة

---

(١) الخطيب الإسكافي: درة التأويل ص١٦، ١٧، ١٨.

(٢) الزمخشري: الكشاف (١: ١٤٥).

(٣) المصدر نفسه (٢: ١٦٤).

﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جملة استئنافية، في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، فكأننا نقول: «فنحن سنزيد»[1].

والرأي أن من يتدبر سياق الآيتين: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١].

يدرك أن ما ورد في آية البقرة تذكير من الله لهم بوعده على تقدير ﴿ٱذْكُرُواْ﴾ إذ قلنا فجاءت ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مرتبطة بما هو مطلوب منهم: ادخلوا، قولوا. فإن تحقق ذلك كان هنالك تحقق لوعد الله ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وزيادة.

أما آية الأعراف فتذكير من الله لهم بعد أن لم يفعلوا ذلك فهم، بدَّلوا قولاً غير الذي قيل لهم؛ فيذكرهم سبحانه بما كان قيل لهم من الدخول إلى القرية وقول ﴿حِطَّةٌ﴾ وبما وعدوا به ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.. مع أن ذلك كله حكاية حال سابقة مما لا يستدعي وجود الواو كما استدعتها الحال في سورة البقرة. والله أعلم.

د ـ وقد وردت آيتان من سورة الشعراء ذكرت في إحداها واو العطف ولم تذكر في الثانية على لسان ثمود تخاطب نبيهم صالحاً حين قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤]. وجاءت آية ١٨٥ من السورة نفسها

---

(١) الآلوسي: روح المعاني (١٩: ١١٩).

على لسان قوم شعيب: قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٥-١٨٦].

ويذهب بعض المفسرين إلى أن سبب زيادة الواو: أن شعيباً كان خطيب الأنبياء فأحب القوم أن يجاروه فيما ذهب إليه من قول فزادوا هذه الواو[(١)]. وذهب الكرماني إلى أن شعيباً زاد في الحديث، فزادوا له في القول، وأن صالحاً قلل فقللوا، وافترض أن الواو جعلت الجملة الثانية معطوفة وأن عدم ذكرها جعل الجملة الثانية بدلاً من اتحاد المعنى. والمعلوم أن دلالة العطف تغاير دلالة البدل، ويبدو أن تعليل الكرماني والآلوسي غير مقنع[(٢)].

وقد ورد في تفسير الزمخشري: أن كلمة (المسحر) لها معنيان: الأول: الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله، والثاني: من له رئة ومعدة فيأكل ويشرب أي: أنه بشر[(٣)].

وأجاب عن سؤال طرحه: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ها هنا وتركها في قصة ثمود؟ ويجيب: إذا دخلت الواو فقد قُصِد معنيان كلاهما منافٍ للرسالة عندهم التسحير والبشرية. وإذا تركت الواو فلم يُقْصَد إلا معنى واحد؛ وهو كونه مسحراً ثم قرر أنه بشر مثلهم.

والمعنى واحد فيما ذهب إليه قوم صالح من أنه بشر يأكل ويشرب فلا حاجة لوجود الواو؛ فالمقصود بقولهم «من المسحرين»: أنه ذو معدة يأكل ويشرب، وبذلك تكون الجملة الثابتة مؤكدة لبشريته بصراحة النص ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

---

(١) الإسكافي: درة التأويل ص١٧.

(٢) الكرماني: البرهان ص١٤٤.

(٣) الزمخشري: الكشاف (٣: ٣١٨، ٣٢٢).

أما ما قاله قوم شعيب فالقصد من «المسحرين» المعنى الثاني «من المسحورين» الذين أصيبوا بمس، وهذا يختلف عن كونهم بشراً، وبذا يكون قوم شعيب قد وصفوه بصفتين: البشرية، وكونه مسحوراً؛ لذا ذكرت واو العطف[(١)].

وقد رجح الدكتور فضل عباس هذين المعنيين بدليل تاريخي؛ وهو أن القبائل الأولى (ثمود وعاداً) لم تكن مشهورة بالسحر، وكلما جاءهم نبي كذبوه بأنه بشر يأكل ويشرب، وأن السحر لم يكن معلوماً لدى قوم صالح.

أما السحر عند قدماء المصريين فقد حدثنا القرآن الكريم عنه، كما أن قرب المسافة بين مصر ومدين منزل شعيب ترجح معرفتهم للسحر. ومن هنا يكون القصد بالمسحرين: «المسحورين»[(٢)].

هـ ـ ومما يلفت النظر أيضاً ذكر الفعل المضارع «لتبتغوا» مسبوقاً بالواو في آية، والفعل ذاته في آية مشابهة بدون «الواو».

قال تعالى في سورة النحل (١٤): ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

وقال تعالى في سورة فاطر (١٢): ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ٣١٨، ٣٢٢).

(٢) د. فضل عباس/ إعجاز القرآن الكريم ص٢٠٢.

ومن يتدبر سياق الآيتين ويتفكر في علة ذكر الواو في «ولتبتغوا» وحذفها من «لتبتغوا» يدرك أن الواو جاءت في مكانها وأن لفظة «لتبتغوا» خلت من الواو لاستغناء الدلالة عنها، ومع أن ظاهر الآيتين يوحي باتفاقهما في الدلالة لتشابه الآيتين في الألفاظ تقريباً ابتداء من ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ و﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾. فإن غاية الآية الأولى تختلف عن غاية الثانية.

فسورة النحل تبدأ بتعداد نعم الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ [النحل: ٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ [النحل: ١٠]. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [النحل: ١٢]. ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ [النحل: ١٣].

وبَعْد أن يعدد سبحانه نعمه على الإنسان في البر يعدد نعمه عليه في البحر وهي نعم متنوعة متعددة؛ أولها: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، وثانيها: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً﴾، والثالثة: منفعة الركوب ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ بالإضافة إلى منافع أخرى يبتغيها الإنسان من فضل الله عليه؛ وبذلك يكون ابتغاء فضل الله نعمة أخرى مضافة إلى بقية النعم الإلـٰهية وعلى نسقها.

إلا أن غاية الآية الثانية مختلفة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾، ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، ثم قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ [فاطر: ١٢].

فالغاية تعداد دلائل قدرة الله، وأن هذا الخلق والتكوين وتحديد الأعمار

والإماتة والإحياء ـ كل ذلك، مع كونه محيراً للعقول والأفهام، فهو على الله يسير، ومن كان ذلك عليه يسيراً فلن يصعب عليه البعث والنشور[١].

وقد ساق الله سبحانه آية ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾، ليدل على مزيد من قدراته على الخلق والتكوين، فجعل بحراً عذباً فراتاً، وآخر ملحاً أجاجاً. ثم قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾؛ وهو السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ ـ كل ذلك ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ واللام هنا بدون واو سلكت مسلك التعليل؛ وهي في الفعل حرف رجاء مستعار لمعنى الإرادة. فحذف الواو من قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾؛ لأن الآية لم تبن على فعل يقتضي استيعاب ما يتعلق به، كما كان في قوله، وهو الذي سخر البحر لكذا وكذا بعضه إثر بعض، ثم صارت مواخر، تلي قوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾، وصح تعلق الكلام بمعنى المواخر؛ أي: التي تشق الماء وتسير بأهلها؛ واللام على هذه الصفة ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فلما اتصلت ﴿مَوَاخِرَ﴾ بقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ ولم يحجز بينهما ظرف استغنى عن الواو لذلك.

ويحتمل أن تكون الآية مثلاً ضربه الله سبحانه لتشبيه المؤمن والكافر بالبحرين ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[٢] سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من مأكل وملبس وجريان الفلك؛ فرغم ملوحته فالسمك عذب طري، أما الكافر فهو كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ٥٧٤، ٥٧٥). تفسير أبي السعود (٥: ١٠٣).

(٢) الزمخشري: الكشاف (٢: ٥٨٦، ٥٨٧)، تفسير أبي السعود (٧: ١٤٦).

﴿ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤]، ومما يرجح هذا القول سياق الآية (٨) في المقايسة بين من يعمل السيء ومن يعمل الحسن في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨][1].

و ـ ويحظى تعاقب ذكر الواو وحذفها بأهمية كبيرة تصل إلى درجة تشكل ظاهرة ذات بال في القرآن الكريم، وتأتي هذه الآيات شواهد مضيئة على تعاقب الذكر والحذف لحرف الواو قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: ٩].

ب ـ واو القسم:

ز ـ ومما شغل النحاة والمفسرين وجود الواو في مطلع آية المؤمنون **٢٣** وخلوّها منها في مطلع الأعراف **٥٩** على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

---

(١) الإسكافي: درة التأويل ص٢٥٩، ص٢٦٢، انظر التأويل المسهب للآيتين.

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ومن اللافت للنظر أن كل ما ورد مشابهاً لهذه الآية ثبتت فيه الواو قبل لقد، إلا في سورة الأعراف، فقد جاءت خالية منها.

وقد تعددت آراء النحاة في هذه الواو، فرأى بعضهم أن تكون «واو قسم» بتقدير والله لقد أرسلنا[١].

ومنهم من اعتبرها ابتدائية واللام جواباً لقسم محذوف[٢]، وعلل عدم وجود الواو في الأعراف؛ بتقدم ذكر نوح بصراحة في الآيات، إلا أن الخبر في الأعراف ابتدائي لم يتقدم في هذه السورة ذكر رسول ليكون عطفاً عليه[٣].

ومنهم من قال: إن الواو في «المؤمنون» للعطف أي: عطف قصة على قصة[٤]. ورفض أن تكون للقسم.

وقد اتفق النحاة على اعتبار اللام مع قد بدون الواو للقسم، بمعنى «والله لقد» واعتبروا الجملة بعدها جواباً لقسم محذوف فقال الزمخشري: «ولا يكادون ينطقون بهذه اللام إلا مع قد وقلَّ عنهم أن تأتي بدونها لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها التي هي جوابها لأن «قد» مظنة التوقع»[٥].

---

(١) الآلوسي: روح المعاني (١٠: ١١٠).

(٢) الزمخشري: الكشاف (٢: ١٠٨، ١٠٩).

(٣) الآلوسي: روح المعاني مج٤ ص٣٨٧.

(٤) الزركشي: البرهان (١: ١٥١).

(٥) الزمخشري: الكشاف (٢: ١٠٨، ١٠٩). تفسير أبي السعود مج ٣ ص٢٣٥.

ونقل الآلوسي عن النحاة أنهم قالوا: إذا كان جواب القسم ماضياً مثبتاً متصرفاً فإما أن يكون قريباً من الحال فيؤتى بـ«قد»، وإلا أثبت باللام فجوزوا الوجهين.

ويبقى السؤال الذي لم يُـجَب عنه: لم وجدت «الواو» في المؤمنون ولم توجد في الأعراف؟ وبالعودة إلى سياق الآيتين نلاحظ أن آية الـمؤمنون وردت فيها لفظة «ولقد» قبل ذكر نوح مرتين[1] الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] والثانية في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [الـمؤمنون: ١٧]، ثم في قـوله تـعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

ولعل ما دفع بعض النحاة إلى القول بأن «الواو» للقسم وليست للعطف في سورة المؤمنون أسباب تتعلق بإثبات علاقة الإسناد للمعطوف ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾، وهو معطوف كما يلاحظ، على الآية التي قبله وما تعلقت به وهما ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾ [المؤمنون: ٢١] و﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢٢] ثم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾؛ إذ لا تـنطبق عليها فكرة التشريك المطلق في الحكم؛ (وهي فكرة تعلق بها النحاة في معنى العطف بصفة عامة)[2]؛ إذ لا علاقة بين هذه الآية وما قبلها لاختلاف المعطوف والمعطوف عليه؛ فلجأ بعضهم إلى القول بأن الواو للقسم وإن مال بعضهم إلى تقدير رابط بعيد وهو عطف قصة على قصة، وقد تكون هذا الواو للعطف فإن العطف في هذه الآية يلقي بظلال خاصة على المتعاطفين من حيث صلة المعطوف بالمعطوف عليه بلاغياً ومعنوياً، لا نحوياً؛ فقد ذُكر سابقاً أن ثلاث آيات قد بدأت بـ﴿ وَلَقَدْ ﴾،

---

(١) الكرماني: البرهان ص٧٢.

(٢) د. عفت الشرقاوي: بلاغة العطف في القرآن الكريم ص٦٠.

جاءت اثنتان منها لتدلل على وجود الله سبحانه، وعلى قدرته، ولتعرض أمام المشركين أدلة مقنعة على صدق النبي ﷺ فيما يعرضه عليهم، ثم عُطفت الآيتان بقصة نوح ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ لتقول للمشركين على سبيل التوعد والتهديد: إن كانت هذه الآيات الكونية المقنعة لكل عاقل متدبر لم تصل بكم إلى الإيمان بسبب عنادكم؛ فإليكم قصة نوح مع قومه كيف عاندوا واستكبروا فحلّ بهم من العذاب ما حل؛ فكأن ذلك تهديدٌ لمشركي مكة ليثوبوا إلى رشدهم، فالآيات الدالة على الله سبحانه وعلى صدق رسالة نبيه ساطعة، فاعْتبِروا وإلّا حل بكم ما حل بمن سبقكم أي: (قوم نوح).

أما في سورة الأعراف فلم تـأت الواو لأن قصة نوح كانت هي بداية القصص بعد ذكر آدم[1] وأهل الأعراف[2] ثم عطف عليها بقصة هود وقصة صالح وشعيب فقال: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩]، (٦٤) ثم ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

ح ـ الواو التي قال بعض النحاة بزيادتها:

مـما يلفت النظر آيتان متشابهتان في سورة الزمر ذكرت «الواو» في إحداها وحذفت من الأخرى على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ [الزمر: ٧١].

---

(١) انظر الآيات من (١١: ٢٧) قصة آدم وعصيان إبليس ونزول آدم إلى الأرض ثم خطاب بني آدم (٢٧).

(٢) قصة الأعراف (٤٦) وما بعدها (الأعراف) حتى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ آية (٥٨).

وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣]. وقد أخذت الواو في ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾ جزءاً من اهتمام النحاة والمفسرين والبلاغيين واختلف تقديرهم لإعرابها من جهة ولدلالتها الوظيفية من جهة ثانية.

فاختلف موقف النحاة من هذه الواو المذكورة في أبواب الجنة دون أن تذكر مع أبواب جهنم؛ فاستدل ابن هشام بعدم ذكرها في أبواب «جهنم» على أنها زائدة في آية أبواب الجنة وسماها «واواً دخولها كخروجها»[1]؛ فالمقصود ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ بدون الواو (فتحت أبوابها)، ويترتب على ذلك أن تكون جملة «فتحت أبوابها» جواب «إذا».

لكن ابن هشام نفسه عدد احتمالات العلاقات النحوية في هذه الآية، كأنْ تكون «الواو» في ﴿وَفُتِحَتْ ﴾ عاطفة والزائدة واو ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ فتكون الآية على معنى: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها قال لهم خزنتها سلام عليكم، فيكون جواب «إذا»: «قال لهم خزنتها سلام عليكم»[2]. أو أن تكون «واو» «فُتحت» و«واو» «قال» عاطفتين وجواب «إذا» محذوفاً، فيكون تقدير الكلام: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم.. (اطمأنوا أو كان كيت وكيت)، وهناك احتمال رابع وهو: أن تكون واو «فتحت» للحال وتكون دلالتها أي: جاؤوها مفتحة أبوابها[3] واستدل بآية ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾، وبذلك ندرك كيف تعددت

---

(١) ابن هشام: مغنى اللبيب (١: ٣٢٦، ٣٦٣).

(٢) المصدر نفسه (١: ٣٦٣).

(٣) المصدر نفسه (١: ٣٦٣).

احتمالات الإعراب لهذا الحرف بتعدد العلاقات النحوية في هذه الآية فتعددت احتمالات المعنى[١].

أما موقف المفسرين من هذه «الواو» من حيث ذكرها وحذفها، فقد أخذ مساراً آخر: فذهب بعضهم إلى أن «الواو» في ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ هي واو الثمانية، واستشهد بآية الكهف: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، وجاءت تسمية واو الثمانية عن جماعة من الأدباء: كالحريري، ومن النحويين: كابن خالوَيه، زعموا أنَّ العرب إذا عَدُّوا قالوا: واحداً اثنين.. سبعة وثمانية؛ إيذاناً بأن السبعة عدد تام وأن ما بعدها عدد مستأنف[٢].

وإذ استنتج المفسرون في ضوء ذلك أن أصحاب الكهف ثمانية مع وجود الواو قاس بعضهم ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ فقال: أبواب الجنة ثمانية، لذا ذكرت «الواو»، وأبواب النار سبعة فلم تُذكر واو الثمانية، ومما يجعل هذا التفسير بعيداً وغير مقبول في سورة الزمر كما قيل في الكهف، أن العدد لم يرد ذكره على الإطلاق في سياق ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾؛ فقد ذكرت لفظة «الأبواب» دون تحديد لعددها، فكيف يُعرف العدد ويُحدد دون ذكره؟ لأن التركيز على عملية فتح الأبواب لا على عددها.

وبالرغم من أن عدد أبواب الجنة قد ورد في حديث للبخاري: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها بابٌ يسمىٰ باب الرَّيان لا يدخله إلا الصائمون»[٣]، فإن هذا العدد لم يرد

---

(١) انظر العكبري: إملاء ما من به الرحمن (٢: ١١٦). فقد رفض أن تكون الواو زائدة فهي للحال والجواب محذوف.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم (١٥: ٢٨٣، ٢٨٤). الآلوسي: روح المعاني مج١٢ ص٢٨٦.

(٣) العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري حديث رقم ١٨٩٧ مج ٤ ص١٣٣، التبريزي: مشكاة المصابيح ج١ كتاب الصوم حديث رقم ١٩٥٧ - (٢) ص٦١٠.

أو يحدد في الآية مما يجعلنا نقرُّ بصحة نفي واو الثمانية في هذا المقام؛ لأنه لم يذكر العدد، ونستبعد رأي من يقول بوجود واو الثمانية.

وذهب عدد من المفسرين إلى أن أبواب جهنم تكون مغلقة ولا تُفتح إلا حين مجيء الكفار إليها كسائر أبواب السجون؛ وهذا يُسوِّغ عدم ذكر «الواو» في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ إذ كانت مغلقة، واستدلوا بعدم وجود «الواو» على أن جملة «فتحت» جاءت جواباً للشرط، وأن شرط فَتحها مجيء «الذين كفروا»، أما أبواب الجنة فإن أبوابها تفتح سلفاً قبل مجيء «الذين اتقوا ربهم» استبشاراً وتطلُّعاً إلى من سيدخلها، وبعد ذلك يجدون من أنواع الكرامات ما يفاجئهم ﴿وَفُتِحَتۡ﴾. وعلى ذلك رأيُ عددٍ كبير من المفسرين[1].

ويبدو أن احتدام الخلاف حول هذه «الواو» كاد أن يُشغل النحاة والمفسرين عن بلاغة وجود «الواو» وأهمية ذكرها في آية أبواب الجنة، مما لا يستدعي وجودها في آية أبواب جهنم.

والذي أراه أن من مظاهر تكريم الله لعباده: أن الجنة تكون مهيأة ومُعَدّة ومشرّعة أبوابُها لاستقبال المؤمنين مما يكون أدعى للبهجة والراحة النفسية لهم. ويخيل للإنسان طول المسافة رغم اقتراب المؤمن منها فلطالما انتظرها، فكلما اقترب منها خطوة زاد شوقه، فيناسب هذا الشوق أن تكون الجنة مفتحة أبوابها لتناسب تعاظم شوق المؤمنين فلا ينتظرون حتى تفتح، وهذا يستدعي وجود «الواو».

---

(١) أبو حيان: النهر الماد مج٥ ص٥٥، الإسكافي: درة التأويل ص٤٠٩-٤١٠. الكرماني: البرهان ص١٨٦، القرطبي: الجامع (١٥: ٢٨٣-٢٨٤)، الآلوسي: روح المعاني مج١٢ ص٢٨٦-٢٨٨، تفسير أبي السعود (٧: ٢٦٤).

أما بالنسبة لأبواب جهنم فكلما اقترب الكافر ازداد خوفاً وحذراً وتعاظَمَ الخوف إلى درجة الرعب فكلما تقدم خطوة تمنى في نفسه أن يتأخر، وأن يرجع إلى الوراء، نتيجة الوقع النفسي الشديد لتخيل ما ينتظره؛ فهو يريد أن يتراجع فما أن يصل إلى جهنم إلا وتفتح أبوابها وحميمها ليكون الوقع أعظم والرعب أشد؛ فلم يستدع الموقف ذكر «الواو». والله أعلم.

ولعل ما جعل الخلاف يحتدم حول هذه «الواو» هو وجود أداة الشرط «إذا»، والمعروف أن النحاة أينما وجدوا شرطاً بحثوا له عن جواب، فإن لم يجدوه في سياق الآيات أخذوا في تقديره وتأويل أوْجه محتملة حتى تستقيم قواعد الشرط ويندرج المثال في القاعدة.

ولعل تقدير زيادة «الواو» واعتبارها «زائدة دخولها كخروجها» إنما هو من قبيل البحث عن تسوية للوضع ليستقيم معنى الشرط وجوابه»[1].

ولم تكن «الواو» في سورة الزمر وحيدة في بابها؛ ففي سورة يوسف أيضاً وردت الآية ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف: ١٥]، فقد بحث النحاة عن جواب «لما» فما استقام لهم، وما تحدد؛ فلم يجدوا مفراً من تقدير إحدى «الواوين» زائدة: فإما أن يكون المعنى: «فلما ذهبوا أجمعوا وأوحينا». أو أن يكون: «فلما ذهبوا وأجمعوا أوحينا».

ومثله: في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ * وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٣].

ومثله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم﴾ [آل عمران: ١٥٢].

(١) تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص٣٠.

وكذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨].

وقد يحصل العكس فيقدر بعضهم واو العطف محذوفة في أحد الموضعين، كما اقترح بعض النحويين في آية أبواب جهنم قياساً على آية أبواب الجنة فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ على تقدير واو محذوفة[١].

ونخلص إلى النتيجة التالية: أن أسلوب الشرط في هذه الأمثلة وعلى رأسها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ من حيث ظاهره التقليدي الصوري المألوف أسلوب منطقي إذ يرتبط فيه السبب بالنتيجة والشرط بالجزاء، ولذلك فإنه بصورته المتكاملة التي يتخيلها النحاة لأصل التركيب لا يناسب مقام التعبير القرآني وإذا كان من الإعجاز البياني للقرآن الكريم حذف جواب الشرط مع استعمال الواو ﴿وَفُتِحَتْ﴾ للتعبير عن المفاجأة حيث تذهب النفس فيه كل مذهب ـ فليس من براعة التحليل النحوي البلاغي للقرآن الكريم أن نعود إلى تقدير هذا الجواب بألفاظنا ومعانينا لنخضع القرآن الكريم للثابت الذي نعرفه ونألفه[٢].

وأخيراً فإنّ من أساليب التصوير الفنية في القرآن الكريم ذلك الأسلوب الذي يبدو مشروطاً بلا جواب، وهو أسلوب يفتح أمامنا آفاقاً من التعبير تختلف أسراره باختلاف المناسبة والسياق.

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٥: ٢٧٣، ٢٨٤) الآلوسي: روح المعاني مج١٢ ص٢٨٦، ٢٨٨.

(٢) د. عفت الشرقاوي: بلاغة العطف في القرآن الكريم ص٧٠-٧٢.




الفصل الثاني

تعاقب الذكر والحذف في المفردة

(الاسم والفعل)

وفيه الموضوعات التالية:

تعاقب الذكر والحذف في:

١ـ الضمير
٢ـ الفعل
٣ـ الفاعل
٤ـ المفعول به
٥ـ الموصوف
٦ـ المؤكد المعنوي
٧ـ الاسم الموصول
٨ـ المعطوف
٩ـ العلم
١٠ـ المعرف بالأداة




تعاقب الذكر والحذف في المفردة
(الاسم والفعل)

إضاءة:

تتميز مفردات القرآن الكريم بخصائص ومميزات عديدة منها: جمال وقعها، واتساقها مع المعنى، واتساع دلالتها؛ فهي مفردات منتقاة مختارة، تختص كل منها بمعنى لا تؤديه مفردة أخرى؛ لأنها مقدرة خير تقدير معبرة أصح تعبير وأصدقه.

وأن التحديد المنضبط لمفهوم الكلمة القرآنية يمنح القارئ إدراكاً متكاملاً لمدلولها، ويفتح أمامه أبواب الوعي الدقيق لكثير من الآيات القرآنية التي يتعاقب فيها ذكر المفردة وحذفها.

وإذا كان بعض العلماء يعد الترادف من خصائص اللغة ومفاخرها، فإن كثيرين قد وقفوا من فكرة الترادف في ألفاظ القرآن الكريم موقف السلبية والإنكار؛ فقالوا: لا ترادف في مفرداته، لأن كل مفردة هي في مكانها لتؤدي دلالة محددة، فإذا حذفت أو تغيرت المفردة تغيرت الدلالة.

ونعرض في هذا الفصل لقضايا ذكر مفردات بأعيانها في آيات وحذفها في آيات أخرى. وسيتم ذكر الآيات وتحديد نوع المذكور والمحذوف وتوضيح علل الحذف والذكر، وفيما يلي عرض لتعاقب الذكر والحذف في كل مفردة.

١ـ تعاقب ذكر الضمير المنفصل وحذفه:

يطرد ذكر ما سماه النحاة ضمير الفصل أو العماد في آيات القرآن الكريم ليصبح ظاهرة تستدعي الدراسة. ومما يلفت النظر وجود العديد من الآيات المتشابهة ذكر فيها الضمير مقابل آيات أخر لم يذكر فيها هذا الضمير.

أ ـ الضمير «هو»:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القلم: ٧].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٧].

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥].

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الإسراء: ٥٥].

كما ذكر الضمير في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦].

وحذف في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقد ذكر في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ الْبَٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢].

وحذف من قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَٰطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان: ٣٠].

وقد اختتمت الآيات التالية بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ متضمنة الضمير «هو»: سورة الجاثية: ٣٠، التوبة: ٧٢، ١١١، غافر: ٩، الدخان: ٥٧، الحديد: ١٢.

كما اختتمت الآيات التالية بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بدون الضمير هو: [النساء: ١٣]، [المائدة: ١١٩]، [التوبة: ٨٩]، [الصف: ١٢]، [التغابن: ٩]، [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وذكر مرة وحذف أخرى في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٠].

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١] بدون «هو».

ب ـ الضمير «هم»:

كما تعاقب ذكر الضمير «هم» وحذفه في الآيات التالية على النحور التالي:

قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ويطرد ذكر الضمير «هم» في الآيات التالية: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧] و[فصلت: ٧].

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

﴿وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٥].

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

كما ذكر الضمير «هم» في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢].

فما هو هذا الضمير وما إعرابهُ وما عملُه وما علّة ذكره مرة وحذفه أخرى من آيات القرآن المتشابهة؟

ـ لقد اختلف النحاة في تسمية هذا الضمير وفي أسباب هذه التسمية، كما اختلفوا في إعرابه، وتعليل كل وجه من وجوه هذا الإعراب.

أما اختلافهم في التسمية؛ فقد ذهب الكوفيون إلى أن الضمير الذي يفصل به بين المبتدأ والخبر يسمى عماداً، وعللوا هذه التسمية بأنه يعتمد عليه معنى الكلام.

بينما أطلق عليه البصريون «ضمير الفصل» وعللوا التسمية بأنه يميز به بين النعت والخبر، واشترطوا في الخبر أن يكون معرفة أو كالمعرفة (شبيهاً بالمعرفة)، وأن يكون اسماً. وفائدة الضمير هنا أن يأتي لدفع اللبس بين أن يكون المعرف بـ«أل» خبراً أو تابعاً، وبوجود الضمير يتعين أن ما بعده خبر لا صفة.

أما الجرجاني؛ فألحق المضارع بالاسم؛ فأجاز أن يأتي بعد الضمير فعل مضارع، في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]، أن يكون (هو) ضمير فصل، يفصل بين المبتدأ والخبر، حين يكون الخبرُ فعلاً مضارعاً، ولهذا المعنى جاز أن يقع فعلاً ماضيًا بعد ما سماه «ضمير الفصل» في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٣-٤٥].

ولم يقف خلاف النحاة عند حد تسمية هذا الضمير وتعليل تسميته، وشروط ما قبله وما بعده، بل وضعوا شروطاً لضمير الفصل أهمها: أن يكون مبتدأ في الأصل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]، وأن يكون معرفة في الأصل، وخالفهم الفراء ومن تابعه من الكوفيين، فأجازوا كونه نكرة وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ﴾ [النحل: ٩٢][(١)].

ومثلما اختلفوا على تسميته «فصلاً» أو «عماداً» اختلفوا على إعرابه؛ فزعم البصريون أن ضمير الفصل (حسب تسميتهم) لا محل له من الإعراب، وقال الكوفيون: إن ضمير العماد له محل من الإعراب، واختلفوا في محله: فذهب الكسائي إلى أن محله بحسب ما بعده، وقال الفراء: بل بحسب ما قبله؛ لأن محله بين المبتدأ والخبر «رفع»، وبين مفعولي ظن «نصب»، وبين معمولي (كان) رفع عند الفرّاء، ونصب عند الكسائي، وبين معمولي إن بالعكس.

وفي ضوء ذلك تعددتِ احتمالاتُ أوجهِ إعرابه:

ففي قوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] يحتمل الضمير «أنت» أن يكون ضمير فصل أو توكيداً لفظياً، ولا يحتمل الابتداء؛ لأن «الرقيبَ» منصوبٌ فهو «خبر كان». وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ يحتمل الفصلية والابتداء

---

(١) ابن الأنباري: الأنصاف المسألة ١٠٠ (٢: ٧٠٦-٧٠٧)، ابن هشام/ المغني (٢: ٤٩٤).

دون التوكيد؛ لدخول اللام في الأولى، ولكون ما قبله ظاهراً في الثانية، واحتمال الثلاثة في ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ والضمير في قوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ مبتدأ؛ لأن ظهور «ما» قبله يمنع التوكيد وتنكيره بمنع الفصل[١].

وقد أبعدهم هذا الاختلاف حول التسمية والإعراب والتوسع في مفهوم الفصل؛ ليجعل بعضهم من «ضمائر الفصل» ذلك الضمير الذي يأتي بين الاسم والخبر إذا كان مضارعاً أو ماضياً أو اسماً غير معرف أبعدهم هذا الخلاف عن التفكير في وظيفة هذا الضمير والفائدة التي تعود على الجملة من وجوده، وإن صرحوا من البداية أن له فائدة لفظية؛ وهي الإعلام، من أول الأمر، بأن ما بعده خبر لا تابع، وبناء عليه سمي فصلاً أو عماداً.

وقد أشار البيانيون إلى فائدة أخرى لهذا الضمير سوى الفصل؛ وهي فائدة الاختصاص.

فذكر الزمخشري فوائد الضمير في تفسيره لآية ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فقال: ﴿هُمُ﴾ فصل وفائدته: الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتأكيد على أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره.

وبيَّن معنى التعريف في ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هو الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك عنهم أنهم يفلحون في الآخرة، فتعريف ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ ليبصرك بمراتبهم، ويرغبك في طلب ما طلبوا، ولينشطك لتقديم ما قدموا[٢].

---

(١) ابن هشام: مغني اللبيب (٢: ٤٩٨، ٤٩٣).

(٢) الزمخشري: الكشاف (١: ٥٤، ٥٥).

والرأي لدي: أن ما ذهب إليه الزمخشري في بيان وظيفة الضمير في الجمل هو الهدف الأجدى والأجدر، وبما أن هذا الضمير قد يأتي متبوعاً بفعل أو نكرة فما جدوى أن يسمى فصلاً، كما أنه لا يمكن تسميته ضمير شأن أو قصة؛ إذ إنه لم يأت في مطلع الجملة[١]، ويعود على ما بعده لزوماً، وتأتي بعده جملة مفسرة.

وفي ضوء ما أوضح الزمخشري نَرى أن هذا الضمير ـ حتى وإن جاء لرفع لبس ـ إنما جاء لتوكيد المعنى دون أن تقصد التوكيد اللفظي التابع المعروف؛ وبذلك نتخلص من الخلاف ونتدبر آيات تعاقب ذكر «ضمير التوكيد» وحذفه؛ لتبيين وظيفة ذكره وعلة حذفه.

وباستقراء الآيات السابقة وتدبرها نستخلص الملاحظات التالية.

ـ لا يخلو موضع من المواضع التي ذكر فيها الضمير «هو» أو «هم» من دلالة التوكيد؛ فهذا الضمير يعتبر وسيلة لقرع الآذان وتنبيه النفوس إلى الفكرة أو الخبر الذي تتضمنه الآية ليستقر في القلب؛ فينتهي الحال بالمستمع إلى الإيمان بها، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ [القلم: ٧] مع ذكر الضمير «هو» قد أعطى الخبر «أعلم» قيمة أدت إلى رسوخ خبر العِلْم على أنه حقيقة ناصعة؛ وهكذا الحال في الآيات الأخرى التي احتوت على الضمير هو أو هم.

ـ فإذا ما اقترن الضمير بتعريف الخبر زاد التوكيد لدرجة تجعل المبتدأ كأنه مقصور على الخبر؛ وهذا الخبر مقصور عليه دون غيره، مثل قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ

(١) انظر ابن هشام: مغني اللبيب (٢: ٤٩٠-٤٩١)، قل هو الله أحد ونحو فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا والكوفيون يسمونه (ضمير المجهول).

بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. فالله هو السميع العليم، وهو الحق وغيره هو الباطل، وإن الله هو العلي الكبير، وذلك هو الفوز العظيم ولا فوز سواه، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [الزخرف: ٦٤]، وهو على لسان عيسى، عليه السلام؛ يريد أن يؤكد الربوبية لله، وينفي الأبوة عنه؛ فالله وحده ربه وربهم؛ ولا يخفى ما أفاده وجود الضمير في الآيات السابقة لرفع اللبس أيضاً؛ فقد يلتبس الخبر بالبدل إن لم يؤت بضمير هو في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

ـ وقد يأتي الضمير بعد الأفعال التي هي مظنة الاشتراك بين البشر والله، سبحانه وتعالى؛ فوجود ضمير الفصل في هذا الموضع يصبح ضرورة لمعنى الاختصاص؛ وهذا يفسر وجود الضمير في الآيات قبل الفعل يطعمنى ويسقين ويشفين (الشعراء: ٧٨، ٨٠)، وخلو آية ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾، ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (الشعراء: ٧٧، ٨١) من هذا الضمير، وهو يفسر كذلك وجود الضمير في قولهِ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]؛ لأن الإطعام، والسقيا، والإضحاك، والإبكاء مظنة الاشتراك بين البشر والله تعالى.

وما يلفت النظر في الآيات التي على لسان إبراهيم إسناده الإطعام، والسقيا، والإماتة، والإحياء إلى الله سبحانه وتعالى، وإسناده المرض إلى نفسه؛ فلم يقل: إذا أمرضني فهو يشفين، بل أسند الشفاء إلى الله تأدباً وتحرجاً من أن ينسب ما فيه أذى أو ألم إلى الله، سبحانه وتعالى.

ـ وقد أتى الضمير «هو» ليشكل عنصراً من عناصر التشويق والحث على العمل، يتضح ذلك في الآيات التي احتوت على عبارة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، والمقصود

بالفوز العظيم الذي لا فوز بعده كقوله تعالى وهو وعد منه للمؤمنين والمؤمنات: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ولما ذكر سبحانه المجاهدين بأموالهم وأنفسهم أثبت الضمير، وقال في شأنهم: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨]، واكتفى بذكر الضمير الذي اقترن بأل التعريف مع «مفلحون» ليطمئنهم أنهم المفلحون فلاحاً لا فلاح بعده، ولم يذكر الضمير هو في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٨٩]. ولعل طبيعة الإيمان المقرون بالقوة والبذل والكرامة والشجاعة والاستقامة صفات تستدعي مثل هذا الضمير «هم المفلحون»، وتستدعي في الجزاء السابق ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أمّا المجاهدون الذين نالوا الشهادة بعد أن قاتلوا أعداء الله ثم قتلوا في سبيله فقد وعدهم بأن لهم الجنة ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ فهو حث على الجهاد والتضحية والموت في سبيل الله لنيل مثل هذا الجزاء، وقد يحمل ذكر الضمير في مجال الموازنة بين أعمال الكفار والمنافقين ومصيرهم من جهة وأعمال المؤمنين ومصيرهم من جهة أخرى ـ يحمل معنى الترغيب في أعمال الخير، والترهيب من أعمال الشر، وفتح باب التوبة والأمل بذكر ما ينتظر المؤمنين من النعيم والثواب المقيم، ويتضح هذا الهدف من وجود الضمير في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، وفي قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقد ذكر سبحانه بالمقابل المؤمنين وصفاتهم فقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١]، ثم عقب بوعده الذي لا يخلف لهؤلاء: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢]، ويلفت النظر قوله، سبحانه، في المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، وقوله في المؤمنين: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾؛ فالمنافقون بعضهم مثل بعض أفراداً ضعافاً لا جماعة متماسكة قال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ [الحشر: ١٤]؛ لذا قال سبحانه: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، لبيان نوعهم وجنسهم ودينهم، أما المؤمنون، فهم جماعة متماسكة كل واحد ولي حميم للآخر(١) فهم يد على من سواهم، كما قال رسول الله ﷺ.

ولعل التنفير من صفات المنافقين من جبن وذلة وتخاذل وصَغَار وهوان يستدعي مثل هذا الوصف المقترن بضمير الفصل ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧] ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٩]. ولعل هذا ما يجعل المنافق يفكر في التوبة حين يوازن بين مصيره ومصير المؤمن وما أعده الله من الثواب؛ فيعود إلى الطريق القويم؛ فقد خص المنافقين بأنهم الخاسرون والفاسقون وخص المؤمنين بالفوز العظيم ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقد يتطلب المعنى من التأكيد ما يدعو إلى تكرار الضمير في جملة واحدة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٣]، فقد أكد إيمانهم

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن مج٤ ص٢٤٩.

بالآخرة لتكرار الضمير قبل الخبر ﴿يُوقِنُونَ﴾ وفي المقابل أكد على خسران الفريق الآخر بتكرار الضمير أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٥]، وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٩].

فالآيات تؤكد على صفات هؤلاء وما يستتبع هذه الصفات من عقاب لأنهم لا يوقنون بالله أو هم غافلون عن الآخرة، أو كافرون بها؛ ولذا هم «الأخسرون»؛ أما المؤمنون بالآخرة فقد أكد أيضاً صفاتهم بقوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وفي سورة البقرة وصف الله سبحانه المتقين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.. ثم ركز على إيمانهم الأكيد بالآخرة فقال: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وقال في جزائهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ثم أكد تأكيداً آخر، فعطف وكرر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]. وقد ذكر الضمير أيضاً في هذا الموضع بالإضافة إلى توكيد الخبر ـ لضرورة الإسناد ـ ورفع اللبس، وكذا في آية (٢١) من سورة غافر؛ فلولا ذِكْر الضمير لأشكل على المستمع تحديد المقصود بالإخبار؛ أي: لمن أسند هذا الخبر. في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر: ٢١] فلو قال: «كانوا أشد منهم» لاحتمل المعنى أن السابقين كانوا أشد من الناظرين أو العكس؛ أما بوجود الضمير فقد تحددت الدلالة، وتأكد المعنى؛ فإن السابقين هم الأشد قوة؛ أما آية غافر (٨٢)؛ فقد اختلف نسقها؛ فجاءت على النحو التالي: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٨٢] بدون كانوا، ثم استأنف: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾؛ فاستغنت عن الضمير لوضوح الدلالة وتحديدها؛ فهي خاصة بمن كانوا قبلهم دون غيرهم.

٢ـ تعاقب ذكر الفعل وحذفه:

تلفت النظر ظاهرة حذف الفعل من الجملة التي تأتي جواباً للاستفهام، وبالتحديد بعد القول في آية وذكره في آية أخرى على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، ويعرب لفظ الجلالة: فاعلاً لفعل محذوف؛ أي خلقهن الله، ويجوز أن يُعرب مبتدأ خبرُهُ محذوف. إلا أن تقدير الفعل أولى من تقدير المبتدأ؛ لمطابقة الجواب للسؤال؛ ولأن الفعل جاء مصرّحاً به في آية الزخرف فما السر في ذكر الفعل في موضع وحذفه في الموضع الآخر؟

ومع أنّ هاتين الآيتين تعرضان لموقف المشركين من فكرة خلق السماوات والأرض، وتصور تناقضهم في اعترافاتهم وسرعة ردهم، بما يعبر عن معرفة أكيدة لا تحتمل الشك بأن الله خلق السماوات والأرض، وفي إشراكهم به وعدم إيمانهم بوحدانيته. فإن أسلوب الإجابة عن السؤال نفسه في كل منهما قد اختلف، فماذا ترتب على ذلك؟

من يتدبر الإجابة الأولى عن السؤال نفسه يلمح فيها الحسم وسرعة الرد «الله» مع ملاحظة دلالة نون التوكيد الثقيلة «ليقولنّ» ولفظ الجلالة مباشرة «الله».

وقد اختلف المقام في الآية الثانية؛ فهو مقام بسط وعرض وكأنه حوار علمي؛ ففي هذه الآية يقرّون أنه الخالق ويعلمون من صفاته «العزيز العليم»، وهم يدركون العديد من آيات الله بدليل قوله تعالى في الآية التالية: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ١٠].

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ * وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ إلى آية ١٤؛ فهم يعلمون، لكنهم بالرغم من معرفتهم الأكيدة، يشركون ويكذبون كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥].

ولعل التفاوت في الإجابة يوحي بالتفاوت في القصد من السؤال من ناحية، واختلاف المقال لاختلاف المقام بدليل سياق آية الزمر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

فالإجابة سريعة صادرة عن شخص متأكد مثلما أن السائل متأكد..؛ فقد أقروا أنه «الله». ولعل هذه الإجابة طرف خيط يمسك به الرسول ﷺ؛ للتوصل إلى بطلان ما يعبدون من دون الله؛ فهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً؛ فليس الهدف من السؤال المحاورة العلمية المتدرجة للتوصل إلى نتيجة، ولكن الموقف فيه تقرير سريع بـ«الله» وقرار بتناقضهم وبطلان ما يعبدون؛ وفي الأمر الإلـٰهي «قل» حسم وحزم.

٣ـ تعاقب ذكر الفاعل وحذفه:

من الظواهر الأسلوبية الواضحة في البيان القرآني ظاهرة الاستغناء عن الفاعل، وهو ما يطلق عليه أرباب الدراسات اللغوية الحديثة مصطلح «الحجب»[1]؛ أي: حجب الفاعل بحذفه وعدم التصريح به أو ذكره.

---

(١) حوليات الجامعة التونسية: تونس-١٩٩٥.

ومما يلفت النظر في البناء القرآني اطراد ظاهرة الاستغناء عن الفاعل بالبناء للمجهول، ويقابله ذكر الفاعل في البناء للمعلوم[١]. في آيات متشابهة.

ـ من الآيات التي تعاقب فيها ذكر الفاعل وحذفه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ [الإنسان: ١٥] ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]. وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

فالآية في سورة الواقعة ذكرت الفعل ﴿يَطُوفُ﴾ مقترناً بفاعله الموصوف ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، وأن هؤلاء الولدان المخلدين يطوفون على أهل الجنة وعليهم ثياب فاخرة وحلي وزينة، بأكواب وأباريق؛ فالغرض ذكر الطائفين وبيان صفتهم؛ فهم صغار السن بدليل قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤].

أما في الآية ١٥ من الإنسان، فقد ذكر الفعل ﴿يُطَافُ﴾ عليهم بآنية فحجب الفاعل؛ لأن المقصود ما يطاف به على أهل الجنة؛ لذا أفاض في وصف هذه الآنية؛ فهي مخلوقة من فضة، وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفافيتها؛ فهي تجمع بين صفتي جوهرين مختلفين: الفضة، والقارورة؛ لذا قدرها أهل الجنة في أنفسهم؛ فجاءت حسب ما يشتهون، وقدر ما يحتاجون[٢].

---

(١) عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني ص٢٢٢.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن (٨: ٣٩٩).

وباختلاف القصد اختلف أسلوب التعبير: فحين قصد وصف الفاعلين (الطائفين) ذكرهم لتعلق الصفة بهم فهم غلمان صباح الوجوه لا تدركهم السن لأنهم مخلدون، وهم في سن الصباحة والصبا والوضاءة وكأنهم لؤلؤ منثور[١].

وقد استغنى البيان القرآني عن ذكر الفاعل وأسنده إلى غير فاعله حين كان القصد التركيز على الحدث «يطاف بآنية»، بصرف النظر عن محدثها وهم الطائفون.

ـ وبتدبر قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، وقوله قبل ذلك من السورة نفسها: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، وبالرجوع إلى الآيات السابقة وصولاً إلى الآيات مدار البحث نجد أن الآية الأولى قد سبقها قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ٩١]. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

فهذه الآيات نزلت فيمن تخلف عن الجهاد بالمال من القادرين مادياً؛ فعقبت على موقف هؤلاء المتخلفين عن الجهاد بأموالهم وأنفسهم: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي خذلهم الله؛ فغفلوا عن وخامة العاقبة؛ وبسبب ذلك لا يعلمون غائلة ما رضوا به وما سيتبعه آجلاً[٢]؛ فالتركيز في هذه الآية على الحدث (طبع) إلى جانب التركيز على الفاعل «الله».

(١) الزمخشري: الكشاف (٤ : ٦٣٧).

(٢) تفسير أبي السعود: (٤ : ٩٢، ٩٣).

أما الآيـة الثانية فقد سبقت بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ * رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧]. فهذه الآية نزلت فيمن خالف أمر الله فتخلف عن المشاركة في الجهاد بالنفس مع القدرة.

فـفي قوله سبحانه ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: إخبار من الله تعالى بحالهم؛ فهم مفطورون على التخلف عن الجهاد؛ لذا لا يتدبرون ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاوة والضلال[1]؛ فالطبع على قلوبهم هو الذي منعهم من الجهاد، فهم مطبوع على قلوبهم، وليس تخلفهم حالة مستحدثة أو حدثاً عابراً، فالتركيز في هذه الآية على الحدث، وفي السابقة على الحدث والفاعل معاً ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

وللخطيب الإسكافي رأي في هاتين الآيتين إذ قال: إن قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ مسبوق بقوله: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ ﴾ فصدرت بفعل علم أن فاعله الله فيما لا يقتضي ذكر الفاعل فحمل عليه الفعل الثاني؛ لأنه معلوم أن «الله» يطبع مثلما يعلم أنه أنزل السورة من باب المشاكلة، فقال: (فطُبع) للعلم بالفاعل من جهة وللمشاكلة اللفظية من جهة ثانية[2].

أما الآية الثانية فجاءت في موضع إشباع وتأكيد وتنبيه وتحذير وتخويف، فسمي الفاعل ليليق هذا الفعل بمكانه[3] وتابعه الرأي الكرماني[1].

---

(١) أبو حيان: النهر الماد (٣: ١٥٥).

(٢) الخطيب الإسكافي: درة التنزيل ص٢٠١.

(٣) الخطيب الإسكافي: درة التنزيل ص٢٠١.

والرأي: أن البناء للمجهول ﴿وَطُبِعَ﴾ قد أكسب الحدث دلالة الدوام والاستمرار، فالطبع موجود على قلوبهم من قبل، وقلوبهم قاتمة مسبقاً ومغلقة عن نور الهدى؛ إذ كان النفاق متجذراً في قلوبهم، فمن المنطق ألا يشاركوا في الجهاد على الرغم من أنهم أغنياء ويمتلكون القدرة، وليس لهم من الأعذار ما يسوغ التخلف من عرج أو عمى أو فقر، وأن الله طبع على قلوبهم لتخلفهم لذا قال: «طُبع» ولم تأت «طبع الله».

ـ تطَّرد ظاهرة حجب الفاعل في القرآن الكريم بصورة لافتة للنظر، فقد وردت الآيتان المتشابهتان التاليتان: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [فاطر: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤].

ورغم أن الآيتين في مخاطبة الرسول ﷺ حين كذبته قريش وأن الهدف منهما تسلية الرسول ﷺ والتخفيف من آلامه ودعوته إلى الصبر، فإن دلالة كل منهما مختلفة عن دلالة الأخرى حسب تغير بنية الفعل «كذَّبَ»: فالأولى: إن يكذبوك تعني أنهم ليسوا أول قوم يكذبون رسلهم فقد كذب أقوام قبلهم على الرغم من مجيء رسلهم بالبينات[٢].

والثانية: إن يكذبوك فلست أول نبي يواجه تكذيب قومه فقد سبقك العديد من الرسل ونالهم من أقوامهم ما نالك من التكذيب؛ فالآية الأولى ركزت على ذكر الفاعل وهم (المكذبون) يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، أما الثانية فقد ركزت على حجب الفاعل لأن القصد «التكذيب» الذي يقع على الرسل

---

(١) الكرماني: البرهان ص٨٩.

(٢) انظر تفسير الآيات أبو حيان: النهر الماد (١: ٦٠٨)، (٤: ١٩٧). الزمخشري: الكشاف (٣: ١٥٨، ٥٨١).

الذين كانوا من قبل محمد ﷺ، ونال النبي ﷺ من قبل مثل ما نالهم. ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فليس المهم مَن الذي كّذب وإنما المهمّ والمعوّل عليه عملية التكذيب الذي وقع على الرسل الذين جاؤوا قبلك، فلست بدعاً من الرسل حتى لا يصيبك ما أصاب مَنْ سبقك.

ـ كما وردت آيتان متتاليتان من سورة التوبة حجب فيهما الفاعل وسدّ مسدّه المفعول به في الآية الأولى وحذف هذا المفعول من الآية الثانية وسدّ مسدّه شبه الجملة من الجار والمجرور قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١].

ومن يتأمل الآيتين يدرك أن الظمأ والنصب والمخمصة (الجوع) ليست أعمالاً، أما أن (يطؤوا موطئاً) أو (ينالوا من عدو) فهي أعمال؛ وبذلك لحق أجر ما ليس بعمل بما هو عمل فقال تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، أي أجر عمل صالح، أما النفقة والسير فتكتب وتخط بذاتها ليجزيهم الله عليها[1]. وهكذا ولّد هذا الفرق في أسلوب التعبير فرقاً في المعنى والدلالة، أيْ أن الفرق بين الأمرين أفرز فرقاً في أسلوب التعبير فجاء الأسلوب الأول: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾، وجاء الثاني: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾. والفرق دقيق بين الأسلوبين يحتاج إلى عميق تفكير وتدبّر يوصلنا إلى التسليم بإعجاز هذا القرآن العظيم.

---

(١) الخطيب الإسكافي: درة التنزيل ص٢٠٥.

٤ـ تعاقب ذكر المفعول وحذفُه:

١ ـ إن مَنْ يتأمل قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ويقارنه بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ [التغابن: ١٦]، يدرك أن ذكر «**الرسول**» في آية آل عمران ضروري ومفصليّ فطاعة الرسول واجبة بعد طاعة الله، وهذه الآية تعزيز وتوكيد لما قبلها في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومِنْ ثم فإن طاعة الرسول واجبة بأمر ربّاني ومناسبةٌ لما قبلها، أما في آية التغابن: فقد ورد سياق السورة ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [التغابن: ٨].

ثم جاءت الآية: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ ﴾ [التغابن: ١٢-١٦].

٢ـ من يتتبع مواضع حذف المفعول به في القرآن الكريم في ضوء المواضع التي ذكر فيها يدرك أثر الحذف والذكر في إثراء الدلالة، وقد تحدث النحاة قديماً عن علاقة الفعل بالفاعل أو المفعول، إلا أن تناولنا لهذه الآيات يتجاوز الجانب النحوي إلى الجوانب الدلالية، لتوحي بارتباط معنى الفعل بالفاعل والمفعول، فإذا حذف المفعول أو لم يذكر كان داعماً على إثبات المعنى للشيء على الإطلاق وعلى الجملة[1]، كما قد

---

(١) عبد القادر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص١١٩.

يوحي بعموم الدلالة النابعة من الفعل لتتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل وتخلص له وتتصرف بجملتها كما هو له[1]. وخلاصة القول في الآيات السابقة أن الطاعة في الآية الأولى خاصة بالله والرسول ﷺ وفي الثانية مطلقة وعامة (الطاعة بشكل عام).

ـ وقد يأتي الفعل المتعدي مستوفياً مفعوله في آية ويحذف المفعول للفعل نفسه في آية أخرى مشابهة.

تأمل قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، فالهاء في محل نصب مفعول به للفعل المتعدي عقل، يعقل.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، جاء الفعل ولم يستوف مفعوله وكأنه لازم تعدى بحرف الجر.

وكثيراً ما ورد الفعل (عقل) في القرآن الكريم بدون أن يستوفي مفعوله، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ومما يلقى الضوء على دلالة الفعل «يعقل» متعدياً بذاته أو متعدياً بحرف الجر أو مكتفياً بالدلالة على الحدث كفعل لازم.. ما ورد في معجم مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني في دلالة «عقل ـ يعقل».

قال: العقل: القوة المتهيئة لقبول العلم ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة «عقل».

---

(١) عبد القادر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص١٣١ .

وإلى الأول أشار ﷺ بقوله: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل».

وإلى الثاني أشار بقوله: «ما كسب أحدٌ شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عَنْ ردى» ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ كما أن كل موضع ذمّ فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول مثل قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وكل موضع رُفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول[1].

ـ وكذلك الفعل «علم» ورد في القرآن في العديد من الآيات متعدياً كقوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

كما تعددت مواضع حذف المفعول بعد الفعل (علم) في آيات أخرى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، فالتركيز في آية المائدة على المعلوم والثانية على العلم عامة. ونعود لنقول إذا كان التركيز على الحدث فلا داعي لذكر المفعول.

ـ من اللافت للنظر موضعان ذُكر فيهما مفعولان للفعل (آتِ) وموضع ثالث لم يذكر المفعول الثاني واكتفى بمفعول واحد مع الفعل ذاته في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

---

(١) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات غريب القرآن باب «عقل».

ويتضح جمال ذكر المفعول وأهميته في موضعيها من الآية وضرورة الحذف وعلته في الموضع الثالث، فالآيتان تتحدثان عن فئتين من الناس: فئة لا تطلب بذكر الله ودعائه إلا عرض الدنيا وفئة تطلب خير الدارين ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾؛ أما الفئة الأولى فإن همها الكسب الدنيوي خاصة دون الالتفات إلى ما هو أبعد؛ فهي تدعو ربها بعطاء دنيوي غير محدد النوع لكنه متعلق في الدنيا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فأَن يعطيها الله في الدنيا فهذا مقياس السعادة وغاية ما تتمناه، وأما الفئة الثانية: فتطلب «الحسنتين» وهي أيضاً تدعو أن يؤتيها الله في الدنيا وقدمت ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ على المطلب ﴿حَسَنَةً﴾ ثم حددت المطلب الأول بلفظة ﴿حَسَنَةً﴾ وعطفت بمطلب آخر ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ وحددته بـ«حسنة»، ولتكرار ذكر «حسنة» دلالة عميقة تبين معالم العطاء الذي تطلبه من حيث النوع والزمان؛ فهذه الفئة تنشد التوفيق في الخير في الدنيا بدون أن تنسى ثواب الآخرة، وهي تدرك أن الله يحاسب عباده على ما يمنحهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]؛ فعقبت بمطلب ثالث: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وختمت الآية بقرار إلـٰهي أن لكل من الفئتين الداعيتين نصيباً من جنس ما دعوا به يعطيهم في الدنيا وفي الآخرة ما يستحقون. قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]. ولكنَّ الحسابَ على العطاء حتميّ.

وتحمل لفظة كسبوا دلالة «الدعاء» إلى جانب دلالة العمل بدليلِ قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] أي: ما عملت[1].

ومن خلال هاتين الآيتين ندرك الغرض من حذف المفعول في الآية الأولى، وهو إثبات الفعل للفاعل (الإيتاء) أما ما «يؤتيهم» فخارج عن الغرض؛ «وفي هذا

---

(١) الزمخشري: الكشاف (١: ٢٤٥، ٢٤٦).

الحذف فائدة جليلة وغرض لا يصح إلا على تركه»[1] فلا تحديد لنوعه ولا زمانه ولا مكانه.

أما الآية الثانية ففيها ذكر المفعول به «حسنة» بقصد النصّ على ما يريدون فوجود المفعول به قيّد نوع الإيتاء وحدّده.

ـ وقد يحذف المفعول به لغرض نفسي حتى لا يثبت المذكور بذكره أو بتكراره في نفس السامع، بينما يذكر المفعول ويكرر ذكره حتى يرغب فيه ويحث عليه، وعلى ذلك يكون الذكر للترغيب والحذف وللتنفير، وهذا ما يفسر حذف المفعول به في قول الله تعالى من سورة المؤمنون: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

فقد احتوت الآيتان على أمر من الله: «أن يدفع المؤمن السيئة بالحسنة» ولا يقابل السيئة بالسيئة، لكن أسلوب التعبير قد اختلف باختلاف ترتيب الألفاظ في الآيتين؛ فجاء كل منهما على نمط خاص ولهدف خاص؛ فقد تقدم الجار والمجرور على المفعول به للأهمية في الآيتين ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

كما ذكر المفعول به «السيئة» وأخّره في الآية الأولى وحذفه في الثانية، وقد عدل الأسلوب القرآني عن لفظة الحسنة إلى التعبير (بالاسم الموصول وضمير الفصل واسم التفضيل)؛ فحملت بنية العبارة من دلالة التوكيد والترغيب ما يفوق دلالة «الحسنة» فلقد عبر عن الحسنة بأسلوب زادها حسناً ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ١٢.

ولم يأت الأسلوب القرآني بعبارة «التي هي أسوأ مقابل التي هي أحسن» بل عدل إلى لفظة ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ فذكرها في الآية الأولى لضرورة تحديد المعنى المراد، وحذفها في الثانية، إذ اكتفى بذكرها في بداية الآية، ولم يشأ أن يذكرها ثانية بينما ذكر ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ وذكر الحسنة في نفس الآية.

ولعل دلالة ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ التي ينهى عنها الشرع، ويحط من مقامها، وينفر منها، مقابل دلالة ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾، أو ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ مما يحث عليه الشرع ويرغب فيه ويرفع من مقامه بدليل قوله: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فصلت: ٣٤] لعل ذلك يعتبر مسوغاً لحذف السيئة وإثبات الحسنة وتكرارها، كما تم ذكره في بداية القول لما لهاتين الكلمتين المتناقضتين من أثر في النفس فالذكر للترغيب والحذف للتنفير وحط ا القيمة.

وقد اجتمعت في الآية الأولى ظاهرة الذكر إلى جانب التقديم الرتبي ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ السيئة، كما اجتمعت في الآية الثانية ظاهرة الحذف إلى جانب التقديم الرتبي مما يجعل لهذا الذكر والتقديم من الروابط النفسية ما يؤهلها لأن تكون أسبق في التصور الذهني من غيرها ﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ كما يقال: التقديم في اللسان تَبَعٌ للتقديم في الجنان. وفي ذلك أيضاً ما فيه من العناية والاهتمام بالمتقدم المذكور[1].

ـ ويطرد حذف المفعول به عندما يكون المراد الاقتصار على إثبات المعاني التي اشتقت منها الأفعال لفاعليها.

وقد اجتمع الذكر والحذف للمفعول في آية واحدة احتوت على الفعل كذب:

قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴾ [الحج: ٤٢].

---

(١) ابن الأثير: المثل السائر (٢: ٩٧)، سعد أبو الرضا: في البنية والدلالة ص١٠٩.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [فاطر: ٢٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]. حُذف المفعول به.

والمتدبر للآيات يدرك أن الخطاب في آية الحج وفاطر موجه إلى الرسول ﷺ حين كذبته جماعة من اليهود، منهم كعب بن الأشرف(١)، وفي الخطاب تسرية عن الرسول ﷺ بأن هؤلاء الذين كذبوه ليس بدعاً في الأمم؛ فقد كذب قوم نوح وعاد وثمود من قبلهم؛ فالمكذبون في بداية الآية جماعة اليهود، والمكذَّب هو الرسول ﷺ قد ذكر صراحة على شكل ضمير متصل للمخاطب، وفي جواب الشرط جاء الفعل مبنياً للمعلوم.

(فالمكذبون) مذكورون معروفون و(المكذبون) أي: (رسلهم) لم يصرح بهم لمعرفتهم من سياق الآية، ولم يذكرهم لا صراحة ولا تلميحاً في آية فاطر، لأن الهدف أن يعرف محمد ﷺ أن «التكذيب» من ديدن الأقوام وأن نتيجة التكذيب الهلاك، إذ قال في آية أخرى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤] لذا ربط العذاب والوعيد بالتكذيب(٢). وقوله في آية (الأعراف: ٩٦): ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

والجدير بالذكر: أن الفعل «كَذَّبَ» في القرآن الكريم جاء على أساليب عدة وحسب تنوع الأسلوب تنوعت الدلالة.

فبالإضافة إلى ما أوضحناه من تعدي الفعل إلى مفعول أو اكتفائه بفاعله فقد

---

(١) أبو حيان: النهر الماد (١: ٦٠٨)، (٤: ١٩٧).

(٢) الزمخشري: الكشاف (٣: ١٥٨).

جاء في سورة يونس وقد تعلق به جار ومجرور ﴿كَذَّبُوا بِهِ﴾ وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤]، كما جاء الفعل «كَذَّبَ» مبنياً للمجهول «كُذِّبَ». قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]. إذ حجب الفاعل مكتفياً بالتركيز على الحدث وهو التكذيب وعلى الرسل الذين وقع عليهم التكذيب.

ـ وقد تصرف الأسلوب القرآني في الفعل «عفا» ومشتقاته على أنحاء متعددة إما مكتفياً بفاعله أو مبنياً للمجهول مع نائب الفاعل أو مقترناً بحرف الجر (عَنْ).

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] و﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥]، [البقرة: ١٧٨].

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، [التغابن: ١٤].

فقد جاء الفعل «عفا» في عدة مواضع من القرآن الكريم بقصد «العفو العام» ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]، [البقرة: ٢٣٧]، [النور: ٢٢]، [البقرة: ١٠٩].

ويجمع بين هذه الآيات هدف إبراز عموم العفو، دون التركيز على المعفو عنهم. وقد ورد في مواضع أخرى الفعل «عفا» مقترناً بحرف الجر «عن» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، و﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥]، و﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ [البقرة: ٥٢]. وبذلك يكون

الهدف العفو عنهم بالإضافة إلى العفو ذاته؛ أي: تخصيص العفو بمعفوٍّ عنه معيّن.

وقد جاء الفعل مبنياً للمجهول في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. فالهدف التركيز على عملية «العفو» دون النظر إلى معفوّ عنه وقد اكتسبت اللفظة دلالة «سُمِح». وبذلك حُجب المفعول.

ـ وورد الفعل «سمع» متعدياً إلى مفعول في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، ومتعدياً بالباء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، ودون أن يستوفي مفعوله في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ومتعدياً باللام ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]. فالتركيز في آية المجادلة على «القول» الصادر عن التي تجادل في زوجها فجاء الفعل «سمع» متعدياً، أما الآية الثانية فهي لم تسمع مباشرة وإنما وصل إليها مكرهن فتعدى الفعل «سمع» بالباء، وأما التركيز في الثالثة فعلى عملية السمع والطاعة عامة، وكذلك الرابعة فلم تحتج إلى مفعول به.

٥ـ تعاقب ذكر الموصوف وحذفه:

يلفت نظر المتدبر لآيات القرآن الكريم استخدام كلمة «الدنيا» دون أن تقترن بالحياة في مئة وخمسة عشر موضعاً بينما وردت كوصف للحياة أي: ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ومقترنة بها في ثمان وستين موضعاً.

كما وردت كلمة «الآخرة» في مئة وخمسة عشر موضعاً أيضاً دون أن تقترن بـ«الدار»، بينما ذكِرت «الآخرة» صفة للدار أي: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ﴾ في تسع مواضع فقط.

وفي القرآن الكريم آيتان متشابهتان نزلتا في المنافقين جاءت كلمة «الدنيا» في الأولى منهما صفة «للحياة» في حين حذفت «الحياة» في الثانية واقتصرت على لفظة «الدنيا» على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

وقد نزلت الآيتان في خطاب النبي ﷺ بشأن المنافقين والمراد بالخطاب: جميع المؤمنين، والملاحظ أن الآية ٥٥ أسبق في النزول من الآية ٨٥[١]، ولابد أن يكون لتجدد النزول شأن في تقرير ما نزل وتأكيده حتى يكون على بال المخاطب (النبي ﷺ)؛ فلا ينساه أو يسهو عنه ولو للحظة؛ فمن يهمه أمر يرجع إليه في أثناء حديثه ليركز عليه. وقد أعيد هذا المعنى للأهمية فيما يجب أن يحذره الرسول ﷺ من أحوال المنافقين وصفاتهم وخباياهم[٢].

وقد تكون الآية الثانية نزلت في حق فريق غير الفريق الأول إلا أن هذه الفئة لا تخرج في مضمونها عن الأولى فهي فئة من المنافقين أيضاً[٣]. فقد سبقت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

---

(١) الواقدي: أسباب النزول، سورة التوبة.

(٢) الزمخشري: الكشاف (٢: ٢٨٩). وتفسير أبي السعود (٤: ٧٤).

(٣) أبو السعود: تفسير أبي السعود (٤: ٩٠).

وسبقت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٨٤].

ومـما يرجح التراخي بين نزول الآيتيـن اختـلاف أسلوب الخطاب في كل منهما فالنهي في الأولى كرر «لا» بعد العطف في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ وفي إعادة «لا» توكيد على النهي عن الإعجاب بأموال الـمنافقين، (ولا أولادهم) على الرغم من إمكانية العطف بدون تكرار «لا» بدليل الآية الثانية ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ﴾.

ولعل ترجيح اعتبار الآية الثانية للتذكير وإعادة التوكيد يعود إلى أن الأسلوب القرآني قد اكتفى بالعطف بدون تكرار «لا» وبدون ذكر لام الإرادة التي قدر النحاة بعدها «أنْ» محذوفة ولم يذكر الحياة واكتفى بكلمة «الدنيا».

ولاقتران لفظة الحياة بالدنيا وجَعْل الدنيا صفة للحياة دلالة مختلفة عن دلالة «الدنيا» منفردة فهي هنا صفة على صيغة فعلى، وهي مؤنث أدنى ومشتقة من الدنو أي: القرب أو من الأدنى بمعنى: الأصغر أو من الأرذل فتقابل بالخير[١]؛ فدلالة «الحياة الدنيا» في الآية الأولى تحمل استغراق المنافقين في هذه الحياة وانشغالهم بها وانصرافهم عما بعدها، فكان تعبير الحياة الدنيا صورة لانصرافهم عن طاعة ربهم وغفلتهم عن الحياة الآخرة، وقد قرن سبحانه وتعالى «الحياة» بـ«الدنيا» ليصور حبهم لهذه الحياة وإيثارهم لها على الآخرة مع دنوّ قيمتها بالقياس إلى الآخرة.

وقد نبه سبحانه نبـيّه وحذّره «والتنبيه للمؤمنين بشكل عام» من أن يفتن بمـا أوتى هؤلاء المنافقون من الأموال والأولاد فإن ما يبهر به الإنسان للوهلة الأولى يحمل

---

(١) الراغب الأصفهاني: انظر معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم باب دنا ص١٧٤.

في ثناياه بوادر هلاك المنافقين فإنما أعطاهم ما أعطاهم تعذيباً لهم؛ فقد تكلفوا في جمع الأموال، وتجشموا في اكتسابها فألهاهم المال والولد عن النظر في العاقبة؛ إلى درجة أن إنفاقهم في أبواب الخير كان عن كراهية؛ وستظل هذه حالهم حتى تزهق أنفسهم وهم كافرون.

أما دلالة «الدنيا» منفردة فهي تقابل الآخرة في العديد من الآيات القرآنية، مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

ودلالة الآخرة هي الحياة الثانية التي سيحياها الإنسان بعد هذه الدنيا وبذا يكون كلٌّ من الدنيا والآخرة علمين على شيئين متقابلين، لفترتين مختلفتين، منفصلة كل منهما عن الأخرى.

وبالعودة إلى الآية (٨٤) نتبين أنها في نهي النبي ﷺ عن الصلاة على من مات أو يموت من المنافقين وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]؛ فالآية تتحدث عن موت فعلي وقرار بشأن مَنْ مات منهم؛ فقد انتهت علاقته بالدنيا وزهقت نفسه وهو كافر؛ فلا حاجة إلى ذكر «الحياة» الدنيا لأن ما ينتظره بعد الموت في الآخرة بات قريباً.

وقد لفت نظر الدكتور «عودة أبو عودة» اطراد استخدام «الحياة الدنيا» و«الدار الآخرة» في القرآن الكريم، وعلل هذا الاقتران المطرد بأن كلمة الحياة مرحلة مؤقتة مصيرها الفناء، إلا أن الآخرة فيها الثبات والدوام والاستقرار والخلود؛ فهي الدار وليست الحياة الآخرة وخلص إلى أن الدنيا لم تقترن بالدار في القرآن الكريم مثلما لم تقترن الآخرة بالحياة[1].

---

(١) عودة أبو عودة: شواهد في الإعجاز القرآني ص١٢١-١٢٤.

ومما يلفت النظر أنه قد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات أضيفت فيها كلمة «الدار» إلى كلمة عقبى أو عاقبة وكان المقصود في الدار: «الدنيا». قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [القصص: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

فقد فسرت هذه الآيات على أن المراد بالدار «الدنيا» وعاقبتها وعقباها: «أن يختم للعبد بالرحمة، والرضوان، وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت، فإن قلت العاقبة المحمودة أو المذمومة فكلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار قلت: وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً[١] للآخرة وأراد بعباده أن يعملوا فيها الخير[٢].

كذلك ورد في معجم الراغب الأصفهاني في «الدار» قوله: تسمى البلدة داراً، والصقع داراً، والدنيا داراً، والدار الدنيا داراً، ودار الآخرة وأورد الآيتين ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، وقد ورد تعبير الدار الدنيا في الشعر في البيتين التاليين:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها ... شرك الردى وقرارة الأقذار

دار متى ما أضحكت في يومها ... أبكت غدا تبّاً لها من دار

وعلى هذا فقد نفهم من قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا

---

(١) المقصود المجاز: الطريق أو الوصول.

(٢) الزمخشري: الكشاف (٣: ٣٩٧).

تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧] أي: الدار الدنيا مما يجعلنا نميل إلى إمكانية وصف الدنيا بالدار كما جازت للآخرة والله أعلم.

ـ ووردت كلمة الدنيا مسبوقة باسم الإشارة «هذه» في آية بينما حذفت «الدنيا» واكتفى باسم الإشارة «هذه» للدلالة عليها على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [هود: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [هود: ٩٩].

وعلى الرغم من أن الآيتين قد نزلتا في قومين مختلفين، إلا أن العقاب نفسه وقع عليهما، فالآية (٦٠) يعود الضمير فيها على قوم هود في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود: ٥٩].

أما الآية (٩٩) فقد نزلت في قوم موسى؛ أي: فرعون وأتباعه. ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود: ٩٦-٩٧].

ويمكن القول بأن السبب في حذف الصفة أو (البدل) في الآية الثانية راجع إلى دلالة السياق عليه؛ هذا السياق المتمثل في المعنى وفي المعطوف (ويوم القيامة) كما أنه سبق التصريح بها في آية (٦٠) فبإمكان المرء أن يقدرها بالقياس مع تلك الآية.

ولعل بإمكان المرء أن يذهب إلى أن حذف كلمة الدنيا والاكتفاء بالإشارة إليها في الآية المتعلقة بفرعون وأتباعه قُصِد من ورائها التقليل من شأن الدنيا التي تمسك بها فرعون بغروره فأطاع قومُه أمره وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود: ٩٧]، وهذا يعني أن اللعنة تحل على هؤلاء؛ وفي اكتفاء الأسلوب القرآني باسم الإشارة (هذه) ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً ﴾ [هود: ٩٩] ليزداد هذا الموقع تدنياً فبتمسكهم

بـ«هذه» أي بـ«الدنيا» التي لم تذكرها الآية واكتُفي بالإشارة إليها لازمتهم اللعنة وأتبعوها يوم القيامة وما ذلك إلا لأنهم عصوا الله ونبيه وأطاعوا فرعون[١].

ـ ومن الشواهد التي تعاقب فيها الذكر والحذف في باب الموصوف قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٠].

ويكمن الفرق بين الآيتين أن ذكر الموصوف متبوع بالصفة في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وحذف الموصوف وذكر الصفة في قوله تعالى: «عمل صالحاً»، وإن ذكر الصفة والموصوف هو للاعتناء بهذا العمل والنص على أنه مغاير للأعمال السابقة الواردة في سياق الآية التي جاءت بصيغة النفي[٢] لتخبر عن صفات عباد الرحمن في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

أما الآية ٦٠ من سورة مريم فجاءت لاستثناء من تاب وآمن وعمل صالحاً مغايراً لأعمال فئة مذكورة في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

والمقصود بـ«الخلف»: عقب السوء الذين خلفوا المقصودين بالضمير في قوله:

---

(١) الشوكاني: فتح القدير (٢: ٦٤٤).

(٢) أبو حيان: النهر الماد (٤: ٣١٦).

(من بعدهم) أي من لدن زكريا إلى آخر الأنبياء، واتباع الشهوات هنا عام في كل ما يُشتَهى فيشغل عن الصلاة وذكر الله.

وجدير بالاحتفاء أن ذكر الموصوف «عملاً» وذكر صفته «صالحاً» وارد في اللغة، كما أن حذف هذا الموصوف والاقتصار على ذكر صفته أمر مألوف في اللغة والقرآن الكريم ويمكن لنا أن نستنتج أن الفرق في الدلالة بين ذكر الموصوف وحذفه في الآيتين يتلخص في أن العمل في الآية ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] يدل على عمل موصوف بالصلاح ليغاير الأعمال المحصورة في الشرك وقتل النفس والزنى لتحل محلها، لكنه في الآية الثانية ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ رفع إلى مرتبة الصلاح؛ فكأنه الصلاح نفسه، وذلك أبلغ وأدل على المعنى المراد، خاصة أن المستثنى منه (خلف) شامل لعموم ما يشتهى فيناسب المستثنى (من عمل صالحاً) إذ تتضمن لفظة ﴿صَٰلِحًا﴾ الأعمال المادية المحسوسة وأشياء أخرى معنوية، أو حتى ما تختزن النيّة.

وقد يكون ذكر «عملاً» في سورة الفرقان عائداً إلى أنّ من شروط التوبة أن يصلح المرء ما أفسده؛ ويكون ذلك بعمل صالح بدل المعصية التي ارتكبها، لذا ذكر العمل لتتم التوبة، أما آية (مريم) فالذنوب عامة شاملة (شهوات) أدت إلى ضياع الصلاة فحذف العمل وبقيت صفته «صالحاً» حتى لا يقصد منه التعيين بل مطلق العمل المادي والمعنوي؛ لأنهم بحاجة إلى صلاح عام وتوبة شاملة، لا توبة عن أعمالٍ مخصوصة كما في سورة الفرقان.

٦ـ تعاقب ذكر «المؤكد المعنوي» وحذفُه:

ورد في القرآن الكريم آيتان متشابهتان إلا أن آية زادت عن الأخرى بلفظ توكيد معنويّ بينما خلت الآية الثانية من هذا التوكيد على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

أما الهدف من وجود التوكيد المعنوي فقد ذكره النحاة بأنه يأتي لإفادة معنى (جميعه) كما أنّ من الأصول المشهورة في الدراسات البلاغية أن كل زيادة في المبنى لها زيادة في المعنى.

ونجد لزاماً علينا أن نتناول الآيتين في ضوء ما سبق نزوله قبل الآخر والظروف التي أحاطت بنزول كل آية لنتبين أهمية التوكيد (كلّه) وضرورته في موضعه دون الموضع الآخر بالإضافة إلى أسباب النزول والقرائن التاريخية والاجتماعية والنفسية.

فإذا علمنا أن الآية (١٩٠) من سورة البقرة ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ هي أول آية نزلت في القتال في المدينة[١]، وكان القتال مشروطاً بمن يقاتل المسلمين فقط، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] فالمسلمون مأمورون بمناصبة القتال لمن يناصبهم فقط من أهل مكة؛ إذا علمنا ذلك أدركنا أن القتال هنا من أجل رد العدوان، والدفاع عن النفس وحتى لا تحصل فتنة ولن يفنى الشرك ولن يكون الدين كله لله بقتال فئة من المشركين في بقعة محددة (مشركي مكة)، دون غيرهم من المشركين في شتى بقاع الأرض، وقد تدرج الأمر بالقتال في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، فالقتال متعلق بقتال المسلمين المشركين جميعاً كما يقاتلونهم جميعاً، وهذا يوضح أهمية لفظة «كله» في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]

---

(١) أبو حيان: النهر الماد (١: ١٦٨، ٢٦٩).

حيث يضمحل عنهم كل دين باطل، ويبقى دين الإسلام وحده فإذا تراجع الكفار عن الكفر، وأسلموا فإن الله يفتح لهم باب التوبة فإذا لم يدخلوا في الإسلام قوتلوا[١]؛ فالأمر في سورة البقرة خاص بقتال مشركي مكة والأمر في الأنفال معنيّ (بقتال المشركين كافة) فهو أمر بإبطال الكفر في كل مكان (ويكون الدين كله لله)[٢].

والجدير بالذكر أن مجموعة من القرائن قد تضافرت لتوضيح المعنى المراد؛ وهذا ما يسمى قرينة السياق؛ إذ إن القرينة النحوية لا تكفي لتوضيح المعنى المقصود، بل تتجاوزها إلى أمور دلالية من المقام المحيط بالآيتين والظروف الحسية والنفسية المحيطة بهما، والمحيط الاجتماعي؛ وهكذا تمتد قرينة السياق هنا على مساحة واسعة من الركائز، مما يجعلها كبرى القرائن؛ فإن زيادة كلمة نحوياً تمدناً بحرفية النص بينما قرائن السياق تجعلنا نتغلغل إلى أعماق النص ونعتد بروحه فهي التي حددت لنا المعنى المقصود في الآية الثانية دون الأولى.

٧ـ تعاقب ذكر الاسم الموصول المعطوف وحذفه:

تأمل الآيات التالية التي ذكر فيها اسم الموصول «ما» مرتين وفي آية متشابهة أخرى لم يذكر إلا مرة واحدة قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١] و[الصف: ١].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ٢١٢، ٢١٣، ٢٦٠).

(٢) الخطيب الإسكافي: درة التأويل ص٤٦، ٤٧. الكرماني: البرهان ص٣٧.

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: ٩].

وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١].

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٢٤].

والمتدبر للآيات يدرك أن «ما» الثانية وردت في أسلوب العطف بحرف الواو، والمعروف عند النحاة والبلاغيين أن الحالة التي تقتضي العطف هي الاختصار[1] كما أن الواو تدل على الجمع المطلق وتأتي لتفصيل المسند أو المسند إليه مع اختصار.

أما مفهوم «العطف» فهو «الرجوع إلى الخلف» أي: أن يرجع الاسم التابع على المتبوع بدلاً من أنْ يسير في الحُكم إلى الأمام[2] فمثلاً: قالوا: مرض سعيد وأخوه في سفر. إذا كانت الواو عطفاً فإن الذي مرض هو سعيد وأخوه أثناء السفر أما إن كانت الواو استئنافية أو حالية فإن الحركة الذهنية تنطلق في خط مستقيم لدى المتكلم والمخاطب على السواء فلا تمثّل عطفاً ولا انعطافاً إلى الخلف في الحكم.

ويترتب على وجود حرف العطف اختصار بمعنى أنه لا داعي لتكرار الـحُكم، فالمعطوف تابع من حيث الحكم اللفظي.

وقد يأتي العطف بدون اختصار فيتكرر الحكم لهدف وظيفي خالص.

وبتدبر الآيات السابقة نلاحظ ذكر المعطوف وهو الاسم الموصول «ما» في آيات (النجم: ٣١)، (الحشر: ١) (الصف: ١)، (الجمعة: ١) و(الحجرات: ١٦)، وحذفه للاختصار في الآيات (لقمان: ٢٦) و(الحديد: ١) و(الحشر: ٢٤) و(التغابن: ٤) ولا نعني بالتكرار تكرار ما أن تكون حشواً بالنظر إلى الآية التي قبلها، وإنما نعني أن النحاة

---

(١) السكاكي: مفتاح العلوم ص١٠٧.

(٢) عفت الشرقاوي: بلاغة العطف في القرآن الكريم ص٥٨، ص٥٩.

حددوا لجملة العطف أركاناً يتم بها هذا الأسلوب، وبذكر «ما» مرة ثانية تتخطى الجملة المعنى الوظيفي للعطف لتسلك مسالك أسلوبية أخرى، لا تتحقق إلا بوجود «ما» إذ إنها تضيف إلى المعنى من التوكيد بواسطة ذكرها ما لا يخفى على من يتأمل الآيات المتشابهة؛ فقد أعاد سبحانه ذكر «ما» تأكيداً لوقوع المسند. فالمراد من قوله (لله ما في السموات وما في الأرض)، أن لله ما في السماوات، ولله ما في الأرض ويسبح له ما في السموات مثلما يسبح له ما في الأرض، وهو يعلم ما في السموات، ويعلم ما في الأرض وذكر «ما» تنبيهٌ للسامع بإعادة ذكر الاسم الموصول وفي التكرير: ما يشعر بكمال علمه، وكمال ملكيته، وكمال انصياع المخلوقات في السموات وفي الأرض لأوامره، وتمام تسبيح ما في السموات والأرض دون أن يتخلف أحد عن هذا الفعل.

وغني عن التنويه أن ما قيل في الاسم الموصول «ما» يقال في الاسم الموصول «مَنْ» في الذكر والحذف. انظر الآية (٤١) من سورة النور ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]؛ وهذا مع فارق الدلالة بين «ما» التي تأتي غالباً لغير العاقل و«من» التي تأتي غالباً للعاقل، وتتكامل الدلالة في الآيات جميعاً لتدل على انصياع «ما» و«من» في السموات والأرض لله، مع شمولية الحكم الصادر على «من» و«ما» في السموات والأرض بتمامه وكماله، دون أن يتخلف منهم أحد.

وتجدر الإشارة إلى أنه قد تأتي «مَنْ» للدلالة على غير العاقل، و«ما» للدلالة على العاقل بدليل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ [النور: ٤٥].

وفي ذلك توسّع في استعمال الاسم الموصول «مَنْ» و«ما» وهذا وارد في مواضع كثيرة في القرآن الكريم حيث يتناوبان ويتعاقبان في الاستعمال للعاقل وغير العاقل.

وبتدبر الآيات السابقة ندرك أن العطف جاء على الأصل في قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بينما ورد العطف دون اختصار بهدف التوكيد وينطبق القول على العطف بتكرار مَنْ أو بدون تكرار.

٨ ـ تعاقب ذكر المعطوف وحذفه:

تطالعنا آيتان متشابهتان ذكر في إحداها مفعول به ومعطوف على هذا المفعول واقتصرت الآية الأخرى على ذكر المفعول به دون أن يعطف عليه على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

ولكي نقف على سرِّ الذكر والحذف للمعطوف (ورسوله) نجد لزاماً أن نستعين بمناسبة نزول الآيات، فسياق الآيات في سورة الأنفال يصور معركة بدر، وما أصاب الكافرين من الضرب والقتل والعقاب العاجل بسبب عنادهم وعدم إيمانهم بالدعوة الإسلامية وإصرارهم[١] على القتال ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ فذلك العقاب وقع عليهم بسبب مخاصمتهم

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ١٩٨)، (٤: ٤٨٧)، أبو السعود: تفسير أبي السعود (٤: ١١).

ومعاداتهم للرسول ﷺ، واعتبار أنفسهم خصوماً له؛ مما يترتب عليه أن يكونوا في حال مخاصمة الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]؛ فهم في مواجهة حقيقية وحرب ضد الرسول حامل الدعوة الإلـٰهية؛ لأنهم يحقدون عليه؛ لذا حاربوه وكأنهم يحاربون الله؛ فاستحقوا العقاب على هذه العداوة المزدوجة لله ولرسوله.

أما آية الحشر فهي في أهل الكتاب وجلائهم عقاباً[1] لهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾؛ ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: ٢-٣].

وهذا الإجلاء عقاب لهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ فهم أيضاً في مواجهة حقيقية للرسول ﷺ، إلا أنها عداوة من نوع آخر تختلف عن عداوة المشركين؛ فاليهود هم أهل كتاب، ويعلمون بدعوة محمد ﷺ من التوراة، وأن رسالته الحق، وهي من عند الله، لكنهم كتموا ما علَموا وخاصموه؛ وبذا تكون حربهم الخاسرة أمام الله بمخالفة أوامره.

فالعداوة الحقيقية بين الله سبحانه واليهود، وسببها كتمانهم أمر الرسالة المحمدية؛ لذا كان عذابهم شديداً، وعقابهم أليماً؛ لأنها معركة خاسرة بالنسبة لهم؛ لأنهم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. وبذلك يتضح ضرورة ذكر المعطوف في آية الأنفال لغاية دلالية لا تستدعي وجودها في آية الحشر.

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٤: ٤٨٧)، أبو السعود (٨: ٢٢٦).

٩ـ تعاقب ذكر «العَلَم» وحذفُه:

وردت في القرآن الكريم آيتان متشابهتان ذكر في إحداهما اسم «مريم بنت عمران» صريحاً موصوفاً بالاسم الموصول، وحذف هذا الاسم من الآية الثانية المشابهة واكتفي باسم الموصول:

قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فإذا تأملنا آية التحريم وجدنا العَلَم «مريم ابنت عمران» مصرحاً به وموصوفاً باسم موصول وصلته ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

بينما حذف العلم مريم واكتفى بالاسم الموصول وصلته دون ذكر العَلَم.

وبالعودة إلى سياق الآيتين، ندرك أن الآية الأولى (التحريم ١٢) جاءت في سياق ذكر مؤمنات بأعيانهنّ ليكُنّ مضرب المثل من الله سبحانه:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]. فهي امرأة مؤمنة وقفت في وجه زوجها الطاغية مستعينة بالله طامعة في بيت في الجنة وبالنجاة من فرعون والقوم الظالمين.

والثانية (مريم ابنة عمران) وقد أبرزت الآية الصفة التي استحقت من أجلها أن تكون من القانتين؛ وهي إحصان فرجها وتصديقها بكلمات ربها، فجاء الكلام

عن مريم موصوفاً بالاسم الموصول، و(مريم) اسم معطوف على «امرأةَ نوح» منصوب، «وابنةَ» بدل منصوب مضاف و«عمرانَ» مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف.

أما ما ورد في سور الأنبياء ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ..﴾ فقد جاء في سياق ذكر عدد من أنبياء الله تعالى أرسلوا إلى أقوامهم، وقد تميز كل نبي في معجزاته التي أرسل بها؛ فبدأت الآيات بذكر إبراهيم ومعجزاته، وموسى، وهارون[١]، ولوط[٢]، ونوح[٣]، وداود وسليمان[٤]، وأيوب[٥]، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون[٦]، وزكريا ويحيى[٧]، ومعجزاتهم، واختتم ذكر هؤلاء بعيسى عليه السلام الذي ولد من غير أب؛ فحرصت الآيات على إبراز الصفة التي تُجَسِّمُ معجزته وتبرئ أمه من الفاحشة؛ وذلك بإحصان فرجها، والحفاظ على عفافها، دون التركيز على ذكر اسمها؛ فهي معجزة بصفتها ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ لا بكونها مريم ابنة عمران، فجاء التعبير عن ذلك بالاسم الموصول المبني في محل نصب أو رفع يفيد العموم والإبهام؛ وهو ما أوضحته صلة الموصول حيث ختمت الآية بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] ولعل هذا المثال يعتبر توضيحاً لما تقدم قوله؛ غالباً ما تكون صلة الموصول هي التي عليها مدار الحكم.

---

(١) الأنبياء ٤٨، ٧٤.

(٢) الأنبياء ٧٣، ٧٤.

(٣) الأنبياء ٧٦، ٧٧.

(٤) الأنبياء ٧٨، ٨٢.

(٥) الأنبياء ٨٣، ٨٤.

(٦) الأنبياء ٨٥، ٨٦.

(٧) الأنبياء ٨٩، ٩٠.

وهكذا سخر الأسلوب القرآني الاسم الموصول لتوليد معنى جعلنا نستغني به عن ذكر العلَم بعينه؛ إذ لا يعنيه العَلم، بل صفته أو خبره الذي يتجسم من خلال الموصول وصلته(١).

ـ ومن الآيات التي ورد فيها الاسم الموصول وكانت صلتـه مدار الحكم وممهدة للخبر ودالة عليه حتى وصلت إلى درجة دلالة القصر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٢].

وقد جاء قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٧] في سياق قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

والمستعرض للآيتين يدرك أن اسم الإشارة (أولئك) جاء موصوفاً باسم موصول (الذين) في آل عمران ٢٢ بينما ورد اسم الإشارة أولئك وقد حذف اسم الموصول فأصبحت الجملة ﴿حَبِطَتۡ ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ بينما هي في الآية الأولى صلة موصول لا محل لها من الإعراب.

---

(١) الشعراوي: قصص القرآن الكريم، الكتاب الثاني ص٢١٩.

وبالعودة إلى سياق ما ورد في سورة البقرة وهو: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]. بالعودة إلى ذلك ـ يتبين لنا أن المبتدأ (المسند إليه اسم شرط يدل على العموم) وأن جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ خبر المبتدأ[١]؛ فقد أخبر عمن يرتد عن دينه بإحباط أعمالهم.

أما ما ورد في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران ٢١]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢].

فقد جاء اسم إن اسماً موصولاً[٢] (الذين)، وعلى الرغم من أن الاسم الموصول هنا يدل على العموم في كل من كفر بآيات الله وقتل النبيين بغير حق؛ فإن المقصود أصلاً أناس من بني إسرائيل، جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله؛ فقتلوهم؛ ففيهم نزلت الآية.

والهدف من هذه الآية أن يوعظ بها من لـمّا يقتل بعد ممن قاتل النبي ﷺ وأصحابه وهموا بقتلهم، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. وجملة صلة الموصول هي التي أوضحت المقصودين وحددتهم؛ أما خبر «إن» فقد جاء مقترناً بالفاء لتضمن جملة إن مع الاسم الموصول معنى الشرط؛ وهذه الفاء تقوي المعنى وتؤكّده.

---

(١) العكبري: إملاء ما من به الرحمن (٢: ٥٤).

(٢) المصدر نفسه (٤: ٤٦، ٤٧)، سيبويه: الكتاب (١: ٥٤٦).

ولذكر الاسم الموصول في آية آل عمران، دون غيرها مما مر في البقرة أهمية كبيرة أكسبتها دلالة كأنها القصر؛ فهم المخصوصون بهذا العقاب دون غيرهم، وكأن الحكم قد صدر عليهم وحدهم؛ بينما في الموضع الثاني اسم الإشارة بدون «الذين» جعل الحكم لمجرد الإخبار بالجزاء على عمل محدد هو الارتداد، أما من ورد ذكرهم في سورة (آل عمران)؛ فقد ارتكبوا من الفظائع والأعمال البشعة ما جعلهم يستحقون مثل هذا العقاب.

وهكذا ندرك أن الإخبار بالاسم الموصول (الذين) أدّى معنى زائداً على الإخبار العادي؛ فأفاد الشرط؛ إذ شربت الآية معنى الشرط من جهة، ومعنى القصر من جهة ثانية[1].

والجدير بالذكر: أن الإخبار بالاسم الموصول ظاهرة مطردة في القرآن الكريم حيث يكون المبتدأ اسم الإشارة «أولئك» والخبر «الذين» مع صلته، كما ورد في الآيات التالية:

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾

وانظر الآيات: [البقرة: ١٦، ٨٦، ١٧٥، ١٧٧]، [آل عمران: ٢٢]، [النساء: ٥٢، ٦٣]، [المائدة: ٤١]، [الأنعام: ٧٠، ٨٩، ٩٠]، [الأعراف: ٩]، [هود: ١٦، ٢١]، [الرعد: ٥]، [النحل: ١٠٨]، [الإسراء: ٥٧]، [الكهف: ١٠٥]، [مريم: ٥٨]، [المؤمنون: ١٠، ١٠٣]، [النمل: ٥]، [الزمر: ١٨]، [الأحقاف: ١٦، ١٨]، [محمد: ٢٣]، [الحجرات: ٣]. فقد احتوت كل منها على اسم إشارة متبوعاً باسم موصول.

ومن اللافت للنظر: أن المواضع التي احتوت على اسم الإشارة «أولئك» بلغت ٢٠٤ مواضع: منها ثمانية وعشرون موضعاً ذكر بعدها الاسم الموصول (الذين وصلته)، وكان الهدف منها إشراب الآية دلالة القصر، كما أشرنا.

---

(١) تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص٣٦١.

وقد يعكس موضع «أولئك» والاسم الموصول ليصبح الاسم الموصول هو المبتدأ وأولئك وخبرها جملة في موضع خبر ويكون الهدف نفسه إشراب الآية دلالة القصر أيضاً، ومن الأمثلة على ذلك:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩، ٨٢، ١٦٠]، وانظر: [المائدة: ١٠]، [الأنفال: ٧٢، ٧٤]، [الأنبياء: ١٠١]، [الحج: ٥١، ٥٧]، [الفرقان: ٣٤]، [العنكبوت: ٥٢]، [النور: ٥٥]، [المؤمنون: ٧، ١٠٢]، [التوبة: ٢٣]، [الأعراف: ١٧٨].

١٠ـ تعاقب ذكر النكرة والمعرّف بالأداة:

تطالعنا في كتاب الله العزيز آيات عديدة تعاقب فيها ذكر «أل» مع الاسم أو المصدر أو الصفة.. إلخ وحذفه، وحين نتدبر هذه الآيات نجد أن ذكر «أل» في موضع يكون لداع وظيفي وأن حذفه يأتي لداع وظيفي آخر مختلف.

ويترتب على ذلك ظاهرة تعدد المعاني الوظيفية للمبنى الواحد من ذلك أن «أل» تدل على معنى معين تارة، وعلى معنى آخر تارة أخرى؛ فتكسب اللفظة التي اقترنت بها دلالة مختلفة عنها إذا حذفت، لكن هذه الدلالات لا تـتعين أو تتكشف إلا من خلال ما يحيط بها من السياق.

وعلى الرغم من أن الأصل في اللفظة التنكير، فإن البلاغيـين يعتبرون هذا التنكير من طرق تسخير اللفظ لتوكيد المعنى، حيث يمكن تعريفه؛ للوصول إلى إفهام التعميم وما يتولد عنه من تهويل أو تحقير أو تعظيم حسب موقع الكلمة من سياقها اللغوي والاجتماعي.

كما اعتبروا تعريف اللفظ وسيلة من وسائل تسخيره لتوكيد المعنى حيث يمكن تنكيره، فقالوا: «تعريف النكرة» بأل قد يفيد الجنس أو يفيد العهد، ولكن هذه الإفادة بحكم الوضع لغوية «استصحابية» لا عدولية أسلوبية؛ لأن بالأسلوب العدولي قد يحمل المتكلم أداة التعريف من المعنى ما ليس لها بأصل الوضع[(١)].

ومن الأمثلة على تعاقب ذكر أل وحذفها مع الاسم:

أ ـ قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ [البقرة: ١٢٦].

ب ـ وقد ذكرت آية فيها كلمة «الكذب» معرفة بأل في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [الصف: ٧].

ووردت آيات متشابهات جاءت الكلمة بدون أل، «كذبا» في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١، ٩٣، ١٤٤]، [الأعراف: ٣٧]، [يونس: ١٧]، [هود: ١٨]، [الكهف: ١٥]، [العنكبوت: ٦٨].

ج ـ كما وردت لفظة «الحق» في الآية ٦١ من البقرة معرفة بـ«أل»، في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١].

بينما جاءت كلمة «حق» بدون «أل» في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: ١١٢].

د ـ ووردت لفظة «المعروف» معرفة بـ«أل» مرة: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، مقترنة بالباء في آية، وبدون «أل» ومقترنة بـ«من» ﴿مِن مَّعۡرُوفٖ﴾ في آية أخرى.

---

(١) تمام حسان: البيان في روائع القرآن، ص٢٧.

قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

ومن يتدبر مجموعة الآيات التي تعاقب فيها ذكر «أل» وحذفها، يدرك أن قضية التعريف والتنكير فيها جدلية بلاغية يمكن للمبدع أن يوظفها؛ لتعميق الدلالة، والكشف عن معنى البنية، وصولاً إلى مستويات اللغة المتعددة.

فإذا كانت الألفاظ: «البلد»، و«الكذب»، و«الحق»، و«المعروف» قد اكتسبت بدخول «أل» عليها تحديداً للدلالة وبياناً لدقة ما ترمز إليه هذه الألفاظ بتشكيلاتها المختلفة، فإن التنكير في الألفاظ: «بلداً»، «كذباً»، «حق» و«معروف» قد منح البنية مقدرة على العطاء المتجدد المتواصل الذي يثري الدلالة متجاوزاً المتعارف عليه.

وردت لفظة «بلداً» نكرة في موضع ومعرفة في موضع آخر، وقد لفت نظر المفسرين والنحاة هذا التعاقب في ذكر «أل» وحذفها، فأشاروا إلى الفرق بين دلالة اللفظة «البلد» «وبلداً» في الآيتين المتشابهتين وإعرابها.

فدخول «أل التعريف» على «البلد» تجعلها بدلاً أو صفة للمفعول الأول اسم الإشارة[١]، وآمناً مفعولاً ثانياً، وعندما خلت من «أل التعريف» (بلداً) أصبحت مفعولاً ثانياً و«آمناً» صفة للمفعول الثاني[٢].

لكنهم بهذا الإعراب لا يكشفون سر تعريف البلد في آية وتنكيرها في الآية

---

(١) العكبري: إملاء ما من به الرحمن (١: ٣٦). السيوطي: معترك الأقران: القسم الأول ص٨٩.
(٢) المصدر نفسه (٢: ٣٥).

الثانية المشابهة لها، ونحاول أن نصل إلى علة التعريف والتنكير فيهما، ولتعميق الدلالة نلجأ إلى ربط كل من الآيتين بسياقه.

أ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

أما في سورة إبراهيم فالسياق على النحو التالي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وسياق الآية في البقرة يوحي بأن إبراهيم عليه السلام لم يبن أصلاً قواعد البيت بل رفعها؛ لأنها كانت موجودة أصلاً بدليل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ وكذلك قوله: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] قبل أن يبنيه؛ فالبيت موجود أصلاً؛ وبدليل آخر: أن المؤمنين في الأرض قبل إبراهيم لا بد لهم من قبلة، فإن لم يكن البيت موجوداً فأين قبلتهم؟

و(بلداً) عندما جاء نكرة في دعاء إبراهيم عليه السلام، دلّ على أنه عليه السلام سأل الله تعالى «البلدية» لهذا المكان بدليل قوله: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾. إذ لم يكن بلداً، فسأل الله تعالى أمرين:

١ـ أن يصبح هذا المكان الوادي غير ذي الزرع بلداً.

أن يكون «بلداً» آمناً، وأمّا قوله هذا «البلد» معرفاً في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾،

فقد كان دعاءً ثانياً من إبراهيم، حيث تحقق الشطر الأول، من دعوته إذ أصبح بلداً ثم يدعو ثانية طالباً «**الأمن**» لهذا البلد الذي لم يكن بلداً.

وتحمل كتب التفسير وقصص القرآن الكريم تفصيلات عن إسكان إبراهيم لزوجه هاجر وابنها مكة، وخروجه إلى فلسطين، وسؤال زوجته له باستغراب: إلى من تتركنا؟ وقولها متسائلة: آلله أمرك؟ وحين أجاب بـ«نعم» قالت: إذن، لن يضيعنا[1].

ولعلنا نقدّر شعور والدٍ يُسكن ذريته ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؛ فيرفع يديه مبتهلاً إلى الله أن يجعل هذه الصحراء بلداً، ويجعل «أفئـدة من الناس تهوي إليهم» ليعمروه فيصير بلداً. أما الآيات في سورة إبراهيم فتدل على أن إبراهيم يدعو ربه أن يحفظ بلداً معروفاً عامراً بأهله؛ مما يوحي بأن هذا البلد الذي لم يكن بلداً قد صار بلداً، وازداد عدد ساكنيه وبعد عودة إبراهيم ثانية إلى مكة، أدرك أن هذا البلد أصبح مليئاً بالأصنام؛ فدعا دعوته الثانية بأن يصبح آمناً بعد أن استجاب الله لدعوته الأولى؛ فأصبح متمتعاً بصفة البلدية، لكن ينقصه الأمن، فالدعاء في الآية الأولى: أن يصبح بلداً، وفي الثانية: أن يصبح البلد آمناً بعد أن صار بلداً.

ونخلص إلى أن الآية التي ورد فيها لفظ «بلداً» منكراً كانت أسبق في النزول من الآية التي عُرّف فيها ذلك اللفظ؛ «البلد» ولهذا معنى جليل؛ إذ أراد بالاستعمال الأول «بلداً» أن تتحقق أمنيته في نشوء بلد مزدهر لم يكن بلداً، حيث ترك زوجه وولده، وأراد بالاستعمال الثاني أن يضفي على ذلك البلد صفة الأمن؛ فاستخدمه معرفاً بـ«أل العهدية». فهو الآن بلد لكنه غير آمن.

ب ـ أما الآيات التي وردت فيها لفظة «الكذب» مقترنة بـ«أل» فقد جاءت في

---

(١) انظر: النجار: قصص الأنبياء ص١٠٣، ١٠٤.

السياق التالي قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]. ثمّ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧]. ورغم أن الضمير في ﴿جَآءَهُم﴾: يحتمل أن يكون لبني إسرائيل والمقصود بالحق: عيسى، ويحتمل أن يكون محمداً ومن سمعوا بدعوته أو عرضها عليهم، فإنّ ذلك لا يغير من دلالة الكذب المقترنة بأل شيئاً.

ورد في تفسير الآيات ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾؛ أي مَنْ أظلم ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام؛ فيجعل مكان إجابته افتراء الكذب بقوله للرسول: «هذا سحر»؛ لأن السحر هو الكذب والتمويه.

وقد أوضحت الآية التالية هدفهم من هذا «الكذب»: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وعلى ذلك فقد حدّدت أل دلالة «الكذب» أي الذي لا كذب بعده وهو كذب مخصوص بعينه؛ هو إنكارهم مجيء مَنْ بشّرهم به عيسى عليه السلام، أي محمد ﷺ.

وإذا تأملنا سياق كل آية من الآيات التي وردت فيها لفظة «كذباً» نكرة، فإنها تشير إلى عموم الكذب الذي يشمل إنكار نزول القرآن الكريم من السماء أو غيره من أنواع الكذب، فإن أي كذب آخر يكون مشمولاً ضمن لفظة «كذباً».

مثل قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقالوا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ونسبوا إليه تحريم البحيرة والسائبة.. إلخ.

﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ فكل ما فيه ادعاء على الله عبر عنه القرآن الكريم بلفظة «كذباً».

ونخلص إلى أن «أل» أكسبت لفظة «الكذب» الخصوص (التخصيص)، بينما أدى حذفها إلى الدلالة على عموم الكذب وتنوعه وشموله[1].

فلفظ «الكذب» لفظ خاص بنوع معين من الكذب دون غيره حتى لو دل ظاهره على العموم، ولفظة «كذباً» لفظ عام يشمل كل الكذب، أياً كان مصدره، حتى لو كان في مجال الكلام عن أناس مخصوصين معلومين؛ «فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[2].

كما أن لفظة «الكذب» المعرفة فيها دلالة على أن الأمر الموصوف بالكذب هو من أخطر الأمور وأهمها؛ فإن كان هنالك كذب فهذا رأس الكذب.

ج ـ أما دلالة «الحق» وما اكتسبته اللفظة بوجود «أل» مقترنة بها في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ فالمقصود به الحق المعهود الذي أذن الله أن تقتل النفس بموجبه[3]. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]؛ فدلالة

---

(١) انظر تفصيلات الدلالة في الزمخشري: الكشاف (٢: ٣٢٤)، (٢: ١١١)، (٤: ٥١٣)، أبو حيان: النهر الماد (٥: ٣٥٢).

(٢) مسألة أصولية تبحث عند الحديث في مسائل العام: الشوكاني إرشاد الفحول ص١١٧.

(٣) الزمخشري: الكشاف (١: ١٤٨)، (١: ٣٤٢).

اللفظة توحي بأهمية وجود «أل» مقترنة بـ«الحق» للتعبير عن أنهم لم يقتلوا الأنبياء لسبب شرعي؛ فلو سألوا أنفسهم عن سبب قتلهم لم يجدوا وجهاً يسوغ قتلهم أنبياءهم شرعاً.

أما (بغير حق) فيدل على أنه لا حق لهم ولا صواب في تصرفهم، بل إن في قتلهم للأنبياء ظلماً وافتراء[١]؛ فلا مبرر هنا لقتلهم، فالنكرة أفادت معناها مطلقاً من كل قيد بـ«غير حق» أما «الحق» فمن عند الله دون غيره.

د ـ وما أفادته «أل» في لفظة «الحق» أفادته في لفظة «**المعروف**»: من زيادة في الدلالة، وتغيير لها.

ففي قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. «المعروف هو الأمر الذي أباحه لهن الشرع (من التزوج بعد انقضاء العدة)، وخص بالباء والتعريف لتخصيصه وتحديده، «فالمعروف» هنا أي: الوجه الذي لا ينكره الشرع، وهو أمر الله على وجه الخصوص»[٢]، أما قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]؛ أي: مما لا ينكره الشرع من تصرفاتِهن.

والملاحظ أن ارتباط حرف الجر «مَنْ» بالفعل «فعلن في أنفسهن» أكسبت الآية دلالة أنه: «لا جناح عليهن أن يفعلن» جملة أفعال أباحها الشرع لهن، معروفة في الدين، وجائزة؛ وذلك بعض ما لهن أن يفعلنه؛ ولهذا خص بلفظة «من» ونكّر «من معروف».

والجدير بالذكر: أن هذه الأمثلة على تعاقب ذكر «أل» وحذفها في آيات القرآن

---

(١) الزمخشري: الكشاف (١: ٢٧٨).

(٢) تمام حسان: البيان في روائع القرآن ص٣٦٠.

الكريم هي دليل واضح على اكتساب اللفظة معنى وظيفياً جديداً مختلفاً عنه قبل دخول أل؛ عليها.

فقد دلت على العهد فيما أصبح معروفاً حيث سبق ذكره من لدن المتكلم، مثل قول إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ بعد أن ذكره سابقاً بقوله تعالى: «بلداً».

وأما لارتباطه في الذهن باهتمام خاص، فإذا اقترن بأل تحدد لدى السامع القصد دون غيره، مثل: «الكذب»، «الحق»، «المعروف».

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يتوصل إلى ظاهرة تعدد المعاني الوظيفية للمبنى الواحد «أل» بين الجنس والعهد والربط والموصولية مما لا يتسع المجال لذكره؛ لأنه خارج عن نطاق بحثنا.






الفصل الثالث

تعاقب الذكر والحذف في الجمل وأشباه الجمل

وفيه الموضوعات التالية:

١ـ تعاقب الذكر والحذف في الجمل.

٢ـ تعاقب الذكر والحذف في أشباه الجمل.




تعاقب الذكر والحذف في الجمل

إن المتدبر لآيات القرآن الكريم يلاحظ أن تعاقب الذكر والحذف في الجمل أقل شيوعاً في القرآن الكريم من تعاقب ذكر الحرف وحذفه أو تعاقب ذكر المفردة وحذفها كما أوضحنا في الفصل الأول والثاني.

والجدير بالذكر أن زيادة الجملة في آية عنها في أخرى إنما يكون لغاية بلاغية، أو لحكمة إلـٰهية، أو لإضافة حكم شرعي مما يوضحه سياق الآيات ومناسبات النزول وأساليب البيان في القرآن الكريم، وهذا مما سنوضحه في كل آية من آيات تعاقب الذكر والحذف مرتبة في هذا الباب.

١ ـ تعدّد أضرب الخبر وتنوع أغراضه بالذكر والحذف:

تطالعنا في سورة يس قصة أصحاب القرية من خلال آيات كريمة تعددت فيها أضرب الخبر، كما تنوعت أغراض الخبر على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٣-١٧].

لقد حقق هذا النص القرآني من قوة التعبير والقيمة الجمالية، بالإضافة إلى إفادة

المخاطب الحُكْم، أو ما يسمى «فائدة الخبر» أو «لازم الفائدة»، مما يجعل هذا النص دليلاً على ما حرصت عليه العرب: من أن يكون كلامهم بمقدار الحاجة وليس زائداً عنها، ويجعله شاهداً على أن العلاقات الداخلية في التراكيب المختلفة هي نتيجة لما يعتريها من ذكر وحذف؛ فقد أرسل الله سبحانه لهذه القرية اثنين من الرسل فكذبوهما فعززهما برسول ثالث.

ويدرك المرسل الثالث ـ في ضوء ما نال سابقَيْه من تكذيب ـ أنه سيصيبه ما أصابهما، فيضم صوته إلى صوتيهما: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾.

ونلاحظ ما سبق الجملة الخبرية من توكيد بـ«إنَّ»، وما طرأ على الدلالة من تغير ملحوظ من خلال ما يتصل بهذه البنية من لواصق يجعلها مختلفة عن دلالة: نحن إليكم مرسلون، إذ يتغير مستوى المعنى.

وعلى الرغم من هذا التأكيد فقد رد عليهم أصحاب القرية: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

والرد هنا ما بين البُنْـية والدلالة يفسح المجال للمتلقي؛ فيضعه أمام التأثيرات الأسلوبية والتبادل الجدلي بين النص وردود أفعاله؛ فإن إصرار أهل القرية على تكذيب الرسل واضح إذ عبروا بأسلوب (ما وإلا) ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ﴾ و«ما» و«مِنْ» في قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ و«إن» و«إلا» في قولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾، لقد لمح الرسل تصميم القوم على موقفهم منهم؛ فزادوا مؤكداً جديداً إلى جانب «إنّ» في خطابهم السابق؛ فأشهدوا ربهم على صدق دعوتهم؛ فصدّروا الجملة بقولهم: ﴿رَبُّنَا﴾، وأسندوا العلم إليه في قوله: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾، وقرنوا «إن» باللام لتعزيز موقفهم وتأكيد صدق دعواهم.

لكن القوم أصروا على عنادهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولا شك في أن إضافة أدوات التوكيد (اللام ونون التوكيد الثقيلة ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ وأسلوب القصر بما وإلا وحرف التوكيد إنّ) قد نقلت الدلالة من المستوى العادي إلى مستوى أعمق في تأكيد المعنى كما حققت التلاؤم بين المستويات الدلالية للنص وحالة المتلقي وبذلك توثق الارتباط بينهما.

والحقيقة أن فكرة مستويات المعنى لم تكن بعيدة عن إحساس البلاغيين وهم يتعاملون مع النصوص الأدبية بل يتجسد ذلك بجلاء في كلام لعبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز» عن حوار بين الكندي المتفلسف وأبي العباس حين قال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً[1].. فالألفاظ متكررة والمعنى واحد فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني وكان مدار الحوار حول الجملة الابتدائية ﴿اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد علق عبد القاهر بقوله:

واعلم أن ههنا دقائق لو أن الكندي استقرئ وتصفح وتتبع مواقع «إن» ثم ألطف النظر وأكثر التدبر لعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها وأنْ لا تدخل[2].

مما يلفت النظر في سورة الكهف قصة موسى والرجل الصالح بما احتوته من تنوع في أسلوب الحوار عن طريق جمل الاستفهام والجمل الخبرية بالذكر والحذف:

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص٢٤٢ انظر تفصيل الحوار.

(٢) المصدر نفسه ص٢٤٣.

قال تعالى على لسان الرجل الصالح لموسى حين طلب أن يتبعَه ليتعلّم منه: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧].

وفي الموضع التالي قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

وفي موضع ثالث قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

تبدأ القصة بالجملة الابتدائية التالية: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] والضمير عائد على موسى وفتاه. قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

ونستشف أدب موسى في طلبه العلم الراشد من العبد الصالح. أما الرجل الصالح فيدرك مسبقاً أنه لا طاقة لموسى بالصبر على ما سيصدر من العبد الصالح من تصرفات قد تصطدم في ظاهرها بالمنطق العقلي، لأن علمه مختلف عن علم البشر فهو جانب من العلم بالغيب الذي أطلعه عليه الله بالقدر الذي أراده للحكمة التي أرادها[1]: فقال لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]. ثم أردف متسائلاً: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨].

إلا أن موسى وعده بالصبر قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وقد قدم المشيئة ووعد بالطاعة لأوامر الرجل الصالح فاشترط عليه ألا يسأله عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها. فانطلقا، إلا أن موسى لم يفِ بالوعد فلم يصبر واستنكر خرق الرجل للسفينة قائلاً: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]،

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن (٢: ٣٩٦، ٣٩٧).

وعقب بحكم مؤكد بـ«قد» المقترنة باللام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] وهنا يذكّره العبد الصالح بما قال له منذ بدء اللقاء: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، ولعل القارئ يتذكر قول العبد الصالح سابقاً: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، لكنه زاد عليه قرينة وهي جملة الاستفهام المنفي، ولا يخفى أن اتصال جملة الاستفهام بجملة قد سبق ذكرها قد أثرى العلاقة السياقية بينهما وولّد مستوى جديداً مختلفاً من مستويات المعنى حمل دلالة التذكير بلطف بما قاله العبد الصالح وتوقعه. لكن موسى أصر على الصحبة ـ بالإضافة إلى دلالة جانبية ثانية وهي أن موسى قد أخفق في الوفاء بما وعد فلم يصبر[1] ثم اعتذر موسى وقبل الرجل اعتذاره. وبمجرد أن رأى موسى الرجل يقتل غلاماً صرخ باستفهام استنكاري:

﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، فقد اتهم موسى العبد الصالح بالقتل العمد لغلام بريء فانبرى العبد الصالح قائلاً: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]. وفي هذه العبارة يكرر ما قاله في المرة الأولى وما قاله في المرة الثانية، ويلحق بالاستفهام الجار والمجرور «لك» فيضيف بإضافته قوة تعبيرية وقيمة جمالية. فالحاجة ماسة إلى هذه اللفظة في هذا الموقف. فالقول في العبارة السابقة كان قولاً عاماً بدأ باعتقاد الرجل وتوقعه لكنه أصبح مؤكداً بعد التجربة.

وقد نلمس في استفهام الرّجل حِدَّة لم تظهر في قوله «ألم أقل» ـ بدون (لك) ـ ورغم تشابه الأسلوب، فلفظة «لك» عنت موسى عليه السلام دون غيره وأنه سبق وأن حذره.

---

(١) عمر الأسعد: اللغة العربية بين المنهج والتطبيق ص١٧٤.

ويطلب موسى الفرصة الأخيرة: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]. ولم يصبر موسى فقال له الرجل الصالح: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]. فقد حسم الموقف وأنهى الصحبة فبدأ باسم إشارة وأخبر عنه بمصدر مضاف جعل الفراق لا لقاء بعده؛ ورغم خلو هذه العبارة من المؤكدات فإن دلالة الحزم والإصرار واضحة فيها. ولم يترك موسى حائراً فقد وعده بتأويل ما لم يستطع عليه صبراً..[١].

وهكذا نصل إلى أن بنية الاستفهام ومستوياته في هذه الآيات قد حققت القوة التعبيرية والقيمة الجمالية بالإضافة إلى إفادة الحكم أو ما يسمى فائدة الخبر ولازم الفائدة.

٢ ـ تعاقب ذكر جملة الطلب وحذفها:

تطالعنا في قصة موسى عليه السلام آيتان متشابهتان زادت إحداهما عن الأخرى بجملة طلبية على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

وفي سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩]. ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠].

وتأتي الآيتان للإخبار عن رحلة موسى خارجاً من مدين حين حاد عن الطريق في ليلة باردة مظلمة وكان معه زوجه فرأى من جانب الطور ناراً[٢]، فقال لزوجه

---

(١) انظر التأويل في سورة الكهف من ٧٩: ٨٢.

(٢) الآلوسي: روح المعاني المجلد ١٠ - ج١٩، ٢٠ ص١٥٥، ١٥٦.

في الآية الأولى: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ لكنه قال في الثانية لزوجه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾.

وقد احتوت الآيتان على وعد من موسى لزوجه ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ بالسين إما لتأكيد الوعد أو لتقريب المدة دفعاً لاستيحاش زوجه إذا طالت غيبته وقال في الآية الثانية: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ على صيغة الترجي والظن والتوقع.

ولعل دلالة ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ انتظروا في مكانكم، فقد أمر زوجه بالمكوث[1] في مكانها وألا تتبعه فيما عزم عليه من الذهاب وبذلك تكون جملة ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ تعليلاً للأمر ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ وفيه ما يمنح الأمل. أما الهدف من القولين فتسلية زوجه وتبرير سيره بدونها بعد أن رحلا سوياً، وفي الآية الأولى تكون الجملة الاسمية ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ (مفعولاً به) (مقول القول)، وفي الآية الثانية تصبح جملة الأمر ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ هي مقول القول وجملة إني آنست ناراً لتعليل جملة الطلب.

وقد قيل في جملة ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾: جملة حالية على تقدير: «أذهب إليها لآتيكم أو كي آتيكم أو راجياً أن آتيكم منها بقبس».

ويمكن للمرء أن يذهب إلى أن الفرق بين الآيتين يتلخص في أن القصد من الآية الأولى التركيز على رؤية موسى للنار من بعيد ورغبته في التحقق من أمرها أو العودة بما يدفئ زوجه.

أما في الآية الثانية فيحتوي على ما يضيف بعداً جديداً إلى تفاصيل القصة وهو ترفّقه بزوجه فيطلب منها المكوث وعدم مصاحبته في السعي إلى تحقيق أمل محفوف بالمخاطر فلا حاجة إلى اصطحابها.

---

(١) الآلوسي: روح المعاني مج٨، ج١٥، ١٦ ص٤٨٢.

٣ـ تعاقب ذكر جملة الحال وحذفها:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ [الحج: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [محمد: ١٢].

تـتحدث الآيتان عن المؤمنين ومصيرهم يوم القيامة حيث يدخلهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار، وقد صوّر سبحانه في سورة الحج المؤمنين وأحوالهم في الجنة فذكر ما يحلون فيها من ذهب وفضة ولؤلؤ وأن جميع ما يلبسونه حريز أما في آية محمد فقد اكتُفِي بذكر إدخالهم الجنات التي تجري من تحتها الأنهار دون ذكر ما يحلون به.

ومن يتأمل سياق آية الحج ويربطها بما سبقها من آيات يجدها تتحدث عن أهل السعادة وأهل الشقاوة[1] وما دار بينهما من خصومة في دين الله فقال تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]. ﴿ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴾ [الحج: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ [الحج: ٢٣]، فبعد أن وصفت لنا الآية ٢٠ حال أهل النار وهم الفريق الأول.

تحدثت بالمقابل عن الفريق الثاني فوصفت حسن حالهم، ووضحت مدى

---

(١) الواحدي، أسباب النزول ص٢٣١.

تفضل الله عليهم، وقد صدر الجملة بحرف «إن» إظهاراً لمزيد العناية بأمر المؤمنين[١].
أما الآية ١٢ من سورة محمد فقد سبقت بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]، ولبيان ثمرة ولايته تعالى للذين آمنوا في الآخرة قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [محمد: ١٢].

ثم قارن حالهم بحال الذين كفروا فعطف ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

فثمرة ولاية الله المؤمنين دخول الجنة أما الذين كفروا فانتفاعهم مقتصر على الدنيا بمتاعها غافلين عن عواقب هذا التمتع، فالنار منزل الثواب والإقامة لهم[٢].

أما جملة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]. فهي جملة فعلية بني الفعل فيها للمجهول لأن الحلية والحالي هما القصد دون من يُحلّيهم، وقد اختلف النحاة حول ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ فذهب الأخفش والكوفيون إلى: أنها صلة على اعتبار أنها زائدة[٣] وقد أجازوا زيادتها في الآيتين، وذهب أبو حيان إلى: أنها للتبعيض[٤] وقال آخرون: أنها بيانية[٥]، وقال آخرون: أنها للابتداء أي: قبل أن تكون أسورة فقد كانت ذهبا[٦].

---

(١) تفسير أبي السعود (٦: ١٠٢).

(٢) المصدر نفسه (٨: ٩٤).

(٣) تفسير أبي السعود (٦: ١٠٢)، العكبري، التبيان في إعراب القرآن ق٢ ص٩٣٨، السيوطي: معترك الأقران (٢: ٥٥٦).

(٤) أبو حيان: النهر الماد (٤: ١٨٤).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٢: ٢٨، ٢٩).

(٦) د. فضل عباس: لطائف المنان ص١٥٢.

ولعل فهم الآية إذا جعلنا «مِنْ» بيانية؛ أن يكون المراد وصف حالهم فهم يلبسون ﴿أَسَاوِرَ﴾ زينة لهم فيما يتعلق بهذا الجانب من الزينة، وجاء بـ﴿أَسَاوِرَ﴾ نكرة، للدلالة على قيمتها كما أن ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ بيان لمادة الأساور التي لا تخالطها مادة أخرى.

أما تبعيضية، فكأن في الآخرة ـ وهو كذلك ـ أساور لا تقع ضمن خيال البشر، فيحلون ببعضها، وكأن الأساور أنواع ومراتب تتناسب مع أنواع المؤمنين ومراتبهم، و﴿مِن ذَهَبٍ﴾، أي: جزء من بعض (هي من ذهب) كذلك لا يدخل ضمن خيال البشر، فذلكَ ذَهَبٌ له صفات خاصة. ويرى الدكتور تمام حسّان أنّ «مِنْ» هنا بمعنى الباء[1]. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب على معنى: «ويحلون لؤلؤاً» بدليل كتابتها في جميع المصاحف بألف.

ومن خفض فقرأ «لؤلؤٍ» عطف على لفظ «الأساور» ومن اعتبر «مِنْ» زائدة قبل ﴿أَسَاوِرَ﴾، ونصب ﴿لُؤْلُؤًا﴾ فقد نصب على اعتبار ﴿أَسَاوِرَ﴾ مفعولاً به مجروراً لفظاً منصوباً محلاً وعطف ﴿لُؤْلُؤًا﴾ على المحل[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ يحمل دلالة الديمومة والشمول والاستمرار فجميع ما يلبسون دائماً حرير.

أما ﴿أَسَاوِرَ﴾ فهي جمع واحدها سوار وفيه ثلاث لغات ضم السين وكسرها.

٤ ـ تعاقب ذكر جملة جواب الشرط المقترن بالفاء وحذفها:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

---

(١) د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن.

(٢) العكبري: التبيان في إعراب القرآن ق٢ ص٩٣٨.

وقال في سورة الأنعام: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال في سورة النحل: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٥].

يلاحظ تشابه الآيات الثلاث مع زيادة جملة ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ وهي جملة جواب الشرط في آية البقرة وخلو آيتي الأنعام والنحل منها.

وبالرجوع إلى سياق الآيات الثلاث وما سبقها يتبين لنا أنها جميعاً تبين للمضطر ما له أن يتناول من المحرم الذي يمسك به رمقه.

فبدأ الآية الأولى بالتصريح بإسقاط الإثم فقال: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ ثم عقب بما اتصف به سبحانه من المغفرة والرحمة، أما في الموضعين الآخرين فلم يذكر (لا إثم عليه) بل اقتصرت على: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في النحل، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في الأنعام ليكون كل منهما جواباً للشرط، وفي هذا الجواب تعريض بإسقاط الإثم ويفهم هذا الإسقاط ويستدل عليه من قوله: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وورود ذلك صريحاً في الآية الأولى.

والجدير بالذكر: أن المحرمات في الآيات الثلاث جاءت على النحو التالي:

١ـ في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٧٣].

٢ـ وفي سورة النحل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ [النحل: ١١٥].

٣ـ وفي سورة الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ

﴿أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ومن هنا نستنتج أن الآيات الثلاث حملت نفس الدلالة إلا أن أساليب التعبير تنوعت فالأولى: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ والثانية: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والثالثة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد تزيد جملة جواب الشرط في آية عن مثيلتها في آية أخرى على النحو التالي: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [التغابن: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الطلاق: ١١].

ومن يتدبر الآيتين يلاحظ أن جواب الشرط في الآية الأولى يتضمن التكفير عن السيئات وإدخال الجنات التي تجري من تحتها الأنهار والخلود فيها أبداً، أما جواب الشرط في الآية الثانية فهو إدخال الجنات والخلود فيها أبداً دون ذكر تكفير السيئات.

وبالرجوع إلى سياق الآية الأولى التي ذُكر ضمنها التكفير عن السيئات نتبين أنه يدور حول البعث بدليل قوله في مطلع الآية: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] ثم عقَّب بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

فالقضية عقائدية بحتة تقوم على جمع الله الناس يوم القيامة ومحاسبتهم على أعمالهم الحسنة والسيئة، ويوم التغابن هو يوم المجازاة والمعاقبة وهو يوم التغابن تعقباً بنزول السعداء منازل الأشقياء وبالعكس، وفي الحديث الشريف: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِي مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أُري

مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة»[1] وبعد هذا الوصف يعقب: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾[2]. ومن ثم فالتشديد على ذكر تكفير السيئات ضروري هنا.

أما سياق آية الطلاق فلم يتحدث عن اليوم الآخر بل ابتدأت السورة بأسلوب إرشادي تعليمي ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۞ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١]. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ [الطلاق: ١١]. حسبما بين في تضاعيف ما أنزل من الآيات المبينات.

فاقتضى الأمر التركيز على فكرة الإيمان والعمل الصالح الذي يقتضي إدخال الجنة مَنْ آمن بالله والرسول والكتاب دون الحاجة إلى ذكر تكفير السيئات، لأن السياق لم يبدأ بذكر ما يشير إلى معصية الكفر يوم القيامة[3] أو اليوم الآخر أو ما يشير إلى تكذيب الرسول ﷺ فالآية في مجال الترغيب.

ومع أن صفة الكمال عند الإنسان مستحيلة وأن يدخل الإنسان الجنة التي تجري تحتها الأنهار ويخلد فيها دون تكفير للسيئات مستحيل أيضاً، لكن النتيجة النهائية لـمن يؤمن بالله ويعمل صالحاً دخول الجنة ودخول الجنة يتضمن في طياته تكفير السيئات فنفهم ضمناً في الآية الثانية أن السيئات قد كُفِّرت بدليل النتيجة النهائية وهي دخول الجنة.

ومن هنا ندرك لماذا ذكرت الجملة في موضع وحذفت في موضع آخر.

---

(١) التبريزي: مشكاة المصابيح ج١ باب الإيمان بالقدر الحديث رقم ٨٥-(٧) ص٣١.

(٢) تفسير أبي السعود (٨: ٢٥٧).

(٣) تفسير أبي السعود (٨: ٢٦٤).

٥ ـ تعاقب ذكر جملة «واستوى» وحذفها:

يلفت النظر في سورتي يوسف والقصص آيتان متشابهتان زادت إحداهما عن الأخرى بجملة معطوفة على ما قبلها في قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤].

والجدير بالذكر أن المقصود من الضمير ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ في الآية الأولى «يوسف عليه السلام» وفي الآية الثانية «موسى عليه السلام».

ويتساءل المرء عن تخصيص آية موسى بذكر بلوغ الأشد والاستواء واقتصار آية يوسف على بلوغ الأشد.

ونرى لزاماً أن نبين مدلول بلوغ الأشد والاستواء لعلنا ندرك الحكمة من الذكر والحذف في الموضعين.

جاء في معجم مفردات غريب القرآن:

الشدّ: العقد القوي قال تعالى: ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾ [طه: ٣١].

والشدّة تستعمل في العقد والبدن وقوى النفس ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٤].

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف: ١٥].

ففيه تنبيه أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلـقُه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله بعد ذلك[1].

---

(١) الراغب الأصفهاني: معظم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ـ باب شد ص٢٦٣.

ورغم دلالة هذه الآية فقد اختلف العلماء حول «بلوغ الأشد» فقال بعضهم: ثماني عشرة أو ثلاث وثلاثون وأربعون سنة وزاد بعضهم إلى اثنتين وستين[١].

ونسبوا قول: «أول الأشد الحلم وأقصاه أربع وثلاثون سنة» إلى سفيان الثوري، وفسروا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: المبلغ الذي لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ[٢].

أما الأشد عند سيبويه فجَمع وواحِده: شدة، وقال الكسائي: واحده: شد، وزعم أبو عبيدة أنه لا واحد له من لفظه عند العرب ومعناه: استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد[٣].

أما دلالة استوى لغة فقد اتفقَّ على أنها اعتدال الشيء في ذاته[٤]، قال تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]. واستوى أي: اعتدل وتم استحكامه وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه[٥]. وذلك أربعون سنة، ويروى: أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة[٦]. واستوى أي: اعتدل قده وعقله[٧].

وقال ابن عباس: بلغ أربعين سنة[٨]. وقيل: بلغ أشده واستوى أي: أدرك واستوت لحيته[٩].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ٤٣٧).

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم (١٣: ٢٥٨). تفسير أبي السعود (٤: ٢٦٣).

(٣) المصدر نفسه (٩: ١٦٢).

(٤) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ـ باب سوى ص٢٥٦.

(٥) الزمخشري: الكشاف (٣: ٣٨٤).

(٦) تفسير أبي السعود (٧: ٦)، الزمخشري: الكشاف (٣: ٣٨٤).

(٧) المصدر نفسه (٧: ٦).

(٨) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٣: ٢٥٨).

(٩) الخطيب الإسكافي: درة التأويل ص٢٤٠.

ولعل هذه الآراء في التفريق بين بلوغ الأشد والاستواء تعطينا الضوء لندرك الحكمة من ذكر ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ في الآية الثانية.

كما أنه بالعودة إلى قصة يوسف في القرآن الكريم يتبين المرء أن الله قد أوحى إليه لما طرحه إخوته في الجب حيث قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. أما موسى عليه السلام فلم يؤثر عنه في القصص القرآني أنه أوحي إليه إلا بعد أن بلغ الأشد واستوى، وذلك بالتحديد بعد أن استأجره شعيب عليه السلام وانقضت سنوات إجارته وسار بأهله، حينئذ أوحى الله إليه وقيل: أن ذلك كان بعد الأربعين[١]، فقد آتى الله يوسف الحكم والعلم عند بلوغ الأشد وقبل بلوغ الأربعين أما موسى فبعد بلوغ الأربعين (الاستواء).

وهكذا ندرك قيمة الجملة المعطوفة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ في أمر موسى وكيف أن ضرورة الدلالة تستدعي ذكرها دون آية يوسف. ولعل ما استدعى الاستواء في آية موسى خروجه عليه السلام إلى مدين، حيث أقام فيها عشر سنوات، وتزوج كذلك بعدها، ثم سار بأهله إلى أن آنس من جانب الطور ناراً، وأوحى الله إليه، فكان اصطفاء موسى عليه السلام قد تأخر إلى أن بلغ أشده واستوى. بالإضافة إلى ما اكتسبه من صفات خلال هذه السنوات، ومن اطمئنان نفسي ببعده عن القوم الظالمين.

أضف إلى ذلك أن رسالة موسى «التوراة» وإن كانت تدعو إلى ما دعا إليه يوسف من التوحيد فإنها تختلف بكونها كتاباً سماوياً يقتضي «الاستواء» إضافة إلى بلوغ الأشد.

ولا نعني بتخصيص الاستواء بموسى إسقاطه عن باقي الأنبياء فمن المسلّم به

---

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ذكر أن عيسى ويوسف قد بعثا قبل الأربعين والحلم للغالب لا للنادر القليل.

أن مقومات النبوة الحكمة والفطنة والعلم، لكن الآية ركزت على طبيعة موسى وظروفه التي تـختلف عن ظروف من سبقه من الأنبياء ومنهم يوسف عليه السلام، فذكر الاستواء له ولم يذُكر لغيره.

٦ ـ تعاقب ذكر جملة «ولا ينظر إليهم» وحذفها:

وردت آيتـان متشابهتان إحداهما في سورة البقرة والأخرى في سورة آل عمران تتضمنان عقاب فئتين من اليهود، إلا أن إحدى الآيتين زادت عن الأخرى بجملة معطوفة على النحو التالي: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤]. وقد تكرر هذا العقاب في سورة آل عمران لكنه زاد عنه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وبالرجوع إلى كتب التفسير وأسباب النزول يتبين أن آية البقرة نزلت في علماء اليهود كانوا يرجون أن يكون المبعوث الذي تحدثت عنه التوراة منهم، فلمـا بعث محمد ﷺ سألتَهْم ملوكهم: أهذا الذي بشرت به التوراة؟ فقالوا: ليس هذا هو النبي المنتظر فكتموا الحق وغيروا صفة المبعوث حتى لا تنقطع عنهم الهدايا التي يأخذونها منهم[١]. وهذا السبب وإن كان خاصاً، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالحكم يشمل كل من كتم ما شرعه الله وأخذ عليه الرشا[٢].

---

(١) أبو حيان: النهر الماد من البحر المحيط (١: ٢٤٣)، الآلوسي: روح المعاني المجلد ١ ج٢ ص٤٤٢.
(٢) الشوكاني: فتح القدير (١: ٢١٤).

أما آية آل عمران فقد نزلت في رجل أو رجال من اليهود جحدوا بعض المسلمين حقهم فتحاكم الطرفان المتنازعان إلى رسول الله ﷺ، فطلب من المسلم البينة فلم يقدمها وطلب من اليهودي اليمين فحلفه كاذباً[١] وقيل: نزلت في جماعة من علماء اليهود حرفوا التوراة وأنكروا بعث الرسول ﷺ وحكم الأمانات وأخذوا على ذلك رشوة.

ونلمس أن آية آل عمران أوضحت نوعاً آخر من معايب أهل الكتاب بالإضافة إلى تحريفهم التوراة وهو خيانتهم في المال بعد خيانتهم في الدين، فقد استحل بعضهم أموال العرب فقالوا: ليس علينا فيما أصبنا من أموال الأميين (العرب)[٢] عتاب وذم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وباختلاف درجات الخيانة اختلف العقاب الإلـٰهي فالفئتان وإن اتفقتا على جزء من العمل اختلفت في جزء آخر؛ فالمجموعة الأولى المتصفة بالتكتم والاستبدال بآيات الله ثمناً قليلاً حدّد الله جزاءها:

أ ـ ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ كناية عن تحمل آثامهم المؤدية إلى النار في الآخرة.

ب ـ ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ دلالة على غضبه عليهم لأن التكليم تأنيس للمتكلم.

ج ـ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ فلا يقبل أعمالهم ولا يثني عليهم خيراً.

وهذا جزاؤهم على كتمانهم جزءاً من التوراة أو كتمانهم القرآن الكريم[٣].

---

(١) الآلوسي: روح المعاني مج٢ ج٣ ص١٩٦.

(٢) الشوكاني: فتح القدير (٢: ٤٤٤).

(٣) أبو حيان: النهر الماد (١: ٢٤٣)، الشوكاني: فتح القدير (١: ٢١٤).

أما المجموعة الثانية فهي خسيسة النفس تترك الشيء العظيم في سبيل تحصيل شيء دنيوي حقير، وتترك النعمة والوفاء بالعهد والإيمان بما أنزل الله وتشتري بآيات الله ثمناً قليلاً، وهذه كلها معاصٍ تحتّم العقاب الأشد الذي لا يقع معه عفو ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]. فهم مشتركون بالعقاب مع الفئة السابقة لكنهم يزيدون بأنهم لا خلاق لهم في الآخرة أي: لا نصيب لهم من نعيمها. ولا ينظر إليهم يوم القيامة أي: لا يعطف عليهم ولا يرحمهم لسخطه الشديد وفي هذا تهويل للوعيد[١].

ويتلخص الموقف في أن الجماعة المقصودة في الآية الأولى أقل سوءًا؛ لذلك خفف الله عقابهم، وإن كان عقابهم شديداً، في حين كان الغضب على الفئة الثانية أشد فكان العقاب أنكى وتمثل ذلك في قوله: ﴿لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾.

وهكذا نخلص إلى أن اختلاف درجة الخيانة يوصل إلى اختلاف العقاب الإلـٰهي زيادة أو نقصاناً وهذا عدل إلهيّ.

٧ـ تعاقب ذكر الجملة التفسيرية «نموت ونحيا» وحذفها:

في مجال التكذيب باليوم الآخر والبعث تطالعنا آيتان متشابهتان إلا أن إحداهما زادت عن الأخرى بجملة تفسيرية في قوله تعالى:

أ ـ ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧].

ب ـ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

وبالرجوع إلى سياق الآيتين نخلص إلى الحكمة من ذكر جملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾

---

(١) الآلوسي: روح المعاني مج٢ ج٣ ص١٩٦.

في المؤمنون وعدم ذكرها في الأنعام وهي: أن آية ٣٧ من المؤمنون جاءت في سياق الحديث عن الرسل وتكذيب أقوامهم لهم، فبدأت بنوح عليه السلام وتكذيب قومه ثم إهلاكهم ثم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢]. وهذه هي دعوة التوحيد التي دعا إليها كل الرسل.

فإجابة الملأ الذين كذبوا بلقاء الآخرة ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣] ومخاطبة بعضهم بعضاً: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٥-٣٧].

ولعل هذا السياق يبين ضرورة وجود الجملة التفسيرية ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فهم مكذبون بنبوة نوح وهو من البشر فبالغوا في توهين أمره واستهانوا به، وقولهم: أيعدكم؟ استئناف لتقرير ما قبله من زجر أصحابهم عن اتباعه بإنكار ما يدعوهم للإيمان به واستبعاده فبماذا يعدهم؟ أيعدكم أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم بعد أن يصبح بعض أجزائكم من اللحم تراباً وبعضها عظاماً؟[1].

ثم كرروا ﴿هَيْهَاتَ﴾ وانتهت الآيات بتقرير معتقدهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا حياة إلا حياتنا الدنيا ثم فسروا ما ادعوه: يموت بعضنا ويولد البعض الآخر. وبهذا التفسير يتضح أنه ليس المقصود بقولهم: ﴿وَنَحْيَا﴾ حياة أخرى بعد الموت إذ لا تصلح الجملة بموجب هذا أن تكون جملة تفسيرية لادعائهم بل تناقض قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

---

(١) الآلوسي: روح المعاني مج٩ ج١٧، ١٨ ص١٣٢: ٢٣٤.

أما آية الأنعام (٢٩) فقد جاءت في سياق الحديث عن مصير المكذبين بالبعث ومعاينتهم العذاب في اليوم الآخر، وتمنيهم لو يردون إلى الحياة مرة ثانية ليؤمنوا.

ويوضح سياق الآيات السبب الذي أوصلهم إلى هذا العذاب، وهو تكذيبهم بالبعث وادعاؤهم إنما يحيون في الدنيا فقط ولا يبعثون.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠]. ومن هنا ندرك لماذا ذكرت جملة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ في الآية الأولى ولم تذكر في الثانية.

٨ ـ تعاقب ذكر جملة النداء «يا موسى» وحذفها:

وقد تحذف جملة النداء في آية بينما تذكر في آية أخرى على النحو التالي في قوله تعالى في قصة: موسى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣٠-٣١].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

والمتدبر لهذه الآيات يدرك وجود جملة النداء في جواب لـمّا الحينية في آية طه

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ وفي آية القصص، أيضاً وعدم وجودها في آية النمل والاكتفاء بقوله تعالى: ﴿نُودِيَ﴾ دون التصريح بالمنادى. ويميل النحاة إلى اعتبار «أنْ» مفسرة في قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ بمعنى (أي) واستدلوا على ذلك بكسر همزة إن في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ بعد قوله: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾، ويميل بعضهم إلى اعتبار (أنْ) في قوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ مخففة من أن مثلما اعتبروا قوله تعالى: ﴿نُودِيَ﴾ نداءً دون التصريح بـ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يغني عن ندائه، بل ذهبوا إلى أن «نودي» هنا بمعنى (قيل) دون حروفه، أي قيل: بورك.

ولعل التصريح بالمنادى مسبوقاً بأداة النداء «يا» قد أعطى موسى عليه السلام شعوراً بالطمأنينة والثبات؛ إذ نودي باسمه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، كما أن وجود لمّا متبوعة بنودي توحي بالنداء بعد انتظار طويل من موسى حيث لم تذكر لما متبوعة بأنْ، لتدل على حصول الفعلين دون تراخ. أما من حيث الإعراب فقد اعتبر بعض النحاة قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نائباً عن الفاعل وذلك على تضمين النداء معنى القول، وإرادة هذا اللفظ من الجملة، وإلا فقد قيل: إن الجملة لا تكون فاعلاً ولا نائب فاعل في مثل هذا التركيب إلا بهذا التأويل.

وقد ذهب البصريون إلى إضمار القول في مثل هذه الآية أي: نودي فقيل: يا موسى، ولذلك كسرت همزة «إن» بعدهما.

وقرأ ابن كثير بفتحها «نودي: أَني» على تقدير حرف الجر، أي: بأني، والمجرور متعلق بـ﴿نُودِيَ﴾، والنداء قد يوصل بحرف الجر، وقد يقدر فعل «اعلم أني» وتكرار ضمير المتكلم ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة[1].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١١: ١٧٢).

وتصف كتب التفسير في روايتها للقصة شدة الهول الذي حل بموسى قبل أن ينادى فلما نودي ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ ولم يدر من دعاه، ازداد خوفه وحين سمع قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ هدأ روعه، ولا يخفي ما في ندائه باسمه من تأمين لخوفه.

كما تطالعنا آيتان أخريان احتوت إحداهما على جملة النداء ولم تذكر في الآية الأخرى على النحو التالي في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [إبراهيم: ٦].

احتوت الآيتان على خطاب موسى لقومه يذكرهم بنعم الله عليهم، لكن الآية الأولى جاءت بجملة النداء ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ ولم تذكر هذه الجملة في الآية الأخرى، ولا يخفى ما تحمله هذه الجملة من دلالة؛ فقد ذهب الآلوسي إلى أن ذكرها في آية المائدة، فيه من التنبيه المشوب باللوم الشديد بسبب جحودهم نعم الله المتعددة؛ فإن تسمية المخاطب بذاته، مع الإقبال عليه، يفيد مبالغة في التنبيه له؛ فإذا قلت: افعل كذا يا فلان فكأنك قلت: «أعنيك بخطابي أنت لا غيرك»، فإذا اقترن النداء بفعل الأمر كان مقصوراً على صاحب الاسم الذي دخله حرف النداء، وللمبالغة في التنبيه، والمبالغة في التنبيه حقها أن تكون في الأهم الأعم نفعاً في قوله تعالى: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ فقد نبههم ليقوموا بشكر ما عليهم من النعم مما لم ينعمه على أحد غيرهم[1].

أما ورود الآية في إبراهيم دون ذكر جملة النداء فيرجع إلى الرغبة في التنبيه إلى

---

(١) الآلوسي، روح المعاني مج ٩ ص٢٢٧.

ما صرف عنهم من البلاء وإن كان الـموقف يستدعي الشكر[1]، فإن الشكر مع النعم العميمة يستدعي أن يخصهم بالتنبيه (يا قوم) إذ إن الآية مسبوقة بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

ويشعر المرء لدى إمعان النظر في هذا الفرق المشار إليه في المعنى بين الآيتين، أنّه غير مقنع إذ إن كل نعمة من الله تستدعي الشكر؛ هذا إلى جانب أن النعمة التي انطوت عليها الآية؛ وهي نعمة الإنجاء لا تقل عن النعمة الأولى، ويمكن للمرء أن يذهب إلى أن الخطاب في الآيتيـن موجه إلى نفس القوم؛ فاقتصر على استخدام جملة النداء في الأولى (المائدة) دون الآية الثانية لدلالة الأولى على القوم أنفسهم والله أعلم.

ـ وتطالعنا آيتان أخريان احتوت إحداهما على جملة النداء ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ولم تذكر في الآية الثانية على النحو التالي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥].

ولعل ما قيل في جملة النداء ﴿يَٰقَوْمِ﴾ في خطاب موسى لقومه، ما يعينـنا على توضيح القصد من ذكر جملة النداء وحذفها في خطاب نوح لقومه وندائهم مع الإشارة إلى خصوصية موقف نوح من قومه.

ولعل في قول نوح لقومه: يا قوم ما يشعر برغبته في التحبب إليهم والتعطف عليهم، ومحاولة استمـالتهم إلى الحق كما سبق وأشرنا إلى أنّ غاية النداء هي التنبيه والتحقيق وبخاصة إذا اقترن بالأمر ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

وفي قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣] ما يضيف إلى دعوته

---

(١) الآلوسي، روح المعاني، مج٦ ص٢٣٦.

استنكاره واقعهم واستقباحه في خطابهم بالنص «يا قوم» وبقوله: (لكم) للتخصيص وقوله: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ للتبيين، ما يشعر بمحاولة نوح إقناعهم بطرق عدة[1] أما في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥] فهي جملة مستأنفة مسوقة للشروع في ذكر عدد من القصص، وكسر (إن) يدل على المحذوف وهو جملة القول وإضمار القول على إرادته في اللغة كثير وغني عن ذكر الشواهد.

وتقدير الكلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ فجاء فقال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ومن النحاة من قدر حالاً محذوفة أي: أرسلنا نوحاً قائلاً.

والجدير بالذكر: أن ابن كثير والكسائي قرءا «أني» بالفتح على إضمار حرف الجر أي: ملتبساً بذلك الكلام وعلى تقدير بـ«أني» والمعنى على الكسر[2].

ويقوي ما ذهب إليه الآلوسي شيوع هذا الأسلوب التعبيري الذي يتلخص في ذكر فعل القول ومقول القول في عبارة والاكتفاء بمقول القول في عبارة أخرى تجري في نفس السياق. ويعقب ذلك كسر همزة «إن» بعد فعل القول المحذوف وهو ما أشار إليه في «روح المعاني».

ونَخلُص إلى أنه لا يستوي البيان بذكر جملة النداء وحذفها، فإذا ذكرت هذه الجملة فإنها تضفي ظلالاً خاصة على الآية مما يكسبها خصوصية وتميزاً عن آية أخرى مشابهة لم تذكر فيها هذه الجملة.



---

(١) الآلوسي: روح المعاني مج٩ ص٢٢٧.

(٢) المصدر نفسه: مج٦ ص٢٣٦.

تعاقب ذكر شبه الجملة وحذفها

١ ـ تعاقب ذكر شبه الجملة «إلى أجل مسمى» وحذفها:

وردت في القرآن الكريم آيتان متشابهتان تتضمنان فكرة العبرة بتأخير العذاب وفصل الخصومة إلى يوم القيامة، إلا أن إحدى الآيتين زادت عن الأخرى بشبه جملة على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

والملاحظ أن الآية الثانية زادت عن الأولى بشبه الجملة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

ولهذه الزيادة أهمية في تحديد الأجل أو الموعد المضروب.

ورغم التشابه بين الآيتين فإن المقصود من كل منهما يوضحه السياق فالآية الأولى ورد فيها ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت: ٤٥]، فالآية كلام مستأنف مسوق لبيان أن قضية الاختلاف في شأن الكتب السماوية قديمة عند الأمم غير مختص بقوم محمد ﷺ، فلقد أتى موسى قومه بالتوراة فاختلفوا فيها بَيْن مصدق لها ومكذب بها وهذا حال قوم محمد ﷺ في شأن ما آتاه الله من القرآن الكريم من مؤمن به وكافر.

فالمقصود من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي في حق أمة محمد ﷺ ممن كذّبه وهذه الكلمة هي العبرة بتأخير عذابهم وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة. والدليل على هذا الموعد قوله سبحانه في سورة القمر آية ٤٦: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

ولولا هذه الكلمة لقضي بينهم في الدنيا باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبي الأمم السابقة رغم أن هؤلاء الكفار في شك من القرآن الكريم فقد أخر عذابهم[١].

أما الآية الثانية فقد سبقت بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

والمتدبر لهذه الآيات يدرك أنها تشير إلى أن جميع الأنبياء أمروا باتفاق الكلمة وإقامة الدين واتفقوا على دعوة التوحيد، وما تفرقت أممهم إلا بعد وفاة أنبيائهم.

وتشير الآيات أيضاً إلى أن الفُرْقَة ضلال وفساد وأمْر يُتَوّعد عليه وأنها لا تكون إلا عداوة وطلباً للدنيا والرياسة[٢] ثم ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، وهذه الكلمة هي وعده تعالى بترك معاجلتهم العذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: معلوم له سبحانه وتعالى هو يوم القيامة أو بانتهاء آجالهم أي: أعمارهم لولا ذلك لقضي بينهم

---

(١) الآلوسي: روح المعاني (١٢: ٣٨٢)، الزمخشري: الكشاف (٤: ١٩٨).

(٢) الآلوسي: روح المعاني (١٣: ٢٤-٢٥).

باستئصال المبطلين حين افترقوا. ثم يعقب ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الشورى: ١٤] أي: أهل الكتاب الذين عاصروا النبي ﷺ ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ من كتابهم فلم يؤمنوا به حق الإيمان.

وهذه الجملة اعتراضية تؤكد أن تفرقهم باق في أعقابهم منضماً إليه الشك في كتابهم مع انتسابهم إليه. فقد تفرقوا بعد العلم الحاصل لهم من النبي المبعوث إليهم المصدق لكتابهم كما تفرقوا قبله شكًّا في كتابهم فلم يؤمنوا به ولم يصدقوه[١].

ثم خاطب الله نبيه آمراً: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الشورى: ١٥].

فإذا كان الأمر كذلك في الأمم السابقة فادع إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنيفة واثبت على الدعاء كما ثبت نوح ومن بعده.

وهكذا ندرك أن المقصودين في آية فصلت أمة محمد ﷺ ممن كذبوه فلولا عدتهم بتأخير عذابهم لقضي بينهم في الدنيا.

وقد ذكر الأمم السابقة ليخفف الحزن عن الرسول ﷺ بتوضيح أن الاختلاف في شأن الكتب السماوية عادة قديمة غير مقتصرة على قومه.

وأما الآية الثانية فالمقصودون بها أهل الكتاب ممن عاصر النبي ﷺ وورثوا الكتاب من أسلافهم فهم في شك من كتابهم مع انتسابهم إليه كما أنهم في شك من دعوة محمد ﷺ رغم علمهم بصدقه، ولولا الوعد الذي وعد به أهل الكتاب بتأخير عقابهم إلى أجل معلوم عند الله لقضي بينهم[٢].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٤: ١٩٨).

(٢) الزمخشري: الكشاف (٤: ٢١٠).

ولا شك أن ذكر ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قد حدد الموعد المضروب لتأخير العقاب.

ونستطيع أن نعتبره دليلاً على محذوف مقدر لتحديد موعد حساب المكذبين من قوم محمد ﷺ، ويعزز هذا التقدير مواضع أخرى من القرآن الكريم ذكر فيها «الساعة» لتكون موعداً كما ورد في سورة القمر ٤٦ قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، و﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

٢ ـ تعاقب ذكر شبه الجملة (به) وحذفها:

١ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

الملاحظ أن الآية الأولى قد زادت عن الثانية بالجار والمجرور «به» وهو متعلق بالفعل «كذّب» الـمتصل بالواو. ودلالة «كذّبوا» في الآيتين: نسبوه إلى الكذب وهو صادق. أما تعلق الجار والمجرور فإنه يفيد الآية تحديداً فتكذيب الرسل هنا متعلق بالبينات. أما قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟﴾ بدون «به» فأكسبت الآية دلالة التكذيب بشكل عام دون ارتباط بالأمر المكذَّب.

والجدير بالذكر أن الفعل «كذّب» اطرد مجيئه في القرآن الكريم متعدياً بذاته ومتعدياً بحرف الجر الباء ودون أن يستوفي مفعوله على النحو التالي: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: ١١]، ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ٥]،

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [ص: ١٢، غافر: ٥، ق: ١٢، القمر: ٩]، ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤]، ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الحج: ٤٢].

ـ وفي آيتين متشابهتين أخريين ذكر وحذف إذ زادت إحداهما عن الأخرى بجار ومجرور على النحو التالي: قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠].

تدور الآيتان حول موضوع واحد وهو اتهام قوم موسى له بأنه ساحر أخذ عيون الناس بخدعة من خِدَعه حتى خُيّل إليهم أن العصا حية تسعى.

والملاحظ أن هذا القول قد عُزي إلى فرعون في سورة الشعراء وعزي إلى الملأ من قوم فرعون وهي الفئة المقربة منه في آية الأعراف. ولعل فرعون هو الذي قال أولاً فقال الملأ مثلما قال، حتى تُبلّغ الخاصةُ العامة بدليل قولهم له بعد أن استشارهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١١-١١٢][١]. ويبدو أن دلالة الفعل «تأمرون» هي تشيرون عليّ برأي، أو أن فرعون لما أبصر الآيتين من موسى تحيّر ولم يدر كيف يتصرف فنسي ادعاءه الألوهية فاستكان إلى الفئة المقربة من قومه من الدهشة والحيرة وكان على استعداد لتنفيذ ما يأمرون به[٢].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ١٣٤).

(٢) الزمخشري: الكشاف (٣: ٣٠١، ٣٠٢).

فالآمر أصبح مأموراً والملأ آمرين فقالوا له رأيهم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦] فما كان منه إلا التنفيذ والإذعان.

ولعل ما رآه من سحر موسى هو الذي سيطر على نفسه فتهيأ له أن ما يفعله موسى هو لهدف إخراج القوم من أرضهم ﴿بِسِحْرِهِ﴾. والباء قد أكسبت اللفظة دلالة الاستعانة فوسيلة موسى ـ كما يعتقد فرعون ـ لإخراجهم من أرضهم هو السحر.

أما قول الملأ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [الشعراء: ٣٥] فالإخراج من الأرض هو العمل الذي ركز على إشاعته بين عامة القوم مما يثير قلقهم فإلى أين يذهبون لو أخرجوا من ديارهم دون أن يعنوا بطريقة إخراجهم إن كانت بالسحر أو غيره.

ولعل نقل الخاصة الخبر إلى العامة لا يقتضي لفظة ﴿بِسِحْرِهِ﴾ فحذفت. والملاحظ أن الآية التي تسبق الآية الـمشابهة تستوفي حقها من اللفظ والمعنى وتعتمد آلياً على الاختصار.

ـ كمـا تطالعنا آيتان أخريان زادت إحداهـما عن الأخرى بالجار والمجرور بـ﴿بِالْحَقِّ﴾.

قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥].

قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٦].

لقد تعلق الجار والمجرور ﴿بِالْحَقِّ﴾ في ﴿كَذَّبُوا﴾ فجاء اللفظ على الأصل فقد كذبوا بالحق، واقتصر في الآية الثانية على ﴿كَذَّبُوا﴾ دون تقيـيد إلا أنه يوحي بتكذيبهم بالحق وإن كان مطلقاً بدليل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] فالمكذبون هم الذين يكذبون بالحق دون أن يحتاج إلى ذكر[١].

---

(١) الإسكافي: درة التأويل ص١٠٧، ص١٠٨.

٣ ـ تعاقب ذكر شبه الجملة «فيه» وحذفها:

١ ـ قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦].

مَنْ يقارن الآيتين يدرك أن لفظة الفلك قد تعلق بها جار ومجرور «فيه» في آية الجاثية ولم يذكر هذا الجار والمجرور في آية الروم.

وبتدبر الآية في سورة الجاثية ندرك أن «الهاء» في قوله: «فيه» عائدة إلى البحر وأن حرف «في» يحمل معنى الظرفية حيث يجعل الفلك تجري في البحر بتسخير من الله. وبالرغم من أن الآية في سورة الروم تتحدث عن جريان السفن وابتغاء الإنسان من فضل الله ووجوب الشكر عليه إلا أن التنبيه فيها على نعمة الرياح وإظهار آياته فيها. إذ سبق ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم: ٤٦] قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ [الروم: ٤٦].

فالرياح تبشر بالمطر وتلقح الأشجار وتجري الفلك بها، والمعروف أن السفن تجري في البحر بواسطة الرياح وهذا لا يستدعي وجود شبه الجملة فيه في آية الروم. وهكذا نجد من ضرورات تـمام المعنى ذكر «فيه» في آية الجاثية وعدم ذكرها في آية الروم.

ـ كما وردت آيتان متشابهتان إلا أن واحدة منهما زادت عن الأخرى بشبه جملة معطوفة على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣١].

وبالرجوع إلى سياق السورتين نتبين أن الآية التي في سورة العنكبوت هي خطاب من إبراهيم عليه السلام لكفار قومه ممن كذّبوه وأصروا على الكفر وخاصموه في الله وجادلـوه ومنهم نمرود بن كـنعان[١]، وهو أول من تجبر وادعى الربوبية إذ آتاه الله الملك فبطر. وقد سبقت الآية بقوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢١]. ثم تلاها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

ولشدة محاجة قوم إبراهيم له وانصرافهم عن قبول دعوته بعد قوله: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ فقد يتبادر إلى أذهانهم أنهم قادرون على الانفلات من هذا العذاب، فأخبرهم بأنهم لا يعجزون الله في الأرض كانوا أو في السماء ولا سبيل إليهم يهربون فيه من الله وعذابه.

وقد تعددت تفاسير هذه الآية وإن كانت كلها تدور حول عدم قدرتهم على الإفلات فقيل: لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه في الأرض الفسيحة ولا في السماء لو كنتم فيها بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾ [الرحمن: ٣٣]. وقيل: يحتمل أن يراد لا تعجزونه كيفمـا هبطتم من مهاوي

---

(١) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن (٢: ٢٦٦).

الأرض أو علوتم في البروج والقلاع الذاهبة في السماء بدليل قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجري عليكم فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء[١].

أما قوله تعالى في آية الشورى (٣١): ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو في خطاب المسلمين من قوم محمد ﷺ[٢] وقد سبقت الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

وعلى ذلك فإن قوله: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ما أنتم بفائتين ممّا قُضي عليكم من المصائب فلا تعجزون أمره الجاري في الأرض أن يجري عليكم فيصيبكم.

إذن فهذا القول متعلق بالمصائب التي تصيب الإنسان في حياته على الأرض وفي قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: عن ذنوب يتجاوز عنها ولا يؤاخذ بها ولا يكون ذلك للكفار أبداً، فإذا صح أن هذا الخطاب موجه إلى المسلمين أدركنا أنهم ليسوا من الجماعة التي تخاطب بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لأن مبدأ التصديق عندهم هو الأساس ومسألة الصعود إلى السماء أو معاجزة الله أو محاجّة النبي ﷺ ليست الهدف من الآية.

فاختلاف المخاطبين أدّى إلى اختلاف الخطاب ودلالته في كل من الآيتين.

وقد اختلف النحاة في تقدير إعراب شبه الجملة المعطوفة ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فقال الفراء: في الآية محذوف تقديره: «ولا مَنْ في السماء بمعجزين الله» بدليل قوله

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٣: ٤٣٥).

(٢) المصدر السابق (٤: ٢٢٠).

تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] أي: «مَنْ له» ويكون المعنى: «إن الله لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ولا أهل السماء في السماء إن عصوه»[١].

ولا يخفى ما في هذا التفسير من بعد وإغراق في تقدير المحذوف. وقال قطرب: ولا في السماء لو كنتم فيها، كما تقول: لا يفوتني فلان بالبصرة ولا هاهنا بمعنى لا يفوتني بالبصرة لو صار إليها. وقال المبرد: والمعنى «ولا مَنْ في السماء» واعتبَرَ «من» نكرة وليست موصولة و﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ صفة لها فأقيمت الصفة مقام الموصوف[٢].

ونرى أن هذا التقدير بعيد لأن «مَنْ» إذا كانت نكرة لا بد من وصفها، وصفتها كالصلة للموصول فلا يجوز حذف الموصول وترك الصلة، لذا يستبعد أن يحذف الموصوف وتقوم الصفة مقامها.

والرأي أن تقدير المحذوف لا داعي له وأن الناس خوطبوا بما يعقلون، ودلالة الآية أنكم لا تعجزون الله كنتم في الأرض أو في السماء أي: ولو كنتم في السماء كما قال: ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النساء: ٧٨]. وعلى ذلك فإن شبه الجملة ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ معطوفة على ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والجار والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلقان باسم الفاعل (معجزين)[٣]. وإن قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ وذِكْر الباء مع النفي يدل على تأكيد قدرة الله وضعف الإنسان وعدم قدرته على الفرار من عذاب الله أو قضائه لو حاول ذلك. وهذا ما تشير إليه آية العنكبوت.

وعلى الإنسان أن يدرك أن ما يصيبه لم يكن ليخطئه. وهذا ما تشير إليه آية الشورى.

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٣ : ٣٣٧).

(٢) المصدر نفسه (١٣ : ٣٣٧).

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٣ : ٣٣٧).

٤ ـ تعاقب ذكر شبه الجملة «لكم» وحذفها:

يلفت نظر المتدبر للقرآن الكريم آيـتان متشابهتان زادت إحداهما عن الأخرى بشبه الجملة «لكم» في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

ورغم أن الآيتين تتحدثان عن المؤمنين في موضوع الجهاد والغزو فإن فروقاً واضحة نلمسها بينهما تتلخص في الأمور التالية:

١ـ تضمنت سورة الأنفال وصف حال المؤمنين حين فاجأتهم كثرة مشركي مكة ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]. ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠]. ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

وتظهر دقة التصوير وجماله من خلال هذه الآيات إذ وصفت وصفاً حياً دقيقاً مدى الضيق الذي حل بالمسلمين في معركة بدر فلجأوا إلى ربهم يطلبون الغوث والعون، وتضرعوا إليه لقلتهم أمام المشركين فاستجاب دعاءهم بإمدادهم بالملائكة.

ـ ولتحديد دور «الإمداد» أو الملائكة ولبيان مصدر النصر الحقيقي استخدم القرآن الكريم أسلوب القصر لإثبات حكم إلـهي يريد للمؤمنين أن يتيقنوا منه وهو دور الملائكة في النصر ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ ﴾.

فليس للإمداد أي دور في حصول النصر بل هو مجرد «بشرى سارة» وتسكين للقلوب الواجفة وتهدئة للنفوس المضطربة وبعث للثقة، والناصر هو الله والمنصور من نصره الله[١].

ـ ولعل مجيء ﴿بُشْرَىٰ﴾ نكرة دون أن يتعلق بها ما يحددها يقصد به تبيان علة النصر وعلة وجود الإمداد ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فهي بشرى بكل ما تحمله هذه البنية من دلالة العموم والتركيز على فكرة التبشير بالنصر الآتي من عند الله.

ـ ولعل في تقديم ولتطمئن «به» أي الجار والمجرور على الفاعل ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ دلالة التركيز على علة الإمداد ودوره، فهو وسيلة تطمئن بها القلوب الخائفة. بينما ورد في آية آل عمران: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ فالتركيز على قلوب المخاطبين ليطمئنها بالبشرى.

وبالعودة إلى أسباب نزول آية آل عمران نتبين أنها نزلت في «غزوة أحد» وهي بعد يوم بدر، ويذكر الآية ما وقع للمؤمنين في اليوم الثاني «أُحُد» من باب التذكرة بما حصل في الماضي ليكون عبرة للحاضر والمستقبل، ولبيان ما يترتب فعلياً ومن خلال تجربة عملية على الصبر والتقوى كما حصل في غزوة بدر، وما يترتب على عدمهما كما حصل في بداية غزوة أحد.

والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. وبعد الوصف الدقيق لحال المسلمين في الآيات ١٢٤، ١٢٥ يعقب بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢: ١٩٥).

فالآية نزلت بعد أن نصرهم الله، وحملت أمراً من الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا يتوكلون إلا عليه ولا يفوضون أمورهم إلا إليه، ويذكرهم بما يوجب عليهم مثل هذا التوكل فقد يسر لهم الفتح يوم بدر وهم أذلة(١).

والخطاب موجه إلى النبي ﷺ من جهة، وللمسلمين من جهة أخرى، بدليل تذكيره عليه الصلاة والسلام بموقفه وما قاله للمسلمين يوم بدر. ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

وأراد بهذا الخطاب أن يؤكد على حقيقة أن الإمداد بالملائكة حينئذ لم يكن إلا «بشارة لهم» ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. فالبشارة خاصة بالنبي ﷺ والمؤمنين دون غيرهم ممن كان في ميدان القتال يدعو ربه فاستجاب له.

ونصل إلى أن مجيء «لكم» بعد بشرى حددت المقصودين، وخصصت البشرى لهم دون غيرهم، بأنهم سينصرون، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. لا من عند الملائكة، ولا من عند المقاتلة إذا تكاثروا(٢).

والجدير بالذكر: أن الخطيب الإسكافي يرى توحد المعنيين في الآيتين ويقدر جاراً ومجروراً «لكم» محذوفين في آية الأنفال، لكنها مقدرة مفهومة من السياق بدليل وجودها في آية آل عمران قال: (لأن الأولى جاءت على الأصل، والثانية أغنت عنها «فاستجاب لكم»؛ فعلم أن البشرى لهم)(٣).

---

(١) الزمخشري: الكشاف (١: ٤٠٢-٤٠٣)، أبو حيان: البحر المحيط (٣: ٥٢).

(٢) فضل عباس: لطائف المنان ص١٩٣.

(٣) الخطيب الإسكافي: درة التأويل ص٧١، ٧٢. وكرر الرأي نفسه الكرماني في البرهان ص٤٦.

ونَرى أن القياس يجب أن يكون على الأسبق في النـزول؛ لنقدّر من خلاله المحذوف في الآية التي نزلت فيما بعد.

والملاحظ أن آية الأنفال قد خلت من «لكم» وآية آل عمران ذكرت «لكم»؛ مما يجعلنا نميل إلى أن عدم ذكرها في الأنفال ذو دلالة مقصودة، مختلفة عن دلالة ﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ في آل عمران، وأن لوجود «لكم» مع «بشرى» دلالة خاصة مميزة عن دلالة «بشرى» فحسب.

ولعل تكرار الجار والمجرور وذكره في آية مرات عديدة يجعل حذفه من الآية الأخرى مسوّغاً ممكناً بدليل الآيتين المتشابهتين التي ورد فيها ذكر «لكم» مع الفعل «أقول» وحذفها من نص آية أخرى على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [هود: ٣١].

وجدير بالذكر أن آية الأنعام قد ابتدأت بفعل الأمر الموجه إلى النبي ﷺ ليقول: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مخاطباً كفار قريش.

وآية هود وردت في سياق مجادلة بين نوح عليه السلام والملأ من قومه؛ وهناك اختلاف في سبب القول، وإن اتفق اللفظ في الآيتـين؛ فقد اقترح كفار قريش على النبي ﷺ أن ينزل آيات، أو ينزل العذاب عليهم، أو يقلب الجبال ذهباً[١]، كما سألوه

---

(١) الآلوسي: روح المعاني مج٤ ص١٤٦ - ١٤٩، تفسير أبي السعود (٣: ١٣٧).

عن وقت الساعة، ووقت إنزال العذاب ونحوهما، فأمره الله، سبحانه وتعالى، أن يقول لمن يقترح عليه ذلك: أنا ما ادعيت أمامكم أن خزائن الله مفوضة إلي، أتصرف فيها كما أشاء، استغلالاً أو استدعاء، حتى تطلبوا مني أن أقلب الجبال ذهباً أو أنزل عذاباً.

وفي قوله: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ إضمارٌ للقول بين «لا» و«أعلم» في باب العطف على النحو التالي: ولا أقول لكم عندي خزائن الله ـ لا أقول أعلم الغيب، ويجوز أن نقدر الجار والمجرور أيضاً «لا أقول لكم أعلم الغيب»، والفائدة من العطف نفي إدعاء الأمرين.

وبتكرار ﴿لَآ أَقُولُ﴾ توكيد على نفي الادعاء، وعلى التبرؤ من دعوى الباطل، كما أن وجود «لكم» فيه من تخصيص الفئة الـمخاطبة بالعناية ما يزيد على قوله ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾..؛ فهم الذين اقترحوا، ولكنه لم يصرح لهم بما يشجعهم على سؤاله مثل هذه الأعمال.

فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيقه البشر من الرقي في السماء وغير ذلك.

وخلاصة ما أمر به النبي ﷺ أن يقوله لهم: إنه عبد يمتثل لأوامر الله، ويتبع ما أوحاه، ولا يدعي شيئاً مما اقترحوه عليه، ولم يقل لهم إنه ذو قدرة خارقة، حتى إذا لم ينفذ ما اقترحوه أقاموا الدليل على عدم صحة دعوته[1]. أما قوم نوح فقد رفضوا الاستجابة لدعوته صراحة، وذكروا الأسباب وحددوها يقول تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧].

---

(١) الآلوسي: روح المعاني (٤: ١٤٩)، تفسير أبي السعود (٣: ١٣٧).

أما الذين رفضوا دعوته بالتحديد فهم «الملأ»؛ أي: الأشراف؛ إذ إنهم لم يجدوا في نوح أية مزية تؤهله من بينهم بالنبوة.

ويستشف من قولهم التعريض له بأنهم أحق بالنبوة منه طالما أنه بشر مثلهم وليس ملكاً، وإن جاز أن يكون الرسول بشراً فهم يعتقدون أنهم أحق بالرسالة منه: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]. وقد رد عليهم قائلاً: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هو: ٢٩].

فأراد بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] دحض رأيهم، وإظهار فساد اعتقادهم في مواصفات الرسول، فليس شرطاً أن يكون الرسول ملكاً، وليس عيباً أن يكون بشراً عادياً من عامة الناس.

فقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ حتى تستدلوا على كذبي بعدم وجودها فالنبوة لا تنال بأسباب دنيوية، ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه[1].

وفي قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ بالنظر إلى قوله تعالى لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦] أنه لا يدعي علم الغيب، وإنما هو نذير لهم، وفي قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فلم يصدر عنه ما يدل على ادعائه «الملائكية» حتى تقولوا ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾. فهذه الثلاثة ليست من موانع النبوة، واتخذها أشراف قومه ذريعة إلى تكذيبه، مع أنه لا يدعي شيئاً منها.

---

(١) الآلوسي: روح المعاني مج٦ ص٢٣٦-٢٣٧، تفسير أبي السعود (٤: ٢٠٣).

ومن هنا لم يكرر قوله: «لكم»؛ لأن هدفه إبطال الادعاء، وليس توجيه القول إلى قومه كما في آية الأنعام؛ فهو يريد نفي الادعاء أنه ملك بشكل عام، دون أن يخصهم بالخطاب وتوجيه القول لهم كما سبق وقال النبي ﷺ لقومه.

ويرى الكرماني أن السبب في عدم ذكر «لكم» في آية هود أن شبه الجملة «لكم» قد ذكرت في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]. ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ [هود: ٢٧] ﴿أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] فلما تكرر لكم في القصة أربع مرات اكتفى بذلك[1].

ونرى أن السياق إذا احتاج إلى تكرارها فلا مانع، بل لا بد من وجودها، ولو قال: «ولا أقول لكم إني ملك» لجاز.. ولعل التبرير لعدم ذكرها يتمثل في أنها إما أن تقدر؛ لأنها فهمت من السياق، كما أشرت؛ وإما لأن الهدف التركيز على الحدث نفسه، دون أن يرتبط بتوجيه القول لأناس معينين. والله أعلم.

٥ ـ تعاقب ذكر شبه الجملة «له» وحذفها:

وتبدو أهمية ذكر الجار والمجرور لتحدي المعنى وإرادته دون غيره من خلال الآيات المتشابهة التالية التي زادت إحداها على الأخرى بالجار والمجرور «له» أو «عليه» على النحو التالي:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠].

---

(١) الكرماني: البرهان ص١٧٠.

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ [الزمر: ٥٢][1].

وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ [الشورى: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ﴾ [القصص: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

من يتدبر الآيات السابقة يدرك: أنها جميعاً تتحدث حول موضوع واحد وهو التوسعة في الرزق أو التضييق، وأن هاتين الحالين «من سعة العيش والضيق» هما بإرادة الله ومشيئته وتقديره وليس الفقر والغنى بيد الإنسان بأية حال بدليل إسنادهما إلى الله؛ فالله يبسط والله يقدر.

كما أن الفقر والغنى هما ابتلاء من الله بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، ومثلها (الفجر ١٦)؛ وليس في الغنى والفقر إهانة أو تكريم؛ وإنما ابتلاء من الله.

ويلاحظ أن الفعل «قدر» في هذه الآيات المتشابهات استخدم في ثلاثة أساليب:

أ ـ «يقدر له» إذ يعود الضمير الهاء على اسم ظاهر سابق: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ ﴾ وهو الاسم الموصول (مَنْ).

فإذا اقترن الفعل «يقدر» بالجار والمجرور «له» اكتسبت الجملة دلالة أن البسط

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٣: ٤٩٢).

والقدر (التضييق) للشخص نفسه في حالين مختلفتين؛ فإن شاء الله لشخص أن يبسط الرزق له بسطه، وإن أراد سلبه ما أعطاه، قدر له رزقه (ضيق عليه) فعل مقدر.

ب ـ ويحتمل أن الفعل المقترن بالجار والمجرور لدلالة أن الله يبسط ويقدر لمن يشاء؛ فيوضع الضمير موضع «من يشاء»؛ لأن «من يشاء» مبهم غير معين، فكأن الضمير فيهما مثله؛ فتكون الدلالة تعاقب الأمرين على واحد حسب الحال(١).

ـ وقد يقترن الفعل «قَدَر» بالجار والمجرور «عليه» ويحتمل الفعل في هذا الأسلوب دلالتين: إذا استوفى الفعل قدر عليه مفعوله «رزقه» فالتضييق يكون خاصاً بالرزق ويدل الفعل «قَدَر» مع «عليه» رزقه حينئذ على ضيق العيش؛ أي: الفقر، ويبقى المعنى نفسه إذا بني الفعل للمجهول ﴿قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾. أما إذا جاء الفعل «قدر» مع الجار والمجرور عليه دون ذكر الرزق، فالمعنى التضييق على العموم، لا في مجال الرزق فحسب؛ فقد تنتقل الدلالة إلى تضييق الخناق أو تضييق المكان وغير ذلك؛ فقد ورد في معاجم اللغة من دلالات قدر: قدر عليه الشيء يقدره وقدره عليه: ضيقه.

ومنها قوله تعالى في يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فسرها العلماء بالتضييق أي: فظن أن لن نضيق عليه؛ لأنه لا يعقل أن نبياً يظن أن الله لن يقدر عليه؛ بمعنى «التغلب» وقد ضيق الله على يونس أشد تضييق إذ جعله في بطن الحوت(٢).

د ـ إذا ورد الفعل «قَدرَ» «يقدر» في القرآن الكريم معطوفاً على «يبسط» دون

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٣: ٤٩٢)، (٤: ١٣٤).

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة قدر.

جار ومجرور، فإنه يعني: القبض بشكل عام؛ بعكس البسط، سواء أكان هذا القبض لمن بسط له فيما مضى أم كان البسط لمن يشاء لعباد آخرين.

بعد هذا نخلص إلى النتائج التالية:

ـ الفرق بين آية ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]. وآية: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ٦٢] و[سبأ: ٣٩]. إن المعنى المقصود في الأولى هو «يبسط لمن يشاء ويقدر لمن يشاء» والمبسوط له الرزق والمقدور له الرزق مختلفان، كل واحد منهما غير الآخر؛ أما في آية العنكبوت فقد سبقت الآيـة بقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ [العنكبوت: ٦٠]. وفي هذه الآية عموم، وارتباطها فيما بعدها يعطي الآية الثانية دلالة أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده «أحياناً» ويقدر له؛ أي (نفس الشخص)؛ أحياناً أخرى، ويكون الضمير في «له» عائداً على «من يشاء من عباده». والله أعلم.

أمّا إذا قدرنا محذوفاً مفهوماً من السياق ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ والمحذوف المقدر «له» فتصبح الدلالة للشخص نفسه[1]؛ وهذا ما ارتآه العز بن عبد السلام بأن «له» محذوفة لدلالة السياق عليها[2].

٦ـ تعاقب ذكر شبه الجملة «من غم» وحذفها:

وفي سياق الحديث عن عذاب الكافرين يوم القيامة تطالعنا آيتان متشابهتان زادت إحداهما عن الأخرى بشبه الجملة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾، على النحو التالي:

---

(١) في حالين مختلفتين في القبض والبسط وتساوت في ذلك دلالة الآيات (في القصص والعنكبوت والزمر والروم عند تقدير محذوف).

(٢) عز الدين بن عبد السلام: الإشارة ص٢٦.

قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

وبالعودة إلى سياق آية الحج يتبين لنا أن الآيات تتضمن وصفاً دقيقاً لأحوال أهل النار؛ فقد بدأها بقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ليلفت النظر ويشد السامع إلى خبرهم، ثم يقول سبحانه: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩-٢١].

ومن يتأمل هذه الآيات يدرك أن النار تشتمل عليهم من جوانبهم، كاشتمال الثياب وهي في غاية الإحماء والإحراق، ثم خص رؤوسهم بصب الماء المغلي عليها، ويضربون بالمقامع على رؤوسهم إذا حاولوا الخروج من النار[١].

ولعل هذا الوصف الدقيق لإحاطة النار بهم من جميع الجوانب وإحاطة العذاب وسد أنفاسهم عليهم لعل ذلك كله يستدعي وجود ﴿مِنْ غَمٍّ﴾؛ إذ إنهم لم يجدوا فرجة ولا متنفساً فكأنه قد غمّ عليهم بغمامة، وقد ورد في معاني الغم: (ستر الشيء) ومنه الغمام[٢] لأنه ساتر لضوء الشمس، ومن غم الهلال، وليلة غمة، والغم: الكرب، والغمامة: خرقة تشد على أنفس الناقة وعينيها، ومن هنا ندرك دقة التعبير بهذه العبارة

---

(١) أبو حيان الأندلسي: النهر الماد (٤: ١٨٥)، الراغب الأصفهاني: معجم مفردات القرآن الكريم مادة «غم».

(٢) الخطيب الإسكافي: درة التأويل ص٣١١، ابن منظور: لسان العرب مادة «غمم»، معجم مفردات غريب القرآن باب غمم.

﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ لوصف كل ما تحمله من دلالات. وقد ورد في إعراب ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ عند أبي حيان أنها بدل من قوله تعالى: ﴿مِنۡهَا﴾ أعيد معه حرف الجر وقد علقت الإعادة على إرادة الخروج، كما قدّر محذوفاً في قوله تعالى و﴿ذُوقُواْ﴾ أي: ويقال لهم: ذوقوا[1]؛ وهو بذلك يعتبر «من» لابتداء الغاية، ونراها للسببية بموجب تفسيرها وليس المعنى هنا لـ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ أي: من حزن وهم وإن كان أصل دلالة اللفظة هكذا فلما تقدم وصف ما أحاط بهم ذكر هذا الغم. والآية في سورة السجدة لم تشتمل مثل هذا الوصف الدقيق للعذاب إذ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

فإرادة الخروج وإعادتهم أيضاً واردة لكن محاولة الخروج ليست من أجل الخلاص من الغم الذي اقتضته آية الحج. وإنما للتخلص من العذاب بشكل عام والخروج من النار على اعتبار أنها مأواهم الذي لن يحتملوا الإقامة فيه والخلود فيريدون الخروج إلا أنهم يعادوا قبل المغادرة!

الآيات المتشابهة يكمل بعضها بعضاً بالذكر والحذف (شبه الجملة منّا).

قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصلت: ٤٩].

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ [هود: ٩].

---

(١) أبو حيان: النهر الماد (٤: ١٨٥).

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠].

إن المتدبر للآيات السابقة من سورتي فصلت وهود يدرك أنها تتحدث عن موضوع واحد وإن اختلفت الألفاظ وأنواع الجمل.

فهي تتحدث عن الإنسان وهو اسم جنس جامع وإن كان مخصوصاً به الكفّار فقد ورد في التفاسير أن المقصود بالإنسان هنا الوليد بن المغيرة إذ إن آية هود ٩، ١٠ نزلت فيه وقيل: نزلت في أبي أمية المخزومي.

وهناك العديد من أشباه الوليد وأبي أمية ينطبق عليهم وصف ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ فكثير ممن ينعم عليهم الله بالصحة والرخاء وسعة الرزق يتمتعون ويفرحون وينسون شكر الله، وينسبون النعمة لأنفسهم واجتهادهم وعلمهم فإذا سلبت منهم يئسوا من رحمة الله وكفروا وجحدوا ما كانوا به من خير.

كما أن الإنسان لا يسأم ولا يكل ولا يمل من دعاء الزيادة له من كل خير فيعطيه الله وينعم عليه فإذا أصابه شر يئس وقنط.

وبتدبر الآيات السابقة نلاحظ ما يلي:

١ ـ أن شبه الجملة «منا» قد ذكرت في الآية ٩ هود متقدمة على الرحمة، كما ذكر حرف الجر «من» قبل الظرف «بعد» في سورة فصلت، ولم تذكر في آية هود.

وتظهر بجلاء أهمية ذكر شبه الجملة «منا» في آية فصلت (٥٠) وضرورة تقديرها وفهمها من سياق آية هود (١٠).

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [فصلت: ٤٩] فإن ذكر «منا» يحدد مصدر النعمة

والرحمة بكل ما تحتويهما اللفظتان من دلالة على الصحة والأمن والجدة وغيرها بحيث يجد الإنسان لها لذة خاصة، في حين يدّعي الإنسان أن هذه النعمة حقٌّ يستحقه لما له من الفضل والعمل؛ فهي من كدّه ولا فضل لله فيها ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]. واللام هنا للاستحقاق؛ وقد تكون للملك فتدل على الدوام والملكية التي لا تزول اعتقاداً من الإنسان بدوام هذه النعمة عليه(١).

وفي آية هود اكتفى بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩]. لتدل على مصدر النعمة أيضاً ولئن أذقناه «نعماء» دون «منا» مع ضرورة تقديرها ولا ضرورة لذكرها حيث ذكرت في الآية.

ـ ويلفت النظر في قوله تعالى: ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ رحمة، أذقناه نعماء، من بعد ضراء مسته. حيث أسند الإذاقة إلى الله دون أن يسند المس؛ ولعل الحكمة في ذلك أن إذاقة النعمة للإنسان مقصودة، أما مس الضر فيأتي عرضاً. فما يصيبنا من خير فمن الله، وما يصيبنا من شر فمن عند أنفسنا.

ـ كما يلفت النظر استخدام لفظة ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ للرحمة و﴿مَسَّ﴾ للضر؛ ففي اللفظة الأولى دلالة ملابسة الرحمة والنعماء للذة الذوق، وكونهما مما يرغب فيه وملابسة الضراء بالمس المشعر بكونه في أدنى ما يكون من اللطف؛ مما يقوي عظم شأن الرحمة(٢)، وأن ما يصيب الإنسان من ضر ما هو إلا نموذج ﴿مَسَّ﴾ بلا يقاس بمستوى الرحمة، وبالرغم من ذلك إذا مسه الشر أو نزعت منه الرحمة فهو يؤوس كفور، أو يؤوس قنوط.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿نَزَعْنَٰهَا﴾ تعبير عن شدة تعلق الإنسان بالنعمة وحرصه عليها؛ فإذا سلبت منه أصبح شديد اليأس فيقطع الرجاء من عودة تلك النعمة لعدم

---

(١) الآلوسي: روح المعاني (١٣: ٥).

(٢) المصدر نفسه (٦: ٢١٦).

صبره وتوكله على الله؛ وكفور كثير الكفران لنعمة الله السالفة عليه. فالحصول على النعمة إنعام وفقدانها شديد على النفس (نَزْع).

ـ والإنسان سريع النسيان فإذا أعاد الله إليه النعمة من بعد ضراء مسته كصحة بعد مرض أو أمن بعد خوف يقول: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ [هود: ١٠]؛ أي ذهبت المصائب التي تسؤوني ولن يعتريني بعد اليوم أمثالها. فلا يرعوي ولا يتعظ بل يعود أسوأ مما كان عليه.

ـ وفي قوله: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾ تعبير عن عدم اعترافه بأن الله هو الذي أذهبها، ففرج كربه مما يؤدي به إلى أن يبطر ويفرح ويتعاظم على الناس؛ فينشغل بالنعم ولا يشكرها.

٧ـ تعاقب ذكر شبه الجملة (منكم) وحذفها:

وردت في القرآن الكريم آيتان تتعلقان بقضية الطلاق بين الأزواج وفيها بعض الأحكام الخاصة بالنساء وقد ختمت كل آية بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

إلا أن الآية الثانية من سورة الطلاق جاءت دون شبه الجملة «منكم»؛ وهي ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢].

وبالرجوع إلى كتب التفسير تبين أن المخاطب في آية البقرة هم الأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء عدة الطلاق؛ فلا يتركوهن يتزوجن من شئن من الأزواج، أو أن المخاطبين هم أولياء المطلقة كالأب أو الأخ ممنّ يعضلون[1] بناتهن أو أخواتهن المطلقات أن يرجعن إلى أزواجهن، وإن تراضوا المعروف.

---

(١) العَضْل: المنع بشدّة قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

والهدف من مثل هذا الخطاب أن يكون للناس جميعاً حتى لا يوجد بينهم عضل ويوعظ به الرسول ﷺ وكل واحد من أمته وأتباعه[١] ممن عضل أو يفكر بالعضل، ومنها استدعي الخطاب قوله تعالى ﴿مِنكُمْ﴾؛ ليتعلق الوعظ بكل من خوطب به من المؤمنين، ممن يحتمله دلالة الخطاب.

أما آية الطلاق، فهي خطاب عام يتعلق بأمر تخيير الرجل والمرأة المسلمين المطلقين، بعد أن تبلغ المرأة آخر عدة الطلاق، بالرجعة والإمساك بالمعروف أو المفارقة واتقاء الضرار؛ وهو أن يراجعها في آخر عدتها ثم يطلقها تطويلاً للعدة عليها وتعذيباً لها. ثم عقب بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ على وجه العموم كل واحد يطلق؛ فلا يضار المعتدة ولا يخرجها من مسكنها.. إلخ في قوله ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾. دون تخصيص جماعة من المؤمنين، كما في سورة البقرة التي خصت جماعة المعاضلين لزوجاتهم.

وقد أفادت زيادة شبه الجملة «منكم» في الآية الأولى تخصيص الوعظ لبعض المؤمنين بالله واليوم الآخر ممن عاضلوا زوجاتهم أو يفكرون في المعاضلة، وعدم ذكرها أفاد تعميم الوعظ لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر؛ ليعرف أحكام الطلاق والعدة والمراجعة والإشهاد.. إلخ.

٨ ـ تعاقب ذكر شبه الجملة «من دونه» وحذفها:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

---

(١) الزمخشري: الكشاف: (١: ٢٧٤).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

من يتدبر الآيتين السابقتين يدرك تشابهها مع زيادة شبه الجملة ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ في آية النحل.

وبالرجوع إلى دلالة «أشرك» في آية الأنعام، ودلالة «عبد» التي تعلق بها الجار والمجرور، ندرك أن الفعل «أشرك» مستغن عن ذكر المفعول به، وإن كان في الأصل متعدياً إليه؛ لذا لم يحتج الفعل إلى ذكر المفعول به لأن دلالة هذا الفعل تدل على إثبات شريك مع الله وينفي عبادته وحده؛ لذا لم يرد ما أشركنا من دونه[1].

أما في سورة النحل فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا﴾، ولفظة «عبد» لا تدل على المعبود إن كان واحداً أو معه شريك، وليس مستنكراً أن يعبدوا وإنما المستنكر أن يعبدوا (من دون الله) أو أن يشركوا.

فالإشراك يدل بذاته على أن المشرك يعبد شيئاً من دون الله، كما يحرّم شيئاً من دون الله، والعبادة لا تدل على المعبود، إن كان واحداً أو مع شريك؛ فاحتاج إلى تقييد بالجار والمجرور ﴿مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾[2].

وكذلك قولهم: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] لا بد من إثبات الجار والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾؛ هنا بينما لا حاجة لذكرها بعد قولهم: ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾؛ لأن الإشـراك دال على أن صاحبه يحرم شيئاً من دون الله، ولا يدل «عَبَدَنْا» على ذلك[3].

---

(١) الراغب الأصفهاني: معجم مفردات القرآن الكريم باب شرك، عبد.

(٢) الإسكافي: درة التأويل ص١٣٣، ١٣٤.

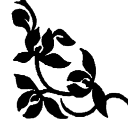
(٣) الكرماني: البرهان ص٦٦.




الفصل الرابع

تعاقب الذكر والحذف

في قصص القرآن الكريم




الفصل الرابع
تعاقب الذكر والحذف في قصص القرآن الكريم

إضاءة:

يلفت النظر في القرآن الكريم ذكر أحداث معينة تتعلق بشخصية محددة في موضع ثم تذكر بعض هذه الأحداث عن الشخصية ذاتها دون ذكر بعضها الآخر في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

ويتعاقب هذا الذكر والحذف ليشكّل ظاهرة شغلت القدماء إلا أنها شغلت الدارسين المحدثين أيضاً فكثر دارسوها وعدّوها ضرباً من بلاغة القرآن الكريم مثلما عدها القدماء ضرباً من إعجازه، وأطلق عليها الدارسون المعاصرون «القصص القرآني» وتنوعت الآراء واختلفت وجهات النظر حول ما سماه بعضهم «تكرارًا» في المشاهد والأحداث. ورفض آخرون فكرة التكرار وسموها «تفصيلاً» في موضع و«اختصار» في موضع، وإذا ما تكرر الذكر في القرآن الكريم فإنما يتكرر لأهداف سامية ومقاصد بليغة، فالقرآن الكريم لا يكرر كلامه إلا إذا حقق غرضاً بلاغياً[1].

أما سيد قطب فقد أقر بوجود التكرار والذكر والحذف في القصة القرآنية في مواضع من القرآن الكريم، وأعاد السبب في هذا الاختلاف إلى خضوع القصة في القرآن الكريم للغرض الديني مما أثر تأثيراً واضحاً في طريقة عرضها، بل في مادتها على النحو التالي:

---

(١) محمود السيد شيخون: أسرار التكرار في لغة القرآن الكريم ص٨٣.

إن من يتدبر القرآن يدرك أن القصة الواحدة في معظم الحالات يأتي ذكرها في مواضع عديدة من السور، ولكن هذا الذكر لا يعد تكراراً لأنه لا يتناول القصة كلها ـ غالباً ـ إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها.

أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادراً ولمناسبات خاصة في السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو تعرض هناك وفي طريقة عرضها كذلك[١].

ويجب أن نذكر دائماً أن القرآن الكريم كتاب دعوة دينية، وأن التناسق بين حلقات القصة التي تعرض والسياق الذي تعرض فيه هو الغرض المقدم، وهذا يتوافر دائماً، ولا يخل بالسمة الفنية إطلاقاً.

ـ هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقرراً في عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة، يتضح حين تُقرأ بحسب ترتيب نزولها.

فمعظم القصص تبدأ بإشارة مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة.

وقد تستمر الإشارات المقتضبة بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات ـ حتى إذا استوفت القصة حلقاتها، عادت هذه الإشارات في كل ما يعرض منها.

ولتوضيح هذا النظام نستعرض قصة موسى حيث تعاقب الذكر والحذف في الآيات التي وردت فيها القصة في السور المتعددة؛ فقد وردت في ثلاثين موضعاً، إلا أن تعاقب الذكر والحذف في الآيات المتماثلة ظهر بجلاء في سورة الأعراف، وطه، والشعراء، والنمل، وسورة القصص[٢].

---

(١) سيد قطب: التصوير الفني للقرآن الكريم ص١٢٦.

(٢) سيد قطب: التصوير الفني للقرآن الكريم ص١٢٨، ١٢٩.

ويرتب سيد قطب هذه السور الخمس حسب تاريخ نزولها بالأرقام التالية:

ترتيب السـور القرآني التي وردت فيها قصة موسى وفرعون حسب تاريخ النزول:

١ـ سورة الأعلى رقم ٨: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨].

٢ـ سورة الفجر رقم ١٠: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ * فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٠-١٤].

٣ـ سورة الأعراف ورقمها في النزول ٣٩: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٠٨] وتمتد أحداث القصة حتى الآية ١٥٦.

ثم: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

٤ـ سورة طه وترتيبها (٤٥).

٥ـ سورة الشعراء ورقم ترتيبها (٤٧).

٦ـ سورة النمل ورقم ترتيبها (٤٨).

٧ـ سورة القصص ورقم ترتيبها (٤٩).

١ـ قصة موسى عليه السلام:

وبمقتضى بدايات قصة موسى في القرآن الكريم وحسب ترتيب نزولها ندرك أن ما ذكر من بدايات لهذه القصة مذكور في سورة الأعلى؛ وهي الثامنة في ترتيب

النزول، على شكل إشارة صغيرة للصحف الأولى، ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾، وفي سورة الفجر وترتيبها في النزول ١٠، وفيها ذكر فرعون بدون موسى؛ وهي إشارة عابرة أيضاً.

ونلاحظ أن تفصيلات دقيقة عن قصة موسى قد وردت في الأعراف (٣٩) مبتدئة برسالة موسى وهارون إلى فرعون وقومه (آية ١٠٣)، ثم عرض موسى معجزته على فرعون، ثم تعليق الملأ على ما رأوا من موسى بأنه ساحر، ثم يحصل اللقاء والتحدي بين موسى والسحرة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]. ويتغلب موسى على السحرة فيؤمنون به؛ فيغضب فرعون ويصرخ مهدداً بتقطيع أطرافهم وبصلبهم، إلا أن تهديده يذهب أدراج الرياح؛ فقد أجابوه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥].

وتمتد قصة موسى في الأعراف، فتذكر من الأحداث تسليط العذاب على فرعون وقومه، واستغاثتهم بموسى، وكف الأذى عنهم، وعودتهم لتعذيب بني إسرائيل، وغير ذلك من التفصيلات حتى آية ١٥٩. وفي سورة طه: يبدأ تفصيل آخر من حلقة أسبق مما ذكر في الأعراف، على النحو التالي: قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ٩-١٢]. وتعرض الآيات تفصيلات دقيقة لتكليم رب العالمين لموسى، وتكليفه بالذهاب إلى فرعون، فيطلب منه أن يعزز موقفه بأخيه هارون، ويستجيب له الله مذكراً بأن نعم الله عليه متوالية؛ ومنها نعمة إنجائه وهو صغير، ثم يأتي التكليف للاثنين: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]. وتخوفاً من مواجهته فطمأنهما الله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ثم تسير القصة كما سارت في الأعراف، ويدور الحوار بين فرعون وموسى، ويوجه إليه وإلى أخيه أسئلة محددة:

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ * قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [طه: ٥٢-٥٦]. ثم يجمل عن آيات موسى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ * فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٍ مِّثۡلِهِۦ ﴾ [طه: ٥٦-٥٨].

ويأمر الله موسى قائلاً: ﴿ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ * وَأَلۡقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ * فَأُلۡقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٨-٧٠]. ويتكرر ذكر غضب فرعون على السحرة: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبۡقَىٰ * قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه: ٧١-٧٢]. ويطول قول السحرة الذين آمنوا مقابل قولهم المقتضب في سورة الأعراف: ﴿ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٥].

ولا يذكر من القصة وسائل تعذيب فرعون وقومه ويرد مشهد سير موسى إلى ربه منفرداً، دون قومه، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ [طه: ٨٣-٨٤].

وبذلك تزيد حلقة جديدة؛ وهي حادثة السامري والعجل وفتنته قومه به، وغضب موسى، ومحاولة هارون منع قومه من عبادتهم العجل، ومعاتبة موسى له، ومحاورة موسى للسامري وعقابه على ما فعل. ويختم القصة بقوله سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرًا ﴾ [طه: ٩٩]. وهذا الخطاب موجه إلى النبي محمد ﷺ؛ لتكون قصة التكذيب والعقاب عبرة لقومه.

ونلاحظ أن آيات سورة طه تذكر الميعاد بسرعة، وتغفل الميقات تماماً؛ فقد سبق أن ذكرت في سورة الأعراف.

وفي سورة الشعراء وترتيبها «٤٧» تبدأ القصة من حلقة التكليف لموسى ورسالته: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]. ويدور حوار سريع يطلب فيه موسى من ربه أن يرسل إلى هارون، وعبّر عن مخاوفه من ذنبه بقتل رجل منهم؛ وهذا حدث جديد في القصة، بالإضافة إلى تذكير فرعون لموسى بتربيته له صغيراً وبفعلته.

ثم يتكرر مشهد الحوار بين فرعون وموسى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]. وغضب فرعون وتهديده موسى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. فيرد موسى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٣]. وتتكرر الآيات في مشهد تحدي موسى السحرة: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥]. والملاحظ أن القول على لسان فرعون، وفي سورة الأعراف على لسان الملأ؛ وهو نخبة مقربة من فرعون وموضع مشورته: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٨].

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].

ويلاحظ أن قول السحرة في سورة الأعراف حين ساوموا فرعون، جاء على شكل جملة خبرية: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ بينما جاء في هذا الموضع على شكل استفهام، فزادت همزة الاستفهام وزادت لفظة «إذن»؛ وهي حرف جزاء وجواب.

وبذلك يتنوع الحوار ويختلف مع السحرة في السورتين، إلا أن القصة تتكرر إلى

أن «ألقي السحرة ساجدين»، وتتكرر آية: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩]. ويزيد تهديده بذكر اللام الموطئة للقسم أو لام التوكيد وبدخولها يتعين أسلوب سوف مع الفعل المضارع للتهديد، مع الاستقبال، ثم يعزز قوله ويفصله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩]. ويحذف من التهديد ما ورد في سورة طه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

وكذلك تختصر إجابات السحرة المؤمنين لـموسى، وتقتصر على قولهم: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١]. وتختفي تفصيلات ما قالوه في السورة السابقة على الرغم من تنوع الحوار في هذه السورة.

وفي المقابل تذكر الآيات حادثة غرق فرعون وأتباعه، بعد أن أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق فرقَيْن كل منهما كالجبل العظيم.

ويُعقّب بقوله سبحانه بالعبرة من القصة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧]. ويتضح بهذه النهايات مغزى القصة؛ إن الله ينصر أنبياءه في النهاية، ويهلك المكذبين؛ وذلك تثبيتاً لمحمد ﷺ وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان.

وفي سورة النمل وترتيبها حسب النزول ٤٨:

تبدأ قصة موسى برؤيته ناراً في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا

﴿تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ٧-١٠]. والملاحظ أن هذا الحدث قد ذكر في سورة طه بأسلوب استفهامي: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ [طه: ٩-١٠].

وفي هذه السورة (طه) فـقد سبق الاستفهام ذكر الحدث فقال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ﴾ وقد زاد في سورة النمل ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾، وفي سورة طه ذكر السبب: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ واكتفى بقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾، وقال في طه: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾. كما أنه في طه، طلب من أهله أن يمكثوا وألا يرافقوه بقية سيره، وبرر لهم ذلك، بينما في هذه السورة بدأ بالجملة ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾.

ويرى الدكتور محمد حجازي أن سبب الاختلاف الذي ورد على لسان موسى في الآيات السابقة عائدٌ للحالة النفسية التي مر بها عندما رأى النار؛ فحين رآها فكر فيما قد يكون عندها ومن حوله؛ فمرة تغلب خوفه على رجائه، ومرة استبشر، وثالثة توجس خيفة[1]، فانعكست حالته النفسية في أقواله؛ فمرة لجأ إلى استخدام «لعل» فهو يرجو، ومرة قال: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾، ثم ختم بقوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾؛ مما يدل على أنه غير واثق مما سيحدث له؛ فطلب من أهله البقاء في مكانهم، في آيتي طه والقصص؛ ولم يطلب ذلك منهم في النمل، بينما أكد في الآيات الثلاث على وجود نار: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾؛ وهذا ما أوضحناه في مبحث حذف جملة الطلب وذكرها.

كما اختلفت الآيات في التعبير عن كمية النار التي سيحضرها لأهله؛ فمرة قال: ﴿قَبَسٍ﴾، ومرة ثانية ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾، وثالثة ﴿جَذۡوَةٖ﴾.

وفي هذه الآيات وصفٌ لحالة موسى؛ فهو يرى العصا تهتز، فيولي مدبراً، ثم يناديه ربّ العالمين ويطمئنه بأنه مرسل، والمرسلون لا يخافون، وهم في حضرة الإله

---

(١) محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية ٣٤٣، ٢٩٦، ٢٩٨.

الأعظم. كما ذكر حدث المعجزتين على شكل أمر؛ ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ ﴾ بينما وردت على شكل استعراض للمعجزة أمام فرعون والملأ في الآيات السابقة.

وتغفل كل الأحداث التي سبق تفصيلها في السور السالفة الذكر لتقتصر على حلقة تكذيب آل فرعون والعقاب الذي حل بهم في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

وختم القصة بما يختمها في كل مرة: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

ونلاحظ تباين أسلوب السرد في المواجهة بين موسى وفرعون؛ فقد جاء في كل موضع متناسباً مع موضوع السورة؛ فقد اختصر المشهد في سورة يونس؛ لأن جو السورة كله إجمال وتلخيص، كما أن مشهد موسى مع السحرة جاء في أربع سور: تحدثت ثلاث منها بدقة عن الموقف من عدة زوايا، وركزت واحدة منها على مشاعر موسى عندما رأى إعجاب السحرة بأنفسهم: والثانية تصوير لمشاعر المشاهدين، وكيف استقبلوا الحدث، وهكذا لم يأت الحديث عن المشهد الواحد بصورة واحدة، بل جاء على أشكال مختلفة وبأساليب متباينة(١).

وفي سورة القصص وترتيبها في النزول ٤٩ تبدأ القصة من بداية السورة، ويبين سبحانه الهدف في هذه القصة: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص: ٣].

وتذكر حلقة جديدة من مظاهر علو فرعون واضطهاده لقومه، حيث يذبح الذكور ويبقي الإناث خوفاً من تحقيق نبوءة مقتله على يد طفل من بني إسرائيل، وأن الله سبحانه أراد أن يرفع من شأن المضطهدين وينصفهم، ويوقع بفرعون ووزيره

---

(١) محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية ص٣٥٤.

هامان ما كانوا يحذرون وشخصية هامان ذكرت هنا لأول مرة وإن كانت تذكر ضمناً في قوله سبحانه: ﴿ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾.

كما تذكر الحلقة الأولى التي لم تذكر من قبل بدقة وتفصيل؛ وهي مولد موسى، ووضعه في التابوت، وإلقاؤه في البحر، والتقاط آل فرعون إياه، وتحريم المراضع عليه، ومجيء أخته وإشارتها على فرعون بمرضع ـ هي أمه ـ ثم يكبر، كما تذكر الآيات حدث قتله للمصري بالتفصيل؛ وقد سبق ذكر هذا الحدث في حوار بين موسى ورب العالمين حين كلفه بالذهاب إلى فرعون؛ فعبر موسى عن خوفه بأنه قتل منهم شخصاً؛ فهو يخاف أن يقتلوه.

وتبدأ تفصيلات أخرى عن محاولة موسى قتل شخص آخر وتهديده إياه بإفشاء سر القِتْلة، الأولى ونصحه رجل بالهرب، فخرج إلى أرض مدين، والتقى ابنتي النبي شعيب، فسقى لهما بعد أن دار حوار بينهما وبين موسى؛ فأعجبتا بقوته وأمانته؛ فأشارت واحدة منهما على أبيها باستئجاره؛ فعمل مع شعيب، وزوّجه ابنته بشرط استخدامه ثماني سنوات أو عشراً. وبعد أن انقضت مدة الشرط انفصل عن شعيب واصطحب زوجه وذهب بها. ثم رأى النار؛ وهذه النار هي التي بدأت بها القصة في سورة طه، كما أوضحنا. ولكنها جاءت حلقة مكملة في توالي الأحداث المتسلسلة بالترتيب الدقيق للقصة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [القصص: ٢٩-٣٢]. فجاء الحديث مكرراً مماثلاً لما سبق ذكره مع

اختلاف في بعض ألفاظ الآيات مثل: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ وهنا ﴿جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وقوله في آية سابقة: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ وهنا ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾، و﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾، و﴿وَأَنْ أَلْقِ﴾ وفي آية سابقة ﴿نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ﴾، و﴿أَلْقِ﴾.

أما في سورة النمل ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ﴾ [النمل: ٨]، وفي طه ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١١-١٢].

وهكذا ندرك أن اختلاف الأداء هو نوعٌ من التلوين الأسلوبي الجميل في التعبير عن حلقات القصة وأحداثها، بل عن الحدث الواحد.

ويتميز حدثُ مواجهةِ موسى لفرعون في هذه سورة القصص بإضافات هي تهكم فرعون وسخريته أمام الملأ من موسى، وطلبه من هامان أن يبني له صرحاً.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، وتنتهي القصة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠]. وتنتهي القصة، كعادة القصص القرآني بالعبرة بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

وهكذا ندرك، بعد أن عرضنا بالتفصيل للآيات التي تعاقب فيها الذكر والحذف لبعض أحداث قصة موسى وفرعون، أن القصة نفسها في القرآن الكريم تصبو أولاً وأخيراً إلى الاعتبار بالأمم السابقة، من خلال تكرار هذه القصة في مواضع عديدة، تعرض بالقدر الذي يحقق الغرض منها؛ فتبدأ كل سورة من الحلقة التي تتفق مع هذا الغرض: فمرة يعرض القصة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها؛ وتعرض تارة كاملة بأدق تفاصيلها، وتكتفي تارة أخرى ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين

هذا وذاك حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك[١]؛ ففي بداية سورة القصص جعل قصة موسى تصديقاً للوحي ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [القصص: ٣]، وحين تبدأ أحداث القصة بالحلقة الأولى وهي ميلاد موسى كان الهدف منها بيان رعاية الله وكفالته لمن يختار وتحقيق مشيئته فيما يشاء فنجاة موسى ووجوده بين آل فرعون أنفسهم هي قيمة خاصة وإعداد لمهمة اختاره الله من أجلها، وكلما ذكر حلقة من حلقات قصته كانت لمغزى. وهذا المغزى أو التوجيه إما أن يذكر قبل القصة كما أوضحنا أو في نهاية القصة كما اتضح أيضاً وفي النهاية تهدف إلى تصديق الأنبياء ونصرتهم وإهلاك المكذبين وتعذيبهم.

٢ـ قصة لوط عليه السلام:

أما لوط فلا تعرض قصته إلا عند حلقة الرسالة وهي الحلقة الوحيدة التي تعرض من حياته فالعبرة كامنة فيها فتتضمن الرسالة والحوار مع قومه وتكذيب قومه ومجيء الملائكة إليه ثم إهلاك قومه.

وقد يكون تكرار أجزاء من القصة الواحدة في أماكن متعددة مع اختلاف بعض أجزائها مظهراً من مظاهر بلاغة القرآن الكريم؛ لأن من خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة وفي التكرار توكيد للفكرة وتأثير في النفوس[٢].

إن سر الذكر لجانب من جوانب القصة القرآنية في موضع وحذفه من موضع آخر يكمن في عرض هذه القصة على مراحل، لأنها لو عرضت مرة واحدة ثم كررت في مواضع أخرى، فقد يؤدي ذلك إلى التثاقل مما يشعر القارئ بالملل[٣].

---

(١) سيد قطب: التصوير الفني ١٢٨-١٢٩، في ظلال القرآن ٣/ ٥٧٤، ٥٦٧.

(٢) أمين الخولي: مناهج تجديد: ص٢٠٥.

(٣) عبد الكريم الخطيب: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٧.

والجدير بالذكر أن تعاقب الذكر والحذف في القصة الواحدة، وعدم ذكرها كاملة بكل تفاصيلها في موضع آخر ـ دفع الدكتور محمد خلف الله إلى الاعتقاد بأن القصة في القرآن الكريم لا تلتزم بالصدق التاريخي، وأن الخيال يلعب دوراً أساسياً في صنع أحداثها[١]، وقد غاب عن الدكتور خلف الله، كما أوضحنا سابقاً، أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يذكر من القصة في كل موضع، وتحدد ما يحذف في موضع آخر كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداة كما أن القرآن الكريم كتاب دعوة لا كتاب رواية، فهو قائم على الصدق والواقعية وليس على الخلق والتزويق[٢].

كما أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ ليقوم على السرد التاريخي، بل يختار من القصص الجزء الذي يتناسب وموضع السورة فيذكر ويحذف ما لا يتناسب مع الغرض القرآني، وينتقي من الأحداث ما يراه مناسباً[٣].

ومن أهم ما يجب أن يدركه كل من يقرأ القرآن الكريم ويتدبره أن المشاهد المحذوفة في القصص القرآني إنما هي مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم فمع إدراكنا لوجود الحذف إلا أننا لا نلمس خللاً في القصة أو انقطاعاً أو بتراً للأحداث، بل إن الحذف في موضعه يزيد النص بهاء وجمالاً، وقديماً علل البلاغيون الحذف بالإيجاز، إلا أن للحذف في القصص القرآني معنى جديداً، هو تدعيم التصوير الفني للقصة، وخلق جو العرض فيها بتكثيف أحداثها، كما أن له أغراضاً تختلف باختلاف النص وما يتطلبه المقام، فالحذف يكون لحكمة والذكر لحكمة[٤].

---

(١) محمد خلف الله: الفن القصصي، ص٥٠، ٥١، ٥٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٨، ٢٩٢، ٢٩٣.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ١/ ٦٤، تمام حسن: البيان في روائع القرآن ٥١.

(٣) محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية ٢٩٠، ٢٩١، انظر قصة نوح في سورة الأعراف ٥٩، ٦٤، وهود ٢٥، ٤٩ ونوح ١، ٢٨ ويونس ٧١، ٧٣ وتفاوت طول المشاهد وقصرها.

(٤) كاظم الظواهري: بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم ص٧، انظر التفصيلات ٢٠٤، ٢٠٦.

ومن الأمثلة على بروز سمة تعاقب الذكر والحذف في قصص القرآن الكريم ما ورد في سورة طه من قصة موسى، حيث تم الانتقال من الوادي المقدس وما جرى فيه من أحداث إلى بلاط فرعون وحوار موسى معه؛ فلاحظنا أن الانتقال بين المشهدين تم مباشرة على الرغم من اختلاف المكان والزمان، كما تم الحذف أيضاً في معظم الحوار الذي ورد بين رب العزة وموسى في الواد المقدس، وتم تلخيصه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠]، اعتماداً على ما ورد من ذكر التفصيلات في سورة طه كما جاء الـمشهد مختصراً جداً في سورة مريم فاقتصر على الأحداث المهمة (مريم ٥١، ٥٣).

ويجدر بنا ألا نغفل سبباً وجيهاً في تعاقب ذكر تفصيلات القصص واختصارها بحيث تقتصر على ملخصات بسيطة ولمحات وجيزة.

وهذا السبب الوجيه هو تاريخ النزول والغرض من ذكر هذه القصص.

فالغرض في المرحلة الأولى للدعوة كان يتمثل في تحذير مشركي مكة من العناد والإصرار على الباطل حتى لا يلاقوا مصير الأمم السابقة[١].

وكلما خطت الدعوة خطوة أخرى زاد الحوار وطالت المشاهد وذكرت التفاصيل لإثارة التفكير فيما وقع للأمم السابقة[٢].

ثم يعود القصص للحذف والاختصار والتلخيص لأنه أصبح معروفاً لدى المسلمين وأطلعوا عليه خلال السور السابقة.

وهكذا يبرز التناسب بين ما يذكر والغرض من ذكره وطريقة عرضه في السياق وترتيب الأحداث وتسليط الأضواء على العنصر المراد إبرازه[٣].

---

(١) التهامي نقره: سيكولوجية القصة ص٩١.

(٢) المصدر نفسه ص٩٢.

(٣) المصدر نفسه ص١٤١.

الخاتـمة

وهكذا حاولنا في هذا الكتاب ـ على قدر ما استطعنا ـ أن نتـناول بالدرس والتمحيص آيات من القرآن الكريم. تميزت بتعاقب الذكر والحذف والتشابه.

وقد بلغنا ـ بحمد الله تعالى ـ نهاية الـمطاف لخوض تجربة عميقة في رحاب كتاب الله المعجز؛ ذلك أن كل آية ـ وإن بدت مشابهة أخرى في سورة أخرى ـ فإنها تأخذ جو السورة التي وردت فيها؛ فيكون لذكرها في موضعها حكمة تختلف عن ذكرها في الموضع الآخر، وإن إدراك أسرار هذا التشابه في مواضعه المتعددة يحتاج إلى موهبة ومهارة وإحاطة بقواعد اللغة ودقائقها، وإلى صفاء ذهن وقوة إدراك، وقد تعجز أحياناً عن إدراك هذه الأسرار، إلا أن هذا كله لم يحل دون مواصلة البحث من أجل الكشف عن أسرار البيان القرآني ومواطن الإعجاز فيه.

ويمكننا تلخيص ما توصلت إليه الدراسة في النتائج التالية:

١ـ إن تعاقب ذكر جواب الشرط وحذفه في آيات القرآن الكريم ظاهرة أسلوبية في الجمل الشرطية المتصدرة بـ«إذا»، و«لولا»، و«لما»؛ وقد أدى هذا الأسلوب بالنحاة القدماء إلى عد الواو زائدة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وحملهم على هذا الاعتبار خلو الآية المشابهة من الواو في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١] واعتقادهم بضرورة وجود جواب شرط.

وقد تنبه المفسرون إلى ظاهرة حذف جواب الشرط؛ فقدروا لها جواباً محذوفاً، وعلل بعضهم هذا الحذف بأنه وسيلة تشويق قصده الأسلوب القرآني ليفسح المجال لتقدير الجواب، كما يتخيله القارئ.

والرأي عندنا أن هذا الأسلوب ليس شرطاً محذوف الجواب؛ وإنما هو باب آخر من صور التعبير في العربية، لا يجري على نمط أساليب الشرط المعروفة، ولا على أساليب التقدير المألوفة، وإنما هو باب ثالث لا تنتهي آفاقه البلاغية عند حد.

٢ـ قضية الزيادة والتكرار قضية قديمة حديثة تناولها النحاة وتبعهم بعض المفسرين القدماء، ولم ينكرها بعض الدارسين المعاصرين، ورفضها دارسون معاصرون آخرون؛ لأن القول بالزيادة لا ينسجم مع الذوق القرآني؛ فوجود الحرف ضروري للدلالة، وحذفه يخل بالنظم القرآني.

وتقدير الحرف زائداً، أسوة بالآية التي تشابهها حين تخلو من الحرف هو تقدير خطأ؛ ذلك لأن لوجود بعض الحروف التي شهد النحاة بزيادتها دلالات نفسية تشكل ظاهرة ملحوظة؛ فحرف «أنْ» بعد «لما» الحينية ليس زائداً، بل مؤذن بأنّ النتائج التي يتشوق إليها الإنسان تذكر مباشرة دون تريث أو تمهل؛ بل إن باستطاعة المرء أن يستخدم هذا الأسلوب القرآني إذا أراد الدلالة على أن جواب لما يأتي مزامناً تماماً لفعل الجواب بعدها، وأن الحدثين يجريان معاً دون مهلة أو تراخ؛ فهي ليست زائدة بل هي عنصر تركيبي ذو وظيفة محددة. فالفرق واضح بين لمّا أن، ولمّا بدون أن في الدلالة.

وقد يعترض معترض على هذا الرأي منطلقاً من أن عدد مواضع ذكر «أن» في القرآن الكريم بعد لما الحينية ثلاثة، في حين أن عدد مواضع حذفها مئة وخمسون مرة؛ مما يجعلهم يسوّغون اعتبارها زائدة بالانطلاق من قاعدة اعتماد الأشيع، لدرجة أنهم يحكمون على ما ورد مرة واحدة في القرآن الكريم، مثل اقتران خبر إن بالباء أو اقتران اسم ليس بالباء بالغريب أو الشاذ.

ولسْنا مع مَنْ يعتمد مبدأ الكثرة أو القلة في الشواهد القرآنية معياراً وإن كان ذلك وارداً في كلام العرب المنظوم والمنثور الذي يُحتج به؛ لأن العرب اتخذت منها

شـواهد على قواعد اللغة، فورد منها الشائـع والنادر والشاذ؛ أما شواهد القرآن الكريم فلا تقاس بالقلة والكثرة قياساً على ما يؤخذ من كلام العرب من القواعد؛ فما دام القرآن الكريم قد استخدم أسلوباً ما، ولو مرة واحدة؛ فهذا دليـل على أنه أسلوب عربي يحتج به، بغض النظر عن قلة وروده أو اطراده في القرآن الكريم.

٣ـ ليس في القرآن الكريم ما يعد أسلوباً شاذاً أو غريباً بحجة كونه غير مشهور عند العرب، أو لم يرد إلا مرة واحدة؛ فقد تبنت الدراسـة عدم القول بوجود الشذوذ في القرآن الكريم، وعالجت في ضوء ذلك تعاقب الذكر والحذف في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة: ٨٩]، إذ إن كل المواضع في القرآن الكريم جاءت مسبوقة بمن إلا في موضع واحد وهو آية التوبة على الرغم من اطراد الأول وندرة الثاني، إلا أن خلو الآية من حرف الجر «من» يحمل دلالة أسلوبية مختلفة وأسلوباً تعبيرياً ثانياً، لا نستطيع إلا أن نحكم بوجوده وإمكانية استخدامه، كما أن خلو هذه الآية من الحرف لا يسوغ اعتباره زائداً في المواضع الأخرى.

وعلينا أن نذكر دائماً أن القرآن الكريم جاء ليحاكي أساليب العرب دون أن يحويها جميعاً بالضرورة، ومن جهة ثانية فقد يوجد في القرآن الكريم من أساليب العرب ما لم يرد به إلينا شاهد من كلامهم.

٤ـ إن ما سماه النحاة ضمير الفصل ورد في القرآن الكريم في آيات عديدة دون أن يفصل بين الاسم والخبر المعرفة، بل ورد بين اسم وخبر نكرة، وتعاقب ذكره وحذفه بين الاسم والخبر والجملة الفعلية؛ مما يدل على أنه لم يذكر لـمنع اللبس أو للفصل بين المبتدأ والصفة.

وبالدراسة المتعمقة لدلالة هذا الضمير في الآيات التي تعاقب فيها الذكر والحذف يتبين أنه يدل على توكيد المعنى توكيداً يكاد يبلغ به درجة القصر؛ أي قصر المبتدأ أو ما

هو في حكمه على الخبر؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، ثم يقول في موضع آخر: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]. كأنه الفوز الذي لا فوز غيره، ولو كان الضمير لرفع اللبس والفصل، كما اعتبره القدماء، لذكره الأسلوب القرآني في الآية التي خلت منه.

٥ـ من الأساليب التي ركزنا عليها «الأسلوب العدولي»، وقد ارتأت الاستعانة بهذا الأسلوب البياني للتخلص مما سماه النحاة «زائداً» في القرآن الكريم في الآيات المتشابهة، ونعني بـ«الأسلوب العدولي» كما سمـاه المحدثون؛ أو «التضمين» كما سماه القدماء؛ إشراب كلمة معنى كلمة لتقع موقعها وتتبوأ موضعها في الكلام، وتؤدي وظيفتها النحوية، ويعتبر وسيلة لتجريد القرآن الكريم مما لا يليق به، وبهذا الأسلوب نضيف إلى معنى الكلمة معنى آخر، منسجماً مع المعنى الأول، مكملاً له؛ فالعدول عن دلالة منع (من المنع) إلى منع (من المنعة) أو حملك أو اضطرك في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] يجعل الآية منسجمة لفظاً ودلالة وتعفي من القول بزيادة (لا) في ضوء قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ بمعنى جرّأك وحملك كما أنه يعفينا من تقدير محذوف، وزيادة مذكور، في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]. إذ عد النحاة «أن» زائدة، وقدروا (مالك خراجاً)؛ فإذا حملنا «مالك» على المعنى (العجب) لم نلجأ إلى مثل هذا الشطط في التقدير.

٦ـ ومن النتائج التي كشف عنها الكتاب أن استخدام القرآن الكريم لأسلوب (إذن) لم يأت مطلقاً مع فعل مضارع، فيعمل فيه الحرف نصباً على اعتبار (إذن) حرف نصب؛ وإنما وردت في كل موضع حرف جواب وجزاء، وقد اشترط النحاة لإعمالها بالمضارع تصدرها وكون المضارع للمستقبل ومتصلاً بها غير منفصل بفاصل، ولم تتوفر هذه الشروط في أي موضع من مواضع (إذن) في القرآن الكريم.

وهذا يعزز رأينا أنه ليس شرطاً أن يحتوي القرآن الكريم على كل أساليب العرب، كما أن القواعد النحوية التي جردها النحاة لا تنطبق على كل شواهد القرآن الكريم.

٧ـ ومن النتائج التي أبرزها الكتاب الكشف بعمق عن بعض الأساليب التي عزز القرآن وجودها، ومن هذه الأساليب:

أ ـ أن يقترن خبر إن بالباء كاقتران خبر ليس بها مع اطراده في الثانية وندرته في الأولى، مما جعل النحاة يجهدون أنفسهم في تأويل الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، فقدروا أليس الذي خلق السماوات بقادر، وجوزوا وجود الباء؛ لاشتمال النفي في أول الآية على أن وما في خبرها، ولم يكتفوا بذلك بل لجأوا إلى أن يسلكوا «إن» مسلك «ليس».

والرأي أن اللجوء إلى هذا التأويل نوع من التعسف في التقدير؛ فالجملة (إن الله الذي خلق السماوات بقادر) جملة مثبتة تماماً، وإن كانت في سياق استفهام منفي؛ مما يعزز قولنا: إنه في مجال الجحد يقترن خبر إن بالباء مثلما يقترن خبر «ليس» وما بها، وعلى ذلك نستطيع القول بأن أسلوب «إن» إذا خرج إلى الاستفهام المنفي واقترن خبرها بالباء كان للتقرير والإثبات.

ب ـ ومن الأساليب التي عزز القرآن الكريم وجودها وأبرزها الكتابُ أيضاً أسلوب اقتران اسم «ليس» بالباء في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]. مع وجود آية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فمال النحاة إلى اعتبار «البر» خبر «ليس» مقدماً، ومال بعضهم إلى اعتبار «البر» اسماً لاقتران الخبر بالباء الزائدة على حد قولهم.

ونرى أن «الباء» هنا ليست زائـدة، بل ظرفية داخلة على مصدر مؤول أي: (بإتيانكم)، وأن البر اسم «ليس» (وبإتيانكم) شبه جملة خبر ليس.

وباستطاعتنا اعتبار ﴿أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾ مصدراً منزوع الخافض قد ترخص فيه بحذف حرف الجر (الباء).

٨ـ ومن بين قضايا تعاقب الذكر والحذف التي شغلت أذهان النحاة وأكد الكتاب على وجودها، تعاقب ذكر الفاء وحذفها في آيات متشابهة في القرآن الكريم، مما دفعهم إلى تقدير أسلوب شرط محذوف، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٧]. فقالوا: تقدير الكلام إن طلبت تأجيل الأجل فإنك من المنظرين، وقد حملهم على هذا التقدير خلو الآية المشابهة من الفاء، مع أن الترخص في دخول الفاء على جواب الشرط وارد في القرآن الكريم، كما في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. كما أن شواهد حذف الفاء في القول ومقوله تكثر حتى ليكاد ذلك يرقى إلى مرتبة الاختيار الأسلوبي الذي يتجاوز الوصف بالترخص؛ مما يعني أن حرف الفاء (الرابط) قد يذكر في آيات ويحذف من آيات أخر مشابهة من باب الترخص والاختيار الأسلوبي، إلا إذا كان عدم ذكره قد جرى في موضع يستحسن أن يذكر فيه؛ ومن ذلك حذفه قبل القول؛ إذ تكون الفاء ضرورية، لأن علاقة القول الترتيب والتعقيب، وقد تحذف طلباً للخفة، أو اختصاراً، أو اقتصاراً، أو تجنباً للحشو.

٩ـ أن الأسلوب القرآني قد أعطى الموصولات مثل: الذي، والتي، والذين تلك الموصولات التي لا تنتقل إلى الشرط، كما تنتقل الموصولات المشتركة: «من» و«ما» أعطاها عند الإخبار بها بعض ما تعطاه الموصولات التي انتقلت إلى الشرط في مجال الجواب، فإذا أخبر بالذي أو التي اقترن الخبر بـ«الفاء» في المواضع التي يلزم فيها «الفاء» جواب الشرط، بما فيها من شركة في أصل الموصولية أو الإبهام؛ إذ يتوقف فيه وقوع

خبر الذي على وقوع صلته، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]؛ فإذا لم تذكر الفاء لم يكن الموقف محتاجاً إليها.

١٠ـ أن تصدير بعض الآيات بالفعل «قل» متلواً بفعل أمر مقترن بالفاء يعطي الجملة معنى التهديد والوعيد، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، ولم يخف ذلك عن القدماء؛ فقد أسموا هذه الفاء (الفاء الفصيحة).

كما أن تصدير الآيات بـ«سوف» مقترنة بالفاء ومتلوة بفعل مضارع يعطي الجملة دلالة التهديد أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣] و﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩].

فإذا لم يقترن بالفاء لم يحمل دلالة التهديد، بل كان على الإخبار فقط «سوف تعلمون».

١١ـ من الأساليب التعبيرية الجميلة في آيات تعاقب الذكر والحذف أسلوب «الحمل على المعنى» أو «المشاكلة اللفظية»، وقد التفت القدماء إلى هذا الأسلوب وعززه البحث وعمقه، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥].

وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

وقوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩].

فالإجابات مسوقة على وتيرة واحدة على الرغم من ذكر «اللام» في السؤال الأول «لمن»، وخلو الآيتين الأخريين في الاستفهام منه «مَنْ» وذكر اللام في الإجابتين على وتيرة الآية الأولى «لله» من باب الحمل على تقدير «لِـمَنِ الملك؟» لله، فالإجابة

الأولى على الأصل، والثانية والثالثة على المشاكلة والحمل على المعنى؛ وهذا ما أوضحناه في ثناياه البحث.

١٢ ـ ومما يعد من النتائج التي أكدها الكتاب أن اقتران الظرف بـ«من» يكسبه دلالة التحديد وابتداء الغاية الزمانية والـمكانية؛ فلا يستوي التعبير في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠] و﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ٨٩]. ولا تستوي دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٤٥]. وعلى ذلك فالقول بزيادة «من» في ضوء الآيات التي حذفت منها قبل الظرف قول مرفوض؛ والرأي أنه كلما أغرق الزمان في البعد، وصعب تحديده جاء خلواً من حرف الجر «من»؛ فإذا ذكر «من» تقيدت الفترة وتحددت.

١٣ـ هناك ملحظ جدير بالإشـارة إليه مستخلص من آيات تعاقب الذكر والحذف؛ وهو أن الحذف لبعض الأحداث في موضع وذكرها في موضع آخر لا يكون للإيجاز؛ كما هو معروف؛ وإنما يرتبط بأغراض ذات علاقة بالسورة نفسها وبمكان نزولها، وقد يكون الحذف أحياناً لتحفيز خيال القارئ حتى يعمل على استكمـال التفاصيل، وتبين بعض الأحداث؛ إضافة إلى أن للحذف في موضع علاقة بالذكر في موضع آخر؛ فما يذكر لا يعاد الحديث عنه تماماً باللفظ والمعنى؛ فلم تذكر قصة كاملة في موضع ثم ذكرت باللفظ نفسه في موضع آخر، بل إن ما يتكرر ذكره منها مشاهد يسيرة يتم عرضها بأكثر من صورة، ثم تستكمل المشاهد بما ينسجم مع الغرض في تلك الصورة، مع احتفاظ كل سورة تتم فيها الإشارة إلى هذه القصة بجو خاص، كما أن كل آية ـ وإن بدت مشابهة لآية أخرى في سورة أخرى ـ فإنها تأخذ جو السورة التي

وردت فيها؛ فيكون لذكرها في موضعها حكمة تختلف عن ذكرها في الموضع الآخر.

كما أن ما يتكرر في المواضع المتفرقة ليس سرداً تاريخياً للأحداث، فمن يتدبر مواطن التكرار يتبين أن لكل ذكر هدفاً سامياً وعبرة مقصودة.

١٤ـ ومن الملَاحِظ الجديرة بالإشارة إليها أيضاً أن دراسة ظاهرة تعاقب الذكر والحذف في ضوء المنهج الجمالي تجعل الباحث يركز على إبراز مواطن الجمال القرآني، دون الانشغال بالقضايا النحوية الجانبية أو بخلافات المفسرين ويبيّن مواطن الإعجاز القرآني أيضاً.

١٥ـ ومما نوه إليه الكتاب تصرف الأسلوب القرآني في ذكر «الهاء» وحذفها مع ضمير الرفع المخبر عنه باسم الإشارة في آيات القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤].

ويلفت النظر أن الأسلوب القرآني أعطى «هاء التنبيه» من تباين الرتبة ومن الذكر والحذف ما يدل على دقة التعبير؛ فإذا ذكرت «الهاء»؛ فهي في موضعها المناسب، وإذا حذفت فإن السياق لا يقتضي وجودها، مما عزز القول بأن تباين الصيغة يحدث تبايناً في الدلالة.

والحمد لله رب العالمين

ثبت المصادر والمراجع

أ ـ المصادر

ـ **ابن الأثير**: أبو الفتح ضياء الدّين نصر الله بن محمّد الموصليّ، (ت٦٣٧هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢ مج، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م.

ـ **الإسكافيّ**: أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، (ت ٤٢٠هـ = ١٠٢٦م): درّة التنزيل وغرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، ط٢، ١مج. تصحيح ومقابلة مخططات ونسخ معتمدة، عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، لبنان ١٩٧٧م.

ـ **الأصفهانّي**: الرّاغب الأصفهانّي (ت٥٠٣هـ = ١١٠٩م): معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ط٢، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت، لبنان. (د.ت).

ـ **الآلوسي**: أبو الفضل شهاب الدّين السيد محمّد البغداديّ، (ت ١٢٧٠هـ = ١٨٥٢م): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط١، ١٥ مج، ضبطه وصحّحَهُ عليّ عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

ـ **ابن الأنباري**: كمال الدّين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن سعيد النحوي، (ت٥٧٧هـ = ١١٨١م):

ـ الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، ٢مج، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م).

ـ البيان في غريب إعراب القرآن، ٢مج، تحقيق الدكتور طه عبد الحميد طه، مراجعة مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.

ـ **الأندلسي**: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، (ت٧٤٥هـ):

ـ البحر المحيط، ط١، ٨ مج، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٣هـ = ١٩٩٤م.

ـ النهر الماد من البحر المحيط، ٦ مج، تحقيق د. عمر الأسعد، دار الجيل، بيروت ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.

ـ **الباقلانيّ**: أبو بكر محمد بن الطيب بن القاسم، (ت٤٠٣هـ) إعجاز القرآن، ط٣، ١ مج، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.

ـ **التبريزيّ**: ولي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله العمري، (ت بعد ٧٣٧هـ) مشكاة المصابيح، ط٢، ٣مج، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

ـ **الجرجانيّ**: عبد القاهر الجرجاني، (ت٤٧١هـ) دلائل الإعجاز في علم المعاني، ط٢، تحقيق الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ = ١٩٨١م.

ـ **ابن جنّي**: أبو الفتح عثمان بن جني، (ت ٣٩٢هـ) الخصائص، ط٢، ٣مج، وتحقيق محمد علي النجار ـ دار الهدى للطباعة والنشر، بيوت، لبنان [د.ت].

ـ **الرّازي**: محمد بن عمر الرازي، (ت٦٠٦هـ) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق وتقديم إبراهيم السامرائي ومحمد بركات أبو علي، دار الفكر، عمان ١٩٨٥م.

ـ **ابن رشيق**: أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي، (ت٤٥٦هـ = ١٠٦٤م) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ط٢، ٢ج في ١مج، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة دار السعادة، مصر ١٣٨١هـ ١٩٦٣م.

ـ **الرّمّاني**: أبو الحسن علي بن عيسى، (ت٣٨٤هـ) معاني الحروف، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ومحمد بركات أبو علي، دار الفكر، عمان ١٩٨٥م.

ـ **الزجّاج**: أبو إسحاق إبراهيم بن السري، (ت٣١١هـ = ٩٢٣م) إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة العامة للتأليف، القاهرة ١٩٦٣م.

ـ **الزجاجي**: أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، (ت٣٤٠هـ = ٩٥١م):

ـ الإيضاح في علل النحو، تحقيق د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ١٩٧٩م.

ـ حروف المعاني، ط١، تحقيق الدكتور علي توفيق الحمد، دار الأمل، إربد، الأردن، ١٤٠١هـ = ١٩٨٤م.

ـ اللامات، تحقيق الدكتور مازن المبارك، طبعة مجمع اللغة العربية، بدمشق، ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.

ـ **الزَرْكَشيّ**: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهاء، (ت ٧٩٤هـ = ١٣٩١م) البرهان في علوم القرآن ٤مج قدم له مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

ـ **الزّمخشريّ**: الإمام أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد، (٥٣٨هـ = ١١٤٣م) الكشّاف عن حقائق

غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤مج، رتبه وطبعه وصححه محمد عبد الله شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.

ـ **أبو السّعود**: محمد بن محمد العمادي، (ت ٩٥١هـ = ١٥٤٤م) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ٩ج في ٤ مج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د، ت).

ـ **السكّاكي**: أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، (ت٦٢٦ هـ) مفتاح العلوم، ط٢، ضبط نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

ـ **سيبويه**: أبو بشر عمر، (ت) الكتاب ط٢، ٢مج، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٨٧هـ = ١٩٦٧م.

ـ **السيوطي**: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت ٩١١هـ = ١٥٠٥م):

- الأشباه والنظائر في النحو، ٩مج، تحقيق الدكتور عبد العالم سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

ـ الإتقان في علوم القرآن وبالهامش إعجاز القرآن للباقلاني، ط٣ ٢مج، شركة مكتبة مصطفى البابي، ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م.

ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن، ٢مج، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٦٩م.

ـ **الشوكاني**: محمد بن علي بن محمد، (ت ١٢٥٠هـ = ١٨٣٤م) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ٥مج، طبعه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

ـ **الصبَّان**: محمد بن علي حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ٤مج، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البالي الحلبي، [د.ت].

ـ **الطبرسي**: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن، (المتوفي في القرن السادس) مجمع البيان في تفسير القرآن، ١٠ج في ٥مج، تصحيح فضل الله الطباطبائي اليزدي، منشورات شركة المعارف الإسلامية [د.ت].

ـ **الطبري**: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت ٣١٠هـ = ٩٢٢م) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط٢، ١٠مج، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

ـ **ابن عبد السلام**: عز الدين عبد العزيز: (ت ٦٦٠هـ = ١٢٦١م):

ـ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، المكتبة العلمية، مطابع دار الفكر، دمشق [د.ت].

- فوائد في مشكل القرآن، ط٢، تحقيق السيد رضوان علي الندوي، دار الشرق للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

- **العسكري**: أبو هلال الحسن بن سهل، (ت ٣٩٥هـ = ١٠٠٤م) الصناعتين، تحقيق د.مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، بيروت، [د.ت].

- **ابن عطية**: عبد الحق بن غالب الأندلسي، (ت ٥٤٦هـ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق أحمد صادق الملاح، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة القرآن والسنة، القاهرة، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

- **العكبري**: أبو البقاء عبد الله بن الحسين، (ت٦١٦هـ = ١٢١٩م) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، طبعة بولاق، ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م. وقد أعيد تحقيقه تحت عنوان: التبيان في إعراب القرآن، ٢مج، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البالي الحلبي، مصر الجديدة، القاهرة، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

- **العلوي**: يحيى بن حمزة، (ت ٧٤٩هـ = ١٣٤٨م) الطراز في أسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ٣مج، تصحيح سيد بن علي المرصفي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٣٢هـ = ١٩١٥م.

- **الفـرّاء**: أبو زكريا يـحيى بن زياد، (ت ٢٠٧هـ) معاني القرآن، ط٣، ٣مج، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

- **القرطبي**: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، (ت ٦٧١هـ = ١٢٧٢م).

  - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ٢مج، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

  - الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من آي السنة والفرقان، ط٢، ٢٠مج، تحقيق مصطفى السقا، تصحيح أحمد عبدالعليم البرذوني، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٧م.

- **الكرماني**: محمود بن حمزة بن نصر، (ت ٥٠٠هـ = ١١٠٦م تقريباً) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م. وقد أسماه المحقق (أسرار التكرار في القرآن الكريم).

- **المالقي**: أحمد بن عبد النور، (ت ٧٠٢هـ) رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد الخراط، مطبعة زيد بن ثابت، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

- **المرادي**: الحسن بن قاسم، (ت ٧٤٩هـ) الجني الداني في حروف المعاني، تحقيق د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط١ المكتبة العربية بحلب، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.
- **ابن منظور**: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي، (ت ٧١١هـ = ١٣١١م) لسان العرب، ١٤مج، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م.
- **النحّاس**: أحمد بن محمد بن إسماعيل، (ت ٣٣٧هـ = ٩٤٩م) إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، وزارة الأوقاف العراقية، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م.
- **النووي**: محيي الدين أبو زكريا، (ت ٦٧٦هـ) صحيح مسلم بشرح النووي، ١٧ج في ٩مج، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م.
- **الهروي**: علي بن محمد، (ت٤١٥هـ) الأزهية في علم الحروف، تحقيق عبد المعين الملوحي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.
- **ابن هشام**: أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف، (٧٦١هـ = ١٣٥٩م):
  - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ومعه كتاب هداية السالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، ٣مج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦.
  - مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب، ٢مج، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، [د.ت].
- **الواحدي**: أبو الحسن علي بن أحمد أسباب النزول، وبهامشه الناسخ والمنسوخ، عالم الكتب، بيروت، [د.ت].
- **ابن يعيش**: موفق الدين يعيش بن يعيش بن علي، (ت ٦٤٣هـ):
  - البيان في إعراب القرآن، طهران، ١٨٥٦م.
  - شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية بإشراف مشيخة الأزهر، القاهرة، [د.ت].

ب ـ المراجع الحديثة:

- **ابتسام الصفار**: معجم الدراسات القرآنية، منشورات جامعة بغداد، ١٩٨٤.
- **أحمد أحمد بدوي**: من بلاغة القرآن دار نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م.
- **أحمد ماهر البقري**: أساليب النفي في القرآن، المكتب العربي الحديث، ١٩٨٩م.
- **إسماعيل أحمد العمايرة وعبد الحميد السيد**: معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم، تكملة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

ـ **أمين الخولي**: مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦١م.

ـ **بدوي طبانة**: البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، ط٥، دار العودة، بيروت ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م.

ـ **بنت الشاطئ**: عائشة عبد الرحمن:

ـ الإعجاز البياني في القرآن ومسائل ابن الأزرق ط٢، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.

ـ التفسير البياني للقرآن الكريم، ط٣، مكتبة الدراسات الأدبية، ط٣ن ٢مج، دار المعارف، مصر، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٨م.

ـ **تمام حسان**: البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، ٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

ـ **التهامي نقرة**: سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية للتوزيع. تونس ١٩٧١م.

ـ **حسن محمود السيد**: روائع الإعجاز في القصص القرآني، دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٢م.

ـ **سعد أبو الرضا**:

ـ في البنية والدلالة، رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، منشأة المعارف، الإسكندرية [د.ت].

ـ البلاغة العربية بين القيمة والمعيارية، [د.ت].

ـ سليمان الطراونة، دراسة نصية، [أدبية]، في القصة القرآنية، حقوق الطبع للمؤلف، ١٩٩٢م.

ـ **سيِّد قطب**:

ـ التصوير الفني في القرآن الكريم، ط٤، دار الشروق، بيروت، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨.

ـ في ظلال القرآن، ط٧، ٨ مج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩١هـ = ١٩١١م.

ـ **صبحي الصالح**: مباحث في علوم القرآن، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.

ـ **صلاح عبد الفتاح الخالدي**: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، دار الفرقان، عمان، الأردن، ١٩٨٣م.

ـ **طاهر سليمان حمودة**: ظاهرة الحذف في الدرس النحوي، ط٢، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م.

ـ **عبد الفتاح الحموز**:

ـ المبتدأ والخبر في القرآن الكريم، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

ـ التأويل النحوي في القرآن الكريم، ٢مج، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

ـ الحذف في المثل العربي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م.
ـ الحمل على الجوار في القرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
ـ **عبد القادر حسين**: أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م.
ـ **عبد الكريم الخطيب**: القصص القرآني في منطوقه ومفهومه: دارسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، دار الفكر العربي، ومطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م.
ـ **عبد الوهاب النجار**: قصص الأنبياء، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت [د.ت].
ـ **عبد الوهاب الفضلي**: اللامات للزجاجي، دراسة نحوية. دار القلم، بيروت، ١٩٨٠م.
ـ **عبيد منصور الرفاعي**: أهداف القصة في القرآن الكريم، دار الفرقان، القاهرة، ١٩٧٨م.
ـ **عفت الشرقاوي**: بلاغة العطف في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
ـ **عمر الأسعد وفاطمة السعدي**: اللغة العربية بين المنهج والتطبيق، ط٢، مطابع الرأي، عمان ـ الأردن، ١٩٨٩م.
ـ **عودة أبو عودة**: شواهد الإعجاز القرآني: دراسة لغوية دلالية، دار الآفاق للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.
ـ **فضل عباس وسناء فضل عباس**:
ـ إعجاز القرآن الكريم، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف عمان ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.
ـ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ط٢، دار الفرقان، عمان ـ الأردن، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.
ـ لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن، دار النور للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م.
ـ **كاظم الظواهري**: بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، دار الصابوني ودار الهداية، بغداد، ١٩٩١م.
ـ **كمال بشر**: علم اللغة العام: الأصوات، ط٦، دار المعارف، مصر ـ القاهرة، ١٩٨٠م.
ـ **محمد أمين الخضري**: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
ـ **محمد بدوي عبد الجليل**: المجاز وأثره في الدرس النحوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.
ـ **محمد حسن عواد**: تناوب حروف الجر في لغة القرآن الكريم، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان ـ الأردن، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

ـ محمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ط٣ مكتبة الأنجلو مصرية، ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥م.

ـ محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

ـ محمد قطب: دراسات قرآنية، ط٢، دار الشروق، ١٩٨٠م.

ـ محمد متولي الشعراوي:

ـ معجزة القرآن، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٨م.

ـ المنتخب من تفسير القرآن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠م.

ـ محمد المجدوب: نظرات تحليلية في القصة القرآنية، ط٥، دار الشواف للنشر والتوزيع، القاهرة.

ـ محمد محمود حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٠م.

ـ محمد مصطفى المراغي: علوم البلاغة، ط٦، المكتبة المحمودية التجارية.

ـ محمد منير الدمشقي: المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، دار العلم، بيروت، ١٣٦٤هـ = ١٩٢٧م.

ـ محمود زلط القصيبي: قضايا التكرار في القصص القرآني، دار الأنصار، مصر، ١٩٧٨م.

ـ محمود السيد شيخون: أسرار التكرار في لغة القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ١٩٨٣م.

ـ محيي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط٤، ١٠مج، دار ابن كثير، حمص ـ سورية، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

ـ مصطفى عبد السلام أبو شادي: الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مكتبة القرآن للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٩٢م.

ـ مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ط٧، مكتبة وهبة، مصر، ١٩٩٠م.

ـ نهاد الموسى:

ـ في تاريخ العربية: أبحاث في الصورة التاريخية للنحو العربي، الجامعة الأردنية ـ عمان، ١٩٧٦م.

ـ حاشية على الاستشراق المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

ـ نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م.

فهـرس المحتـويـات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❋ ❋ ❋